موسوعة التربية والتعليم الإسلامية

قطاع الفلاسفة

الفلسفة التربوية عند

إخوان الصفاء

من خلال رسائلهم

دراسة وتحليل

الدكتور عبد الأمير ز. شمس الدين

دكتوراه دولة في فلسفة التربية

الشركة العالمية للكتاب

دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب العالمي

الفلسفة التربوية عند إخوان الصفاء

من خلال رسائلهم

القسم التربوي في دار الكتاب اللبناني

د. عبد الأمير شمس الدين
دكتوراه دولة في فلسفة التربية
أستاذ في الجامعة اللبنانية

عبد الحميد فايد
أستاذ التربية وأصول التدريس
في جامعة بيروت العربية

الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.
طباعة - نشر - توزيع

دار الكتاب اللبناني — مكتبة المدرسة
دار الكتاب العالمي — المركز العربي
دار العالم الاسلامي — دار الكتب الاسلامية
دار الكتاب للجميع — الدار الافريقية العربية

الادارة العامة
الصنائع - مقابل الاذاعة اللبنانية
هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦
تلكس LE ٢٢٨٦٥ - برقياً، كتالبان
بيروت - لبنان

المستودعات
هاتف ٣٥١١٢٢

الطبعة الأولى ١٩٨٨

إهداء

إلى من كان يدفعني دوماً إلى الأمام

إلى من كان لي خير معين ومساعد

إلى زوجتي

عبدالأمير

المؤلف

- دكتور عبد الأمير. ز. شمس الدين، من العاملين في مجالات التربية والتعليم في لبنان منذ عام ١٩٥٥. حاصل على درجة دكتوراه دولة في فلسفة التربية.
- انتدب إلى وزارة التربية في دولة الإمارات العربية المتحدة مديراً لمعاهد إعداد وتدريب المعلمين من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٨٢.
- قام بتدريس علم النفس التربوي وفلسفة التربية في جامعة الإمارات العربية.
- قام بتدريس مادة علم نفس الطفل والمراهق وعلم النفس التربوي في جامعة وهران ـ الجزائر.
- شارك في عدة ندوات، وقدّم عدّة دراسات في دولة الإمارات العربية المتحدة ـ وزارة التربية.
- يدرّس حالياً التربويات وعلم النفس التربوي في الجامعة اللبنانية.
- له عدة مؤلفات في الفكر التربوي عند الفقهاء والفلاسفة والأدابيين وغيرهم، وهي واردة في آخر هذا الكتاب.

* * *

توطئة

إخوان الصفاء وخلان الوفاء، رواد مدرسة نبتت في أرض الإسلام، ونَمَت في بيئة اسلامية .

مدرسة لا كغيرها من المدارس التي انبثقت عن فكر إسلامي، وأفرزتها بيئات إسلامية؛ إنها مدرسة تركت أثراً، وكانت ذات قيمة فكرية وعملية، سواء على مستوى الفكر البشري بوجه عام، أو على مستوى الفكر الإسلامي بوجه خاص، ولم يخطىء كل من أنصف تلك الجماعة ـ سواء كانت فرداً تمثلَّ في جماعة، أو جماعة تمثلت في فرد ـ عندما وضعها مع العظماء في تاريخ البشرية، ومع من كان لهم دور وأثر في الفكر البشري من ناحية، وفي توجيه مسار الإنسانية من ناحية أخرى.

وإن كان من حقنا على هذه الجماعة أن نتناول فكرها وتعاليمها بالنقد والتحليل حيناً، وبالطعن والتجريح حيناً آخر، فإن من حقها علينا أن لا نطمس ذلك الفكر، وأن لا نتجاهل ذلك الأثر.

ومما لا شك فيه أنه كان وراء مدرسة كهذه، استطاعت أن تُشغِل عصرها ولا زالت، فكرٌ عَرَفَ ماذا يريد، فأخرج ما وُجِد عنده بالقوة إلى الفعل، وحاول الإنتقال مما هو كائن إلى ما يجب أن يكون.

إنها تربية بمعنى الكلمة، وإلا لما استطاعت تعاليمها أن تبقى وتعيش. وبكلمة؛ كان لهذه الجماعة فكر تربوي استطاع أن يتمثَّل واقع عصره ومجتمعه، وينسج من

ذلك الواقع مثالاً للإنسان الذي يريد ، واجتهد في أن يرتقي ليبلغ به ذلك المثال.

فما هو المنهج التربوي والتعليمي الذي وقع عليه خيار تلك الجماعة؟ وما هي المعطيات التي ألّف بينها ونُسّقت عناصرها ، حتى جاء ذلك المنهج مناسباً لرؤية كاملة لطبيعة الإنسان إنطلقوا منها ، ومحققاً لغايات قصوى سَعَوْا إليها ؟

إنه موضوع بحثنا في هذا الكتاب.

مقدّمة

سنحاول في هذه المقدمة أن نُدلي بدلونا ونُقْدِمَ على زيارة « بستان » إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء، حيث يجد الزائر في ذلك البستان (من كل ثمرة طيبة وفاكهة لذيذة، وريحان زكي، وورد جَني، ونورٍ أنيق، وجوهر بهي، وطَيْر غَرِد، وشراب عذب) فيتناول ما يشاء، ويتنشق ما يشاء، ويمتّع الطرف كيف وأنّى شاء.

هكذا قَدّم اخوان الصفاء تراثهم للبحّاث، وهكذا يبدو أيضاً في مظهره ومحتواه، وفي شكله ومضمونه.

وكلما غاص الباحث في أعماقه، يجده بحراً زاخراً بالعلوم المجمَّعة، والآراء المتفرقة، ذات المشارب المختلفة والمصادر المتنوعة، حيث جَمَعوا ونسَّقوا كل ما وصل إليهم من إنتاج الفكر البشري بمصدريه: وَحْيِ السماء وحكمة العقل، خبرة الإنسان ومعتقدات الشعوب بما فيها الخرافي والتلفيقي، وقدَّموها للباحثين عن الحقيقة ولمريدي الخلاص، كمذهب فلسفي اعتقادي، مستغرقاً للكون بأسره بعالميه الأكبر والأصغر (الإنسان)، المنظور منه (ما تحت فلك القمر) وغير المنظور (ما فوق فلك القمر)، وللحياة بشقيّها الفاني والباقي، وللإنسان بجوهرية الروح والجسد، وللفكر بجانبيه: النظري والعملي، فكانوا أوّل من أدخل الفلسفة إلى الشرق، ووضع بذرة التفلسف والفكر الفلسفي في الإسلام.

إنه مذهب تحدد مساره سلفاً، وارتسمت معالمه بالذهن مسبقاً، فكان محاولة

توفيقية توليفيه بين الحكمة (الفلسفة) والشريعة (الوحي)، بين العقل والنقل، فكان إخوان الصفاء ظاهرة عصرهم ومجتمعهم، وكان إنتاجهم الفكري نموذجاً لمسار الفكر الإنساني بأسره.

لقد كانت هذه الجماعة ولا زالت موضع إهتمام وعناية الباحثين، كما أن قيمة تراثهم موضع جدل وخلاف.

وصف البعض[1] هذا التراث (بموسوعة علمية ودائرة معارف). وقدّمه آخرون على انه جملة من الفنون ممزوجة بالخرافات والتلفيقات والكنايات والتلزيقات،... (غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها)[2]، وهو عند آخرين[3] محاولة دس وضم للفلسفة بالشريعة دون جدوى: (تعبوا وما أغنوا... ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع...).

ومنهم من نظر إلى أصحاب هذا الفكر كخارجين على الإسلام، ودعاته لم يعدوا أن يكونوا أئمة لبعض الطوائف[4].

وفي الجانب الآخر هناك من رأى (في مملكتهم كنوزاً فلسفية، وحكماً نادرة جديرة بالبحث والدراسة، وهي تمثّل وجهة الفلسفة الإسلامية أصدق تمثيل)[5].

وهكذا تفاوتت الآراء والمواقف، وتناقضت الأحكام، فتهافت على هذا التراث المسلمون وغير المسلمين، غربيين ومستشرقين، فأمعنوا فيه بحثاً وتحقيقاً، نقداً وترجمة. وكان ما كان من مواقف وآراء.

---

(١) دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة أبو ريدة، ص ١١٣.

(٢) أبو حيّان التوحيدي، كتاب الامتاع والمؤانسة، بيروت، المكتبة العصرية، جـ ٢، ص ٥ ـ ٦.

(٣) رأي أبي سليمان السجستاني المعروف بالمنطقي، وكان يرى، ان الفلسفة حق، ولكنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حق ولكنها ليست من الفلسفة في شيء. صاحب الشريعة مبعوث وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، المرجع السابع، ص، ١٨.

(٤) إحدى فتاوى ابن تيمية في بعض الطوائف، كالنصيرية والإسماعيلية.

(٥) عارف تامر، رسالة جامعة الجامعة، بيروت ـ مكتبة الحياة، ص ٢، ص: ٦١.

وحتى الآن، في نظر مصطفى غالب، لا نجد (من استطاع أن يوصلنا إلى الهدف العلمي الكامل، والمعرفة التامة، أو تمكّن أن يدلنا على مفتاح كنوز الدعوة الثمينة، وثرواتها الفكرية العظيمة وذخائرها الفلسفية الغالية، التي طبعت العصور السالفة بطابع عميق من حياتها العقلية الراقية، ونثرت حولها فيضاً من العلم والمعرفة)(١).

وما تجدر الإشارة إليه، إن هذا الاختلاف والتناقض، بدلاً من أن يعمل على هدم وتقويض ذلك التيّار الفكري (العقلاني)، نجده على العكس يقوّيه على متابعة مسيرته عبر العصور والأجيال، ليصبح اتجاهاً متميّزاً في الإسلام، له أنصاره وروّاده، متمثلاً في أصحاب الرأي (العقل)، مقابل الاتجاه الآخر، الناقد والرافض المتمثّل بأصحاب النقل (الشرع)، الذين اتهموا العقل وأصحابه بالعجز والقصور عن إدراك ما يدركه الأنبياء والمرسلون عن طريق الوحي.

إنها سنّة الخلق إزاء كل جديد ومستحدث، في كل مجتمع وكل عصر - مذكّرين بموقف الرأي العام دوماً إزاء المبادرات والمستحدثات، فكيف بنا عندما تمس المعتقد وتطاله - حيث ينقسم الرأي بين مؤيد ومعارض، بين مناصر ومناهض.

والقليل من يتخذ الموقف الموضوعي المتجرّد، إذ يغرب عن بالهم أن التجديد والديالكتيك من طبيعة الفكر وخاصية العقل البشري.

ولم يكن إخوان الصفاء بتراثهم الفكري إلاّ أصحاب مبادرة جريئة صبورة ودؤوبة أفرزها الفكر البشري في بيئة دينية كانت الفلسفة حينها ضرباً من الكفر والإلحاد، فلم يكن أمامهم سوى كتمان أسمائهم، والسرية لدعوتهم، حتى تسنّى لتلك الجماعة ولدعوتها البقاء والاستمرار.

إنها قفزة تاريخية للفكر الإسلامي بوجه خاص، وللفكر الإنساني بوجه عام، كما اعتبرها المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي (Ernold Tuinby) في كتابه «تاريخ

---

(١) أحمد حميد الكرماني، راحة العقل، تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب، بيروت - دار الأندلس - ١٩٦٧، ص: ١٧١.

البشرية»[1]، إذ رأى أن لهذه الجماعة فضل التغيير في ثقافة مجتمعهم الإسلامي والمجتمع البشري.

هذا من حيث قيمة ذلك التراث وماهيته الفكرية، أمّا من حيث أصحابه وروّاده، فما زال لغزاً تاريخياً كثرت حوله الآراء، وتعـدّدت التأويلات والتكهّنات، حتى غدا الحديث عنها ضرباً من الحدس والتخمين.

لقد كتمت هذه الجماعة أسماءها، واختارت السرّية لأنصارها، لما تعرّضوا له من مطاردة واضطهاد في عصر المأمون - فعزيت رسائلها إلى بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب حيناً، وإلى علماء عارفين للناموس الإلهي وحافظين له حيناً آخر. إذ تصافوا على المودّة والمحبة، واتخذوا العقل حكماً بينهم. هم الخلفاء الأربعة للإمام السابع: عبدالله بن حمدان، وعبدالله بن ميمون، وعبدالله بن مبارك، وعبدالله بن سعيد. (وقد اجتمع هؤلاء الأربعة مع غيرهم من العارفين ووضعوا رسائل طويلة في شتّى العلوم والفنون، وعددها اثنتان وخمسون رسالة)[2].

وبسبب التستّر والكتمان على أسماء هذه الجماعة، من الطبيعي أن تضيع الحقيقة، ويفقد الحجى. من المؤرخين من اعتقد إن هناك أئمة مستورين كان لهم دعاة ومؤيدون، وهؤلاء الدعاة هم واضعو الرسائل. كما اعتقد آخرون أن واحداً فقط كتم اسمه وتمثّل في جماعة وأخرج الحق والصواب، بعد أن لاحظ ان المجتمع بدأ ينحرف عن جادة الصواب، وأن خليفة المسلمين قد انحرف بالأمة عن شريعة محمد، وأخذ

---

(١) أرنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، بيروت - الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ج ٢، ص: ١٣٨.

(٢) القفطي، تاريخ الحكماء. ويذكر على لسان أحد المؤرخين أن الإمام السابع عند الطائفة الشيعية، محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، هرب أيام الرشيد. وقد أوصى هذا الإمام بالخلافة من بعده لابنه عبدالله (١٦٩ - ٢١٢). وهذا الأخير تعددت حول شخصه الآراء والتكهنات، منهم من ادّعى أنه عبدالله بن ميمون المعروف بقدّاح الحكمة، ومنهم من قال أنه عبدالله بن سعيد أو عبدالله بن مبارك، أو عبدالله بن حمدان. ومنهم من ينسب هذا التراث إلى هؤلاء جميعاً.

يبدّل الشريعة الإسلامية.

وهم عند أبي حيّان التوحيدي (عصابة تآلفت بالعشرة وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة، فوضعوا مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله)[1]. وهذه الجماعة عاشت في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد).

بينما يذكر السجستاني في «صوان الحكمة» الأسماء التالية لهذه الجماعة:

- أبو سليمان محمد البستي، المعروف بالمقدسي.
- أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني.
- أبو أحمد المهرجاني.
- أبو الحسن العوفي.
- زيد بن رفاعة.

وهذه الجماعة نفسها يغشاها الغموض والشك عند البستاني: «ولا يسفر اليقين عن حقيقة أمرهم ما يطمئن الخاطر ويشرح الصدر، لما كانوا عليه من التستّر والكتمان»[2].

وقد تفاوتت الآراء عن مدى أثرهم واستمرار هذا الأثر في الأجيال اللاحقة. فمن كونهم أئمة لبعض الطوائف التي عايشت الإسلام، إلى كونهم (جماعة ظهرت تعاليمهم ومذهبهم من جديد عند فرق كثيرة في العالم الإسلامي، كالباطنيين والاسماعليين والدروز والحشاشين، بعد أن أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق عن طريق إخوان الصفاء)[3].

---

(١) أبو حيّان التوحيدي، المرجع السابق، ص: ٦.

(٢) بطرس البستاني، مقدمة رسائل إخوان الصفاء، جـ ١، بيروت ـ مكتبة صادر ـ عام ١٩٥٧، ص: ٥.

(٣) دي بور، المرجع السابق، ويذكر اسم محمد بن أحمد النهرجوري بدلاً من أحمد المهرجاني.

أما عند عارف تامر، المحقق والباحث في رسائلهم، فهم باذرو البذرة الأولى للفلسفة في الإسلام، كما هم عنده مؤسسو المذهب الإسماعيلي، حيث أن جميع المعطيات والمؤشرات التاريخية والعلمية والفلسفية (جاءت جميعها لتؤكد علاقة إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء بالاسماعيلية، واعتبارهم من المؤسسين لهذه الدعوة الفلسفية ذات الرسالة الكبرى والحضارة العظمى)[1].

بل هناك من يؤكد أن إخوان الصفاء هم باذرو البذرة الأولى للمذهب الإسماعيلي، التوحيدي، العقلاني، الباطني، التعليمي، السرّي، في زمن الإمام جعفر الصادق. وعمل على نشرها وترويجها في الخفاء الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق في حياة أبيه، وبمساعدة حدوده ودعاته الأربعة: ميمون القداح، مبارك بن جعفر، المفضّل بن الربيع وحمدان بن أحمد. ومن بعده ابنه محمد (الذي كان على جانب عظيم من العبقرية والثقافة، راجح الفكر، ثاقب النظر)[2].

بقيت كلمة أخيرة عن هذا التراث وأصحابه، لا بد أن نختم بها هذا الموضوع. إن إنتاج إخوان الصفاء كان وسيبقى من جانبه العام مثالاً لوَمَضات الفكر الإنساني المتجدّد المستوعب لذاته ولغيره، والذي لا بدّ له من أن ينتفض كلما شعر أن هناك شيئاً يعيقه ويشلّ حركته، فيمارس ماهيته لينبعث متجدّداً متحدياً لما يعتبره معيقاً له، فيلملم ذاته، لينطلق بالكائن البشري وبفكره نحو آفاق جديدة ومستقبل أفضل.

ومن جانبه الخاص، إنه ذلك النموذج من الفكر الإسلامي المستوعب لماضيه ولحاضره، والمنفتح على جميع المعطيات القديمة منها والحديثة. لا بدّ أن ينشط ليتحسَّس ذاته، فيلمس مواطن الضعف فيه، قبل أن يتسرب إليه الوهن والكلال والقصور، فينبري ليمتص ويتمثل كل مستجد وطارىء من معطيات حضارية وثقافية خلال المسيرة الإنسانية، ليُكسِب ذاته المناعة، ويمدّ نفسه بعناصر المقاومة الكفيلة بأن تحفظ له خصائصه ومقوّماته وأصالته، وللإنسان المسلم بقاءه واستمراره.

---

(١) عارف تامر، المرجع السابق، ص: ٦.

(٢) عارف تامر، المرجع السابق، ص: ٢٣.

هذا التراث سواء كان اسلامياً بحتاً أو مشوباً، عربياً أصيلاً أو غير أصيل، مصيباً أو مخطئاً، مفيداً أو مضراً، فإنه بهذا الثراء والخصب بجانبيه الكمّي والنوعي، جدير بأن يُنَصف ليأخذ موقعه الجدير بين معطيات الفكر الإنساني ولمعات العقل، التي لا يجود بها الفكر البشري إلاّ في فترات متباعدة ونادرة.

ولعل محاولتنا الموضوعية المتواضعة هذه، «البحث عن المذهب التربوي عند إخوان الصفاء»، وهي الأولى من نوعها، والتي ستُضمّ إلى محاولات السابقين واللاحقين، في مجالات أخرى، ستساعد على جلاء ذلك الفكر وتزيده وضوحاً وتحديداً، وذلك التراث غنىً وثراءً.

وباعتراف الجميع، فإن هذه الجماعة هي صاحبة تلك الفلسفة النظرية الشاملة المتكاملة. وبالرغم من اعتقاد البعض بأنها قد أشبعت درساً وبحثاً من جانبها النظري، فإن الحاجة لا تزال مُلحّة للبحث في الجانب الآخر لتلك الفلسفة، وهو الجانب العملي والتطبيقي، إذ استطاعت من خلاله ترك الأثر الذي رأيناه، وكُتب لتعاليمها ولمعتقداتها البقاء والاستمرار. ولا يكون هذا إلاّ بالبحث عن المذهب التربوي، الذي كان لهم الأداة والوسيلة للانتقال مما في الرأي إلى العيان، ومما هو موجود بالقوة إلى وجود بالفعل، ومن النظر إلى التطبيق. بهذا الجانب ستتم تلك الفلسفة وتكتمل، ويتضح ذلك الفكر ويتحدّد.

القسم الأول

التحليل

الفصل الأول ● في الفلسفة والتربية

الفصل الثاني ● فلسفة إخوان الصفاء وتعاليمهم

الفصل الثالث ● بعض المفاهيم التربوية

الفصل الرابع ● مذهب إخوان الصفاء التربوي

الفصل الخامس ● الصنائع العلمية الروحية

الخاتمة ● خلاصة وحكم

الفصل الأول ● في الفلسفة والتربية

الفلسفة بمعناها العام تعني تلك النظرة الشاملة والمتكاملة للوجود بعالميه:

الأكبر (الكون) والأصغر (الإنسان). ومتى كانت الفلسفة ذات نزعة إنسانية يأخذ الإنسان فيها الموقع الأهم حتى يكاد أن يكون هو نفسه هدف تلك الفلسفة وغرضها. ومن نافلة القول أن تتضمن الفلسفة ـ أيّة فلسفة ـ تفسيراً للكائن البشري الذي هو أحد موجودات هذا الكون، تفسيراً يكشف عن ماهيته وأغراضه القصوى، مبدئه ومصيره، طبيعته وتكوينه وعلاقته بالطبيعة وبمحيطه، أثره بها وأثرها به.

ولما كانت الفلسفة وَحُبُّ الحكمة مترادفين وإصطلاحين لمعنى واحد، كان من الطبيعي أن تنزع الفلسفة دوماً وأبداً إلى التعميم والشمولية، وإلى التكامل والانتشار، لأنه ليس من المنطق في شيء أن يكون محب الحكمة (الفيلسوف) أنانياً، وينفرد بحيازة الحكمة ويحصر طلبها بذاته. بل نجد الفلسفة ـ كل فلسفة ـ بلا إستثناء كأنها دعوة للأنضواء تحتها، والإقبال على مُثلها والإرتشاف من معينها، والإغتذاء بحقائقها. ويذكّرنا هذا بالكلام المأثور: «ليس من الحكمة بشيء أن تكون قبضتك مليئة بالحقائق وتُبقي عليها مقفلة».

لذا لم نجد الفكر البشري قد بَخُل يوماً على الإنسانية بما أدركه من حقائق وما توصل إليه من حكمه. فهو لم يَحْرم يوماً البشرية من خير بلّغه، أو من حقيقة

أدركها، بل نجده يوجه الدعوة ويلح بها، ويدفع الآخرين دفعاً ليشاركوه تلك الخيرات، ويعيشوا معه تلك الحقائق.

وبكلمة، إن الفلسفة هي تلك الدعوة الموجهة من صاحبها إلى الإنسانية كافة لدخول رحاب الحقيقة التي أدركها بنفسه، ولمشاركته حياة السعادة الأبدية التي يحياها في محرابه، إذ ليس من السعادة بشيء بقاء الإنسان وحيداً بمعزل عن بني جنسه.

وهكذا تكون الفلسفة على حد قول المربي الفرنسي أوبير (R-obert): (هي الشاهد على إعترافات الفكر وهو يبوح بخير ما عنده وليس بشرّ ما عنده كما هو شأن المرء (صاحب الخطيئة) أمام القسيس للبوح بما أقدم عليه من شرّ وخطيئة)[1].

وتاريخ الإنسانية، وأيضاً تاريخ الفكر البشري خير شاهد على ما ذكرنا، إذ هما مزدحمان بالعديد من النماذج لأفراد ولجماعات، كان لهم صولات وجولات مع أبناء جنسهم، مقدّمين لهم خير ما أدركوه من حقائق، كما أنهم لم يعرفوا وسيلة إلا لجأوا إليها أو إستعانوا بها من أجل خلاص البشر وإسعادهم، حتى لو إقتضى الأمر أحياناً تقديم حياتهم قرباناً لتلك الحقائق التي أدركوها[2].

وبإيجاز إن ماهية الفلسفة هي الخروج بما هو موجود في الذهن بالقوة إلى الوجود بالفعل (العيان)، إذ ما جدوى النظري أو الوجود بالقوة إذا لم يُتح له الخروج إلى الفعل والواقع.

وإذا أجزنا لأنفسنا أن نُطلِق على ما هو موجود في الذهن ـ قبل خروجه إلى العيان ـ بأنه يُشكّل الجانب النظري أو المثالي من الفكر، فلا بد لهذا الفكر ليتم

---

(١) ر. أوبير، التربية العامة، ترجمة عبدالله عبد الدائم، بيروت، دار العلم للملايين، ص ٤، عام ١٩٧٥ ص، ١٧.

(٢) تشمل هذه الظاهرة إلى جانب الأنبياء والمرسلين، الحكماء والفلاسفة. نذكر بوذا الذي ترك الحكم والسلطة ليعتزل المجتمع للتأمل والتفكير في الإنسان مبدأ وحياة ومصيراً، وعاد إلى المجتمع بعد عزلته ليقدم للبشرية مذهبه الإنساني المعروف. وأيضاً سقراط، الذي أحيل إلى المحاكمة بتهمة إفساد الناشئة بتعاليمه.

ويكتمل أن يُقْدِم على إخراج ما هو عنده بالقوة (الصورة والمثال) إلى الفعل والواقع، أي إلى العمل والتطبيق، مستعيناً بكل ما توفر له من معطيات وإمكانيات.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن نلحظ في الفكر الفلسفي مرحلتين متممتين لبعضها ومتكاملتين:

الأولى: (القناعات الفكرية) حين يتوصل الفكر لرؤيةٍ أو تصور للإنسان ولماهيته ولغاياته القصوى، ويكون هذا التصور وتلك القناعات هو المثال لما يجب أن يكون عليه الإنسان.

الثانية: يُقْدِم الفكر على إخراج تلك الرؤية (الصورة) عن طريق تجميع وتنسيق جميع المعطيات المتوفرة ـ سواء من داخل الفكر ذاته أو من خارجه ـ لينسج منها مذهباً أو منهجية تكفل للإنسان بلوغ ذلك المثال، وتحقيق تلك الماهية. وبتعبير فلسفي: انها عملية إخراج ما هو موجود بالقوة إلى وجود بالفعل.

وإذا كان الفكر في مرحلته الأولى قد أقام ذلك النموذج (المثال) للإنسان في المطلق، متجاوزاً مقولتي الزمان والمكان، ويتداخل فيها ماضي الإنسان وحاضره مع مستقبله، وفي هذه الحالة لم تتعد مرحلة الرؤية أو التصور أو الافتراض، فإنه ـ أي الفكر ـ في المرحلة الثانية يبقى مشدوداً إلى تلكما المقولتين (المكان والزمان) حيث يشكلان المعطيات الأساسية إلى جانب معطيات أخرى من داخل الذهن (التصور) أو من خارجه (الواقع). وبدون هذه المرحلة، تبقى تلك النماذج ـ المثل، لا تعدو أن تكون رؤىً وتصورات ذهنية، حيث لم يُتح لها الخروج إلى العيان والواقع. وتبقى حينها الفلسفة والعمل الفلسفي أسيرين للتصور والخيال، ولا يتعدّيان عندها حدود الفرضيات.

وبهذا المفهوم للفلسفة، تكون التربية هي الجزء المتمم والمكمل للفلسفة.

هنا تجدنا أمام سؤال يطرح نفسه: أين يلتقي العمل الفلسفي والعمل التربوي؟.

فإذا كانت ماهية العمل الفلسفي هي الانتقال أو الخروج بالمثال الذي بالذهن إلى

الواقع أي مما يجب أن يكون إلى حد ما هو كائن، ومما هو داخل الذهن (النظر) إلى ما هو خارج الذهن (الواقع)، فإن العمل التربوي هو الانتقال مما هو كائن إلى ما يجب أن يكون، مما هو خارج الذهن (الواقع) إلى ما هو داخل الذهن (النظر) وهكذا يبدأ العمل التربوي حيث تنتهي الفلسفة، وتبدأ الفلسفة حيث ينتهي العمل التربوي. وعلى ضوء ذلك يمكن القول: فلسفة بدون تربية ناقصة، وتربية بدون فلسفة عمياء. وإذا كانت الفلسفة تتعامل مع المطلق فإن التربية تتعامل مع الواقع بجميع معطياته: المكانية والزمانية، الروحية والمادية والفكرية، إنها تتعامل مع الإنسان في المكان والزمان ومعطياتها لتحقق له ماهيته،ليصير ما هو، أي ما يجب أن يكون عليه.

وبهذا يكون الإنسان في سيرته الحياتية ومسيرته الإنسانية، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، الإنسانُ المبدأ والمصير، الإنسانُ بطبيعته وماهيته في المكان والزمان نقطة التماس بين الفلسفة والتربية؛ فالفلسفة تمد التربية بالتفسير والتصور والفرضيات وبمادة الفكر، بينما التربية تنصبُّ على هذا الكائن لتحدد له المسار والطريق نحو ذلك المصير الذي إختارته له الفلسفة، ومن ثمة تنبرى لتنسق وتوضّب وتوظف جميع المعطيات لتنسج منها مذهباً ومنهجاً تربوياً وحياتياً لهذا الكائن، يتناسب مع تلك الغايات من ناحية، ومع التفسيرات والفرضيات التي تناسب طبيعته من ناحية أخرى.

من هنا تضطلع التربيـة عادة بأخطر المهام وأكبر المسؤوليات المخوّلة للإنسان كإنسان وهو ما يقع عادة على عاتق الفلاسفـة والحكماء،الأنبياء والمرسلين؛ فهي بالإضافة للمصير الذي افترضوه أو اختاروه لهذا الكائن، فإنهما أي الفلسفة والتربية، يعملان جنباً إلى جنب، ويلحّان على السير بالإنسان إلى تلك الغايات التي اختاروها له بأنفسهم.

وتتجلّى تلك الخطورة، وتتضح تلك المسؤولية عندما تطال التربية فيمن تطال أكثر الكائنات طواعية واستسلاماً، عجزاً وقصوراً وسرعة عطب، الأطفالَ من الجنس البشري، تلكم الكائنات التي لم يكن لها رأي أو إرادة أو اختيار للمصير الذي

افترضه لهم الآخرون. ولا يقتصر هذا على المسيرة الإنسانية في الحياة الدنيا، بل يتعدّاه إلى الحياة الآخرة وما تخبّئه له.

وما علينا هنا إلاّ أن نردّد ونتمنى مع المربي الفرنسي أوبير (Obert) على رجال الفكر أن لا يقولوا ولا يبوحوا لبني جنسهم إلا بخير ما عندهم وبما أخذوه هم على عاتقهم، (إن أكبر خدمة يقدمها رجال الفكر إلى عصر تعيس أن لا يقولوا له غير الأفكار التي أخذوها على عاتقهم، لأنهم أطالوا النظر والرويّة فيها، وعملوا مديداً على إنضاجها)[1].

هذه هي التربية وشأن المربين، مهما اختلفت الألفاظ وتعددت التعاريف. لقد كانت التربية وستبقى تلك العمليات التي يمارسها الكبار أو الراشدون أو البعض على الآخرين، ليجعلوا منهم ما يريدونه لهم. وزيادة على ذلك يرى البعض إن المربّين يصنعون الآخرين على المثال الذي كانوا يريدونه لأنفسهم.

والتربية، سواء كان مصدرها الأنبياء والمرسلون (عن طريق الوحي) أو الفلاسفة والحكماء، أو القادة والسياسيون (عن طريق العقل)، هي عادةً الأداة التي يعملون من خلالها على تحقيق ماهية الإنسان التي ارادوها له، لأن التربية في تعاملها مع الإنسان، تستمد من ماضيه مادة للتأمل والتفكير، ومن حاضره وواقعه ـ في دائرتي المكان والزمان ـ أداة وموضوعاً، ومن مصيره ومستقبله غاية وغرضاً. ومن هذه المعطيات جيمها يصيغ الفكر التربوي مذهبه التربوي أو فلسفته التربوية، لتكون أدواتها ووسائلها إلى الأغراض والغايات أقرب، وللموضوع والمنطلق أنسب.

إنها التربية التي عنيناها، بمفهومها الشامل والبعيد: الإنسان موضوعها ومنطلقها، وتحقيق ماهيته غرضها. وما بين المنطلق والغرض تلجأ التربية إلى الكثير والكثير من العمليات والمراحل والأهداف والوسائل والأدوات والطرق والأساليب والمناهج والمقرّرات والمؤسّسات... وغير هذا الكثير من المفاهيم والمصطلحات، القديم منها

---

(١) المرجع السابق، ص: ١٧.

والحديث [1]، ليمعن الفكر بها تنظيماً وتنسيقاً وتوظيفاً، بشكل أو بآخر، بطريقة أو بأخرى، لغرض أو لآخر، فينسج منها جميعاً مذهباً تربوياً أو فلسفة تربوية، ويخرجها فـي إطار منهجية معيّنة لتكون طريق الخلاص للإنسان، بها تتحقق ماهيته، وباتباعها تُدرك أغراضه القصوى.

(١) أطلق مؤخراً على هذا العمل بمجمله علم التربية أو البيداغوجيا (La Pédagogie).

الفصل الثاني ● فلسفة إخوان الصفاء وتعاليمهم

لما كانت الفلسفة هي الإطار العام الذي يتحرك داخله الفكر، ومن خلالها تتحدد الرؤية الكليّة للكون عامة وللإنسان خاصة، كان علينا أن نتوقف عند تلك الرؤية أو الفلسفة التي تحرّك في إطارها فكر إخوان الصفاء، وأعطوا ما أعطوا من تفسيرات وآراء ونظريات عن العالمين، الأكبر (الكون) والأصغر (الإنسان) داخل إطار واحد ونظرة شمولية ، مما حدا بالبعض إلى أن يطلق على تلك الرؤية «فلسفة كونية».

ومما لا شك فيه إن من الصعوبة بمكان أن نقدم ما قدّمه إخوان الصفاء على مدى اثنتين وخمسين رسالة، في كتب ومجلدّات، أن نقدّمه نحن هنا في صفحات معدودة، ومن خلال بعض الأفكار. ورغم أن غرضنا ليس البحث عن الفلسفة النظرية لهذه الجماعة، أي الجانب النظري لفكرهم، وإنما غرضنا هو فلسفتهم التربوية، أي الجانب العملي، يتحتم علينا أن نعرض لفلسفتهم النظرية ولو بشيء من السرعة والإيجاز يفيان بالغرض، وذلك لنقف على العناصر الأساسية لتلك الفلسفة من ناحية، وليتسنى لنا الانتقال مما هو نظري عندهم الى ما هو عملي، وللوقوف على مدى مطابقة الجانب النظري لهذا الفكر لجانبه العملي، من ناحية أخرى.

ولعل من المستحسن أن نقدّم فلسفتهم بعرض لرأيهم الخاص بالفلسفة ذاتها، حيث يقولون: «إن الفلسفة هي طلب الحكمة التي تسمّى الفلسفة... وأوّلها محبة العلوم،

وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم »[1].

إنها رؤية موجودة بالقوة في ذهنهم، فأخرجوها من القوة إلى الفعل، وقدّموا في اثنتين وخمسين رسالة تصوراتهم وفرضياتهم التي أقاموا عليها صرح فلسفتهم الكونية، داعين الى تلك التعاليم كل ساع وراء الحقيقة، ومريد للخلاص.

أ - نظرتهم للكون وللوجود:

رأوا في الوجود مراتب أربع:

١ - الله، هو الواحد في المرتبة الأولى وخالق كل شيء.
٢ - العقل الفعّال، في المرتبة الثانية، وهو أول الخلق، ونسبته الى الله كنسبة الإثنين الى الواحد.
٣ - النفس الكليّة، وهي المنبثقة من نور العقل، وهي ثاني الخلق، ونسبتها الى الله كنسبة الثلاثة إلى الواحد.
٤ - الهيولي الأولى، ناتجة عن حركة النفس، ونسبتها الى الله كنسبة الأربعة إلى الواحد.

وهذا القسم من الوجود يتكون منه عالم « ما فوق فلك القمر »، وهو عالم روحاني فيه صور الموجودات. أما القسم الآخر من الوجود والذي هو « تحت فلك القمر » المتمثل بالكائنات الصادرة جيمها عن الهيولي الأولى والثانية بعد إتحادها بالصورة.

وهذه الكائنات تتدرج بالشرف والرفعة، فهي إما هيولي بدون نفس، كالجماد، وإما هيولي تضاف إليها النفس، كالحيوان والنبات، وإما هيولي تضاف إليها النفس والعقل، كالإنسان، وهو أشرفها، ويكون ذلك بحسب الطبيعة والماهية التي أوْجدها لكل منها خالق الكل: الله عز وعلا. ونسبته إليها، أي الموجودات، كنسبة الواحد

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص: ٤٤.

الى العدد (ونسبة الباري جل ثناؤه الى الموجودات كنسبة الواحد إلى العدد، وكما أن الواحد أصل العدد ومنشؤه وأوله وآخره، كذلك الله عز وجل، هو علّة الأشياء وخالقها، وأوّلها وآخرها)[1].

وهكذا انطلق الإخوان في فلسفتهم يعرضون تلك العلاقة بين الخالق ومخلوقاته، كيف صدرت عنه بإعتباره مبدؤها ومصدرها، وكيف ترجع إليه بإعتباره غايتها ونهايتها. ومن تلك النقطة (والعلم نقطة كبّرها...) أقام إخوان الصفاء ذلك البناء المتماسك من الفكر والتصور.

ب ـ بالعلوم والمعارف ترتقي النفس وتتحقق ماهيتها:

لما كان العدد (واحد) هو الأصل والمبدأ كان لا بد أن تبدأ به المعرفة وتتمحور حوله العلوم بأنواعها: الأرثماطيقا (Arthmétique) والجيومطريقا (Geométrie) والإسطرووميا (Astronomie) والموسيقى (Musique) لترتقي النفس من هذه العلوم (الرياضة) إلى غيرها من العلوم الأرقي والأشرف. فالأرثماطيقا هي أم العلوم وأسّها، منها تبدأ وإليها تنتهي، باعتبارها (العلم الكائن في النفس بالفطرة) فمن معرفة ما هية العدد وخواصه يتدرج العقل في معارفه في سلّم الموجودات مروراً بالهيولي الثانية (المادة) وما يتولد عنها من طبائع وأركان واخلاط ومكونات هي:

- الطبائع الأربعة: الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.
- الأركان الأربعة: النار، والماء، والهواء، والتراب.
- الاخلاط الأربعة: الدم، والبلغم، والمرّتان: الصفراء، والسوداء.
- المكونات الأربعة: المعادن، والنبات، والحيوان، والإنسان.

و«الأرثماطيقا» هي العلم الوحيد الذي لا يتطلب من المرء الرجوع إلى أي علم آخر، إذ أنه موجود بالقوة في النفس البشرية، فانه يكفي التفكير فيه والتأمل ليخرج

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص:٥٤.

هذا العلم من القوة إلى الفعل، والتفكير هذا هو أحد عوارض النفس البشرية (والعرض لا يكون له قوام إلا بالجوهر، ولا يوجد إلا فيه)، فالنفس إذاً جوهر قائم بذاته، وما يصدر عنه من أعراض دليل وجوده وتمايزه.

وهكذا تبلغ النفس البشرية غايتها وتحقق ما هيتها، اذ تتبع في ترقيها في العلوم والمعارف إتجاهاً مناسباً لتلك الطبيعة والماهية، إبتداء من علوم «الأرثماطيقا» ـ علم العدد ـ الموجود في النفس بالقوة، إلى علم الطبيعيات ومن ثم إلى الإلٰهيات وهي أقصى أغراض الحكماء، ونهاية ما تترقّى إليه النفس البشرية، حيث تكون قد عادت إلى مبدئها الأول (الواحد) بالنسبة للعلوم، والله سبحانه خالق كل شيء، ومبدأ الكون ونهايته، بالنسبة للناموس الألٰهي.

إذاً، العلوم هي بمثابة السلم الذي تترقى فيه النفس البشرية، لتبلغ من خلالها أقصى غاياتها، لتعود الى مبدئها الأول (الروح الكلية) بجوار ربها، حيث هناك سعادتها الأبدية.

ولكل من هذه العلوم في نظر اخوان الصفاء الوظيفة التي تؤدّيها لذاتها، ولغيرها من العلوم في آن. فبالكشف عن علم الرياضيات والإحاطة به، تكون النفس قد تهيأت للإقبال والترقي إلى الطبيعيات. وبدون ذلك لا يمكنها الانتقال من رتبة إلى أخرى، ولا تكون مستعدة لتلقي العون من خالقها لتنتقل إلى ما هو أعلى وأرقىٰ.

وهكذا قدَّم اخوان الصفاء رسائلهم لمريديهم، وللباحثين عن الخلاص في تسلسل معيَّن ومنهجية معينة لشتى العلوم والفنون، رأوا أنها تساعد النفس على تحقيق ماهيتها في ترقيها، لتبلغ أقصى غاياتها. وهي العودة إلى النفس الواحدة والكلية بجوار ربها.

جـ ـ موقع الإنسان في هذه الفلسفة:

الإنسان (الجزئي) غاية ومصدر كل فلسفة، العالم الأصغر، وأحد موجودات ما تحت فلك القمر، ذلك الكائن المركب من الروح والجسد (الهيولـي والصورة) روح صادرة عن النفس الكلية، وباقية بعد مفارقتها الجسد، لتعود إلى مبدئها الأول حيث

سعادتها وديمومتها، ولا تدرك تلك الغاية إلا بعد تحررها ومفارقتها الجسد.

والجسد، المركب من أخلاط وطبائع، وعناصر. مبدؤه الهيولي الثانية وإليها مصيره، وكلما استطاعت النفس واجتهدت في التحرر من هذا البدن الذي هو مبعث آفاتها وشهواتها وشقائها، تتقدم نحو السعادة التي تشتاق إليها دوماً، للصعود إلى الفلك ومشاهدة ذلك معاينة، حيث بقاؤها السرمدي، وسعادتها الأبدية في عالم الروح بجانب العقل الفعّال، وإلا فإنها تبقى في عالم الكون والفساد ـ تحت فلك القمر ـ حيث شقاؤها وتعاستها.

ومن أجل بلوغ تلك الغاية، حدّد إخوان الصفاء الطريق لطالبي الحكمة وللباحثين عن الحقيقة ولمريدي الخلاص، طريق العلم والتعلّم ليرتقوا في معارج المعرفة، حيث تصفو النفس وتتهذب الأخلاق، فتتخلص الروح مما قد لحق بها من أدران الجسد نتيجة اتحادها به.

وقد نصّب إخوان الصفاء أنفسهم منقذين ومخلّصين للإنسان من المحنة التي وجد فيها على هذه الأرض، إنهم المخوّلون من الله، عز وجل، دعوة البشر لا تباع الطريق، الذي رسموه لخلاصه، بعد أن اتفقوا (على مذهب واحد، ودين واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً، ألاّ يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد، في جميع أمورهم، وكنفس واحدة، في جميع تدبيرهم فيما يقصدون)[1].

كيف لا! ومن خواص هذه الجماعة أنهم علماء بأمور الديانات، عارفون بأسرار النبوّات، متأدبون بالرياضيات الفلسفية. وحين يلتقي المرء بأحدهم، ويأنس منه رشداً، عليه أن يستبشر بما يَسّره لأنه يكون قد حان (استئناف الكشف والانتباه وانجلاء الغمّة عن العباد) وآن للفرد وللجماعة ان ينتقلوا من مجتمع الشر والفساد إلى مجتمع الخير والسعادة.

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص: ٥٢٣.

وهكذا تأخذ هذه الجماعة على عاتقها، مسؤولية إنقاذ الإنسان والمجتمع، وخلاصهما. فوضعت لذلك منهجاً كفيلاً بنظرها بتحقيق ذلك الغرض. وهو موضوع بحثنا في الفصول القادمة.

د ـ الجانب الاجتماعي للإنسان:

عالج إخوان الصفاء الإنسان من جانبه الفردي، بأبعاده الثلاثة (الجسد والروح والعقل)، وتعاملوا مع كل بعد بما تقتضيه طبيعته وماهيته، وما يناسب الأغراض التي سعوا إليها. وتناولوا الإنسان أيضاً من جانبه الاجتماعي والعمراني. وإن كان لهم في الجانب الأول (الفردي) رؤيتهم الخاصة والمتميزة عن غيرهم من الفلاسفة، فإن رؤيتهم للجانب الأجتماعي للإنسان، لم تتعدّ النظريات التقليدية الشائعة، قديماً وحديثاً، إسلامية وغير إسلامية، والتي تتلخصّ في عجز الإنسان الفرد، عن العيش منفرداً، فكما هو بحاجة إلى غيره لاكتساب العلوم والكشف عنها، فإنه بحاجة ايضاً إلى غيره، لتستقيم له الحياة، ويخلص من محنة الدنيا الفانية.

فهو بحاجة إلى كثير من العلوم والصنائع، والعمر قصير لا يمكّنه من الإحاطة بها جميعاً منفرداً، فلذلك كان التجمع الإنساني والعمران البشري في الحياة الدنيا أمرين ضروريين لبقاء الإنسان واستمراره.

(إنك محتاج إلى غيرك في نجاتك وتخلّصك من هذه الدنيا التي هي عالم الكون والفساد، ومن عذاب جهنم وجوار الشياطين، وجنود إبليس أجمعين، والصعود إلى عالم البقاء، والدوام الذي هو فوق فلك القمر الذي يعيش فيه الإنسان، حياته الأبدية. فينبغي يا أخي ان تتيقّن بأنك لا تقدر أن تنجو وحدك ممّا وقعت فيه، من محنة في هذه الدنيا)[1].

---

(١) الرسائل، جـ١، ص: ٩٦.

هـ ـ ثنائية الإنسان:

الإنسان هو ذلك الكائن المكوّن من جوهرين مختلفين ومتناقضين في الطبيعة والماهية، الجسد والروح، الجسد ذو طبيعة مادية وماهيته الشوق والنزوع إلى أصله الهيولي. والروح ذات طبيعة روحية، وماهيتها الشوق والنزوع إلى أصلها الروحاني (النفس الكليّة)، لتحيا الحياة الأبدية بجوار بارئها، بعد الانفصال عن الجسد.

وإذا كان الجسد الهيولي، من ماهيته إعمار الأرض، والسعي لكسب المعاش، من أجل الحياة، والبقاء في الدنيا الزائلة، فإن ماهية النفس السعي من أجل بلوغ الحياة الأبدية، في الحياة الباقية. وخلاص الإنسان يكمن في معرفة طبيعة خواص هذين الجوهرين (الروح والجسد)، والمصير الذي سيؤول إليه كل منهما، بعد انفصاله عن الآخر. فالمصير الطبيعي للجسد هو العودة إلى أصله الى الهيولي، وإلى عناصره الأربعة (الماء ـ التراب ـ النار ـ الهواء)، تحت فلك القمر، بينما النفس ستعود إلى مصدرها الأول وهو النفس الكلّية، بجوار العقل الفعّال، فوق فلك القمر.

ممّا يترتّب على هذه الثنائية في التكوين ثنائية في الأقوال والأفعال والأخلاق والقُنْية، فقُنْية الروح، هي العلوم والمعارف، وكل ما هو ذو طبيعة روحية، بينما قُنْية الجسد هي (المأكل والمسكن والملبس و...) وكل ما هو ذو طبيعة مادية. وعلى هذا فالأخلاق منها المحمود ومنها المذموم. وكل ما هو محمود يُنسب إلى الروح، وما هو مذموم يُنسب إلى الجسد. والإنسان العاقل هو من يسعى وراء السعادة الأبدية في الحياة الآخرة. ولا يتحقق هذا إلاّ بعودة الروح إلى أصلها ومبدئها عن طريق تحقيق ماهيتها.

نرجو أن نكون بهذا العرض السريع والموجز قد استطعنا أن نكوّن فكرة عن رؤية إخوان الصفاء للإنسان، الذي هو موضوع التربية وغايتها، وعن مبدئه ومصيره وطبيعته وماهيته، ليتسنّى لنا الانتقال إلى المنهجية، أو الطريق التي اختاروها لهذا الكائن، ليقودوه نحو الخلاص الذي افترضوه له.

وهذه الرؤية ليست مبتكرة ولا مستحدثة، إنما كانت تجميعية توليفية، أخذت مما جاء به الأنبياء والمرسلون عن طريق الوحي، وما توصّل إليه العقل الإنساني عن طريق الحكمة والخبرة العملية.

حاول إخوان الصفاء أن يوفقّوا بين المصدرين (العقل والشرع) ووظّفوهما من أجل غاية واحدة هي خلاص الإنسان.

إنها فلسفة توفيقية بين العقل والنقل، بين الحكمة والشريعة، بين ما بلغه العقل وما نزل به الوحي، فقدّم اخوان الصفاء محاولتهم هذه لبني البشر، فنمت وترعرعت في مجتمع وبيئة إسلاميتين، فكانت لتعاليمهم النفحة الإسلامية، ولفلسفتهم خصائص الفلسفة الإسلامية، فكانوا بحق زارعي بذرة الفلسفة في الإسلام وعند المسلمين.

وبالتالي فهي فلسفة مثالية تأملية، فقد نسجوا من المعطيات الفكرية والحياتية السابقة والمعاصرة لهم صورةً في الذهن للإنسان المطلق، الذي هو «المثال» والموجود بالقوة في الذهن، وعملوا على إخراج ما هو موجود بالقوة داخل الذهن، إلى وجود بالفعل خارجه، وحسب تعبيرهم حاولوا أن ينتقلوا بالصورة التي في ذهنهم، أي الإنسان المطلق (المثال)، إلى الهيولي الذي هو خارج الذهن، أي الإنسان الجزئي (الواقع).

من هذه المنطلقات ولأجل تلك الغايات، وضع إخوان الصفاء رسائلهم ونشروا آراءهم وتعاليمهم، فكانت تلك الرسائل بمواضيعها ومنهجيتها، بشكلها ومضمونها، الاداةَ التي اعتمدوها من أجل تحقيق غرضهم الذي سعوا إليه، والذي اعتبروه هم انفسهم عملية إخراج ما هو موجود عندهم بالقوة، إلى وجود بالفعل.

فجاءت فلسفتهم تعليمية تعلميَّة، بمعناها الضيّق، وبمعناها العام تربوية، بأوسع معاني الكلمة، تربية وبناء لطلاب ومريدين، لأجيال وأقوام، ليأمنوا بما آمنوا هم به، ويسعوا إلى ما سعوا هم إليه، باعتباره طريق الخلاص الذي يسعى إليه الباحثون عن الخلاص.

ومهما تضاربت الأقوال في هذه الفلسفة أو التعاليم، وتعددت الآراء حولها، يبقى

إخوان الصفاء تلكم الجماعة التي آمنت بحقائق واعتقدت بمبادىء فسعت إلى نشر تلك الحقائق وتعليمها ونقلها الى الآخرين، فابتكرت لذلك ما يناسبها من منهجية وطرائـق استطاعت أن تحقق بواسطتها ما حققت، سواء على مستوى جمع الأتباع والمريدين والانصار والمؤيدين، أو من حيث طبيعة تلك التعاليم وأثرها الذي استمر يعمل في الأجيال المتعاقبة بعدهم، كتيار فكري (فلسفي) عقلاني، تعايش وترافق مع التيار الموازي له، أي التيار النقلي، فكان لهم أسبقية إدخال عنصر جديد قديم على الفكر الإسلامي، وفاعل في إطار منهجية تقوم على الجدلية أو الديالكتيك.

ولكي تتم تلك الفلسفة وتكتمل لا بد أن نبحث عن جانبها العملي التطبيقي والذي يتمثل بالمذهب التربوي أو بالفلسفة التربوية لتلك الجماعة، أنه موضوع بحثنا في الفصول التالية.

الفصل الثالث: بعض المفاهيم التربوية

ليس بالأمر السهل العثور على ضالتنا في ذلك المحيط الواسع من التراث العربي الإسلامي، من خلال ذلك النهج الفكري الطارىء والداخل على الفكر العربي الإسلامي، ذلك النهج الذي حاول كما ذكرنا مزج الدين بالفلسفة والعلم بتأثير النجوم، والتوفيق بين الحكمة والشريعة، بين العقل والنقل.

علينا أن نتقدم بتؤدة وحذر، مستعينين بضوء ينير لنا السبيل لنتمكن من إدراك غايتنا التي لا تعدو محاولة وتلمّساً لمعالم مذهب تربوي أو فلسفة تربوية تمثّل الجانب الآخر لفكر هذه الجماعة، أي الجانب العملي والتطبيقي المتمم والمكمل لفلسفتهم النظرية.

منذ وُجدت المجتمعات البشرية كانت هذه العملية (التربية) ولا تزال تقوم على عناصر ومقومات مختلفة ويمكن ان نلحظ نوعين من هذه العناصر:

الأول: ثابت لم يتغير ولم يطرا عليه أي تعديل ولا يوجد عليه أي خلاف.
الثاني: متغير ومتحول، لم يكن عليه قط أي إجماع أو إتفاق.

أولاً - عناصر ثابتة ليس عليها خلاف

يمكن أن نُطلق على هذا النوع الجانب الموضوعي للتربية ولعمليتها، إذ أنه مرافق

لكل نظرية تربوية ولكل ممارسة لها، في كل مكان وزمان، ويشتمل على المفاهيم التالية:

أ - العملية التربوية كنشاط مصاحب للإنسان، منذ كان الإنسان.

ب - الفلسفة التربوية، أو الرؤية للإنسان، التي تُدور التربية في فلكها وتمارس من خلالها.

ج - موضوع التربية، وقطبا العملية التربوية (المؤثر والمتأثر).

أ - التربية والعملية التربوية (L'éducation et l'éffet éducative)

موضوع التربية وغرضها الإنسان، وإلا خرجت عن كونها تربية (Educations)، وغدت تطبيعاً أو تدجيناً للحيوان، أو للنبات.

ويُنظر الى هذه العملية على أنها أخطر وأهم ما يمارسه إنسان على إنسان، لما يترتب عليها من نتائج وأبعاد، خاصة عندما تمارس على من هم أكثر الخلق طواعية واستجابة وعجزاً وقصوراً، أي على أطفال الجنس البشري، غاية الوجود وعلة استمرار النوع.

وهذه العملية لا تطال الإنسان في مسيرته الحياتية في الدنيا فحسب، بل تتعدّاها إلى الشق الثاني من حياته، أي حياته الأبدية في الآخرة.

إذن التربية وعمليتها لا تمارسان في فراغ، بل على ذلك الكائن المعقّد، الذي احتارت فيه الأديان المنزلة والفلسفات الموضوعة، وتعدّدت نحوه النظرات واختلفت التفسيرات. والتربية لا تنبع من فراغ، فكما إن الإنسان غايتها وموضوعها، فهو أيضاً مصدرها، أداتها ووسيلتها، إنها من الإنسان وإليه، مما زاد هذه العملية خطورة وتعقيداً، بقدر ما هو موضوعها وأداتها، وما عليه من الإبهام والتعقيد.

وقد تعدّدت الخصائص، التي تتميز بها هذه العملية، ووُصفت بأنها واعية وإرادية، مقصودة وغرضية ومستقبلية، ووصفت بغيرها من الخصائص الكثيرة قديماً وحديثاً. فهي بدون شك واعية متى نسبت إلى ممارسها والمخطط لها، بحكم وضوح

الهدف والغرض منها، وما تستلزمه من إجراءات و... الخ. وبصرف النظر عن الباعث اليها شرعياً دينياً كان، أو فلسفياً (حكمياً)، روحياً أو جسدياً، فهي دائماً صادرة عن كائن واع لأغراضه ومراميه، مدرِك لأعماله وتصرّفاته.

هي أيضاً غرضية، كونها تسعى دوماً إلى هدف وغرض محدّدين مسبقاً، بصرف النظر عن الغرض بعيداً كان أو قريباً، مباشراً أو غير مباشر، آنياً أو مرحلياً، دائماً أو مؤقتاً. وهي بالتالي إرادية ومقصودة، كونها مختارة ومنتقاة، سواء بغاياتها أو بمنهجيتها أو بما تلجأ إليه من طرق وأساليب وأدوات ومعطيات، مستفيدة ومستعينة بكل ما قد يخدم الغرض ويحققه من ناحية، وما يتناسب مع موضوعها وطبيعته من ناحية أخرى.

والتربية هي أيضاً مستقبلية، لأن النظرة لما يجب ان يكون عليه هذا الكائن تشدها دوماً وتتمحور حولها وتنزع إليها كل تربيـة وكل عمـل تـربـوي كفـايـة تسعى لتحقيقها دوماً؛ وإذا تجاوزنا الدافع وراء هذه العملية: فطري أو مكتسب، غريزي أو مُتعلم، نجده لا يهدف إلى حفظ النوع واستمراره فقط، بل للسير به نحو الأفضل، وكما ينبغي ويتوخّـى أن يكون عليه هذا النوع.

وبالرغم من تعدّد التعاريف وتنوّعها لهذه العملية، تبقى جميعها قاصرة عن إيجاد التعريف الجامع المانع الذي يفي بالغرض، ويحقق القبول الشامل والإجمـاع. فهي أعـم وأشمل من أن يحيطها أي تعريف، كما إنها أبعد وأعمق من أن يحيط بها أي أثر. حتى في أحدث تعاريفها هي: (جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في إنسان آخر، وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكوّن لدى الكائن الصغير استعدادات متنوعة، تقابل الغايات التي يُعدّ لها حين يبلـغ طور النضج)[1]. أو بتعاريفها الفلسفية على إنها (إخراج ما هو موجود بالقوة إلى وجود بالفعل)[2].

---

(١) ر. أوبير، المرجع السابق، ص: ٢٧.

(٢) تعاريف معظم الفلاسفة، واخوان الصفاء من بينهم.

في كلا التعريفين نجد الاختلاف والتعارض، كما نجد اختلافاً في تعريف التربية من حيث غرضها، سواء كان هذا الغرض الكشف عن استعدادات لم تكن (Aptitudes) موجودة وإخراجها من القوة إلى الفعل، أو تكوين استعدادات لم تكن موجودة أصلاً.

وهناك الكثير من التعاريف برهنت جيمها على أنها غير قادرة على أن تبلغ درجة كافية من التوثيق والتوليف، أقلها بين بُعدين للإنسان متمّمين ومكمّلين لبعضهما البعض، هما الفطرة والاكتساب، ما الذي هو بالفطرة وما الذي هو مكتسب؟ ويكفي هنا أن نشير فقط إلى النظرة إلى هذين العاملين وما نتج حولهما من اختلاف وتناقض وتفاوت. وبالتالي ما يترتّب عليهما من نتائج وأبعاد، ومن إجراءات وممارسات[١]... الخ.

لكن ما لا جدال فيه، أن وظيفة التربية إلى جانب إيجاد وتكوين ما لم يكن موجوداً، عن طريق التعديل والتطوير، أو التعلم والاكتساب، أيضاً من شأنها أن تكشف وتسمح بالبزوغ لما هو موجود (بالقوة) بالخروج إلى الفعل. فكما إنها تكشف عمّا هو متوارث بالطبع للجنس، فإنها أيضاً تعترف بما هو مستجدّ وطارىء من ظروف ومعطيات على الإنسان. فكما إن لما هو موروث أمر وشأن، كذلك للمعطيات البيئية[٢] ولظروفها الفيزيقية والاجتماعية والحضارية والثقافية، نصيب ودور وأثر في هذا الكائن، والتربية لم تلقها جانباً فإنها تتعامل معها، على أنها تسهم بشكل أو بآخر، بدرجة أو بأخرى في تكوين هذا الكائن وفي مسيرته الإنسانية.

وبكلمة، طالما أن الإنسان، هو مركز إشعاع هذه العملية ومحورها، والإنسان هو

(١) موضوع الوراثة والبيئة، موضوع كان ولا يزال مثار جدل بين المربين. وقد ترتّب عليه مسارين مختلفين، باتجاهين مختلفين في التربية، التربية الطبيعية أو السلبية عند روسو، والتربية السلوكية عند واطسون (Wetson) وبافلوف.

(٢) منذ سقراط حتى يومنا هذا والأنظار مشدودة على تأثير البيئة في تكوين طباع وأخلاق الكائن، وعلاقة كل منهما بالآخر.

ذلك الكائن المؤثّر والمتأثر بمحيطه، والمدعو للتكيف معه، وهو بالتالي المحصلة لمجموعة من المعطيات والعوامل المختلفة والمتعدّدة والمتغيّرة، ويصعب تحديد ما هو سبب منها وما هو نتيجة، لذا ستبقى التربية وعمليتها كتعريف قاصرة وناقصة. ولكنها كمفهوم وممارسة واضحة ومؤكدة. إنها كأي ظاهرة إنسانية نلحظها ونعيشها، ونسلّم بوجودها. وإن لم نستطع حتى الآن تقديم التحليل والتفسير والتعريف الشافي والمقنع للكثير من طبيعتها وأغراضها، وإلى أن نتمكّن من الكشف عن طبيعة هذه الظاهرة وماهيتها، ليتسّنى لنا القبض على زمامها والتحكم بها، كما هو الشأن في بعض الظواهر الأخرى، ستبقى التربية مثار اختلاف وجدال، والمجتمعات البشرية في تخبّط وصراع، والإنسان ومسيرة حياته موضوع أخذ وردّ بين الأديان المنزلة بإلهامها ووحيها، والفلسفات بحكمتها وعقلانيتها. إذ أن كلاً منها يقدم تصوّراً لطبيعة هذا الكائن ولماهيته، يبتعد أو يقترب من الآخر بقدر ما بين الشقّين من تقارب أو تباعد، ولم يستطع حتى الآن أن يلغي أحدهما الآخر.

وهكذا على ضوء هذا التصور، تتمحور مسيرة الإنسان والإنسانية بأكملها، فتتناقلها الإجيال والمجتمعات عبر التربية والمهارسات التربوية. وهذا ما يقودنا للحديث عن العنصر الموضوعي الآخر للتربية ولعمليتها، وهو فلسفتها.

ب - التربية وفلسفتها - المذهب التربوي (La philosophie éducative):

الفلسفة كمفهوم، وان اتفق عليه الجميع، باعتباره الرؤية الكونية للوجود عامة، لعالميْه الأكبر (الكون) والأصغر (الإنسان) والعلاقة بينهما، والفلسفة، هي تلك الرؤية العقلية التي تستطيع الكشف عن هذه العلاقة وتفسيرها، فإن المذهب التربوي هو الذي سيحدّد مسار هذه العلاقة ويوجّهها.

تأخذ فلسفة التربية من الفلسفة العامة، رؤيتها للإنسان، وتصوّرها لهذا الكائن، طبيعة وماهية، مبدأ ومصيراً، وباختصار تأخذ منها ما هو مثال هذا الكائن، وما يجب أن يكون عليه. وبصرف النظر عن هذه الرؤية، دينية كانت واعتقادية موحى

بها، أو عقلية مستنبطة ومكتشفة، فإن هذه الرؤية تمثل دوماً الجانب النظري لكل تربية، والتي لا بدّ منها لكل مذهب تربوي. إنها الحقيقة التي تدّعيها كل فلسفة، وتدّعي أنها قابضة عليها وفي حوزتها. ولكي تخرج هذه الرؤية من التصوّر الى العيان، وتلك الحقيقة من النظر إلى الواقع، وذلك الموجود بالقوة إلى وجود بالفعل، لا بدّ من نشرها وتعميمها والدعوة إليها، وإلاّ بقيت تلك الرؤية، وتلك الحقيقة في نطاق التأمل وفي تصورات الذهن. وبالتالي تبقى ناقصة ومبتورة، ولا تعدو كونها أحاجٍ وألغاز لا تفارق ذهن صاحبها. ونردّد هنا مع القائلين: إن من ضعف الحجى أن تكون يد المرء ملأى بالحقائق، ويمتنع عن فتحها فما أهمية تلك الحكمة التي أحبها الفلاسفة، وما قيمة تلك الحقيقة التي قبضوا عليها! إذ أن حب الحكمة يقتضي الدعوة لمشاركة الآخرين بها، والحقيقة تقتضي الإيضاح عنها والبوح بها، وتقديمها للباحثين عنها.

وهكذا كما أن الفلسفة تقتضي بطبيعتها التعليم والنشر والتعميم، أي تحتاج إلى ما يخرجها من القول إلى الفعل، فإن التربية أيضاً، تحتاج إلى فلسفة تركن إليها، وتستمد منها النور الذي يحدّد منطلقها ومسارها، ويمدّها بالمعطيات التي تستعين بها، وتوضح لها الأغراض التي تسعى إليها. وعلى ضوء تلك الفلسفة ينشأ المذهب التربوي بأبعاده الثلاثة:

١ - المنطلق (Le départ): النظرة للإنسان باعتباره موضوع التربية، وتفسير طبيعته وماهيته.

٢ - الغايات القصوى (Les buts): التي على الإنسان أن يسعى إليها، وهي إن لم تكن سبباً لوجوده، فهي غاية ذلك الوجود.

٣ - السبيل أو الطريق لتلك الغايات (La métodologie): أي المسيرة الحياتية للإنسان، بكل ما قد تلجأ إليه التربية من أدوات ووسائل وأساليب ومعطيات وممارسات. وهو المتضمن لما يُطلق عليه اليوم اسم البيداغوجي، (La pédagogie)، وهو ما لا يمكن أن يكون علماً فقط، أو فناً فقط، أو صناعة فقط، إنما كل هذه مجتمعة.

ونجيز لأنفسنا القول، إن الفلسفة العامة وفلسفة التربية (المذهب التربوي) هما وجهان لعملة واحدة، كل منهما متمّم للآخر. فالفلسفة تحتاج إلى مذهب يخرجها من القول إلى الفعل وإلى الواقع، والتربية تحتاج إلى تصور لذلك الكائن الذي هو موضوعها وغايتها، لتنتقل به مما هو كائن، إلى ما يجب ان يكون، فتعمل به بناء وتكويناً، تنشئة وتعليماً وتوجيهاً، وإن لم تشعر الجلّة العظمى من السابقين واللاحقين بوجود وأهمية هذا المفهوم للتربية ولمذهبها، فلا يعني هذا أنه غير موجود، إذ لا يمكن تصور عملية تربوية تمارس على فرد أو جماعة، على مجتمع أو جيل، بغياب تلك الرؤية المفترضة للإنسان، إنها الحقيقة القائمة عند الأفراد والجماعات، والتي لا بد من إظهارها والتعرف عليها.

وإذا اعتبرنا أن الفلسفة لا تعدو أن تكون تلك الرؤيا المثالية للإنسان، والأنموذج الذي ينبغي أن يكون عليه، فإن التربية بفلسفتها ليست سوى الطريق الذي سيقود إلى ذلك «المثال» ويحقّق ذلك الأنموذج. من هنا جاء القول: «فلسفة بلا تربية ناقصة، وتربية بلا فلسفة عمياء» وما جاء المذهب التربوي إلا ليعبّر عما يراه صاحبه، في المثل الأعلى للإنسان، كما إنه (قد يعبّر عما كان هو، ويغلب أن يعبّر عمّا كان يرجى أن يكون هو، وهو يعبّر حتماً عمّا يرجو أن يكون عليه غيره من الناس)[1].

ومما لا شك فيه أن العمل، كل عمل، تتناسب درجة إتقانه وتحقيقه تناسباً طردياً مع طبيعة موضوعه وأغراضه. أيضاً التربية كلما كان موضوعها (الإنسان) على درجة أكبر من وضوح الرؤية لطبيعته ولماهيته ولأغراضه، كانت إلى الكمال أقرب، ولتحقيق الأغراض أنسب. إذ يسهل عليها عندما يتضح لها المبدأ والمصير، المنطلق والغاية، أن تحسن عملية الانتقاء والاختيار والاصطفاء لما يناسب موضوعها. ويضمن لها بلوغ غاياتها. فانطلاقاً من ذلك المبدأ، فإن التربية تمدّ الإنسان بما يلزم لمسيرته نحو الصيرورة التي اختارتها له الفلسفة.

---

(١) أوبير، المرجع السابق، ص: ١٧.

جـ - التربية وقطباها:

المربي والناشيء، الطفل والراشد، العالم والمتعلم، المعلّم والتلميذ، الشيخ والمريد[1].. وغير ذلك من الألقاب والمصطلحات التي أطلقت ولا تزال تطلق على قطبي العملية التربوية، سيبقى المفهوم واحداً لكليهما على مر العصور، وتبقى التربية ذلك الأثر الذي يتركه طرف معيّن (مؤثر) في طرف آخر (متأثر) مهما اختلفت مراحلها ومواقعها. وقد يكون المؤثر إنسانياً أو غير إنساني (الطبيعة، المناخ، البيئة...) ومهما اختلفت الصور والمسميّات، فسيبقى في العملية التربوية دائماً طرفان: إنسان متأثر وطرف آخر مؤثر.

وحتى لو أخذنا التربية بأضيق معانيها وأبسطها، أو بأوسعها وأشملها، وفي أقدم مفاهيمها أو أحدثها، كالتربية الذاتية، أو التربية المستديمة أو المستمرة، تبقى التربية تلك العملية الجدلية (الديالكتيكية) بين طرف وآخر، بين موضوع ونقيضه، بين ما هو كائن وما يجب ان يكون. وتبقى المحصّلة التربوية هي ذلك الكائن النامي والمتنامي دوماً ليتفاعل ما عندها من استعدادات وإمكانيات وطاقات، مع ما هو بالخارج من عناصر وظروف ومعطيات، من أجل تحقيق ماهيته. وأحدث ما عُرّفت به التربية أنها تعمل على تحقيق ماهية الإنسان.

تحدّثنا فيما سبق عن عناصر موضوعية أو عوامل ثابتة للتربية: **العملية التربوية** كنشاط إنساني وظاهرة إنسانية، **المذهب التربوي** أو الفلسفة التربوية كعنصر حتمي لا بدّ منه لكل تربية، **قطبي العملية التربوية** كطرفين أحدهما مؤثر والآخر متأثر. عندما تحدّثنا عن هذه العناصر أو العوامل كنا نتحدّث بالمطلق، بمعزل عن مقولتي الزمان والمكان، لأننا تناولنا تلك المفاهيم باعتبارها عناصر ثابتة ومطلقة ومرافقة لكل تربية ولكل عملية تربوية في أي مكان وأي زمان.

---

(١) أطلق المربّون العرب المسلمون اصطلاحات عديدة على كل من قطبي العملية التربوية: الصبي، الناشيء، الولد، المريض، المتعلّم، المريد... وعلى المربي: العالم، الفقيه، المعلم، المؤدب، الأب، الروحي، الطبيب... وكثير غيرها من المصطلحات.

وعندما تدخل هذه المفاهيم في دائـرتي المكـان والزمـان، تفقـد هـذه العنـاصر موضوعيتها وحيادها لتصبح متغيّرة ونسبية، لأن الإنسان نفسه هو موضوعها وغرضها، كما إنه مصدرها وأداتها، والإنسـان يخضـع بطبيعتـه لهاتين المقـولتين، ويعملان به عملها.

وفي مجال التربية وعناصرها، فإننا عندما نأخذ مقولتي المكان والزمان بالاعتبار، ونتحدث في إطارهما، ستجدنا نتناول عناصر أو عوامل أو مفاهيم أخرى، وهي ما أطلقنا عليها عناصر أو عوامل أو مفاهيم متغيرة وغير موضوعية، وهو ما سنتناوله على التوالي:

ثانياً - عناصر متغيّرة ليس عليها إجماع (غير محايدة)

هناك عناصر أخرى ملازمة أيضاً لكل تربية ولكل عملية تربوية، لا يمكن عزلها عن مقولتي المكان والزمان، ولا يمكن تناولها إلاّ في إطارهما، لذا كان المفهـوم لهذه العناصر لا يتّصف بالاطلاق ولا بالموضوعية، ولا يمكن أن يكون عليه إجماع، ولا يتصف بالثبات أو الحياد. ومن هذه العناصر:

أولاً: الغايات التربوية.
ثانياً: الفلسفة التربوية، أو المذهب التربوي.
ثالثاً: المنهجية التربوية.

أ - الفلسفة التربوية وغاياتها:

من الواضح أن التربية، وبالتالي فلسفتهـا، متضمّنـة حكماً غـايـاتها القصـوى، باعتبارها كما سبق وذكرنا واعية من ناحية، وغرضية ومستقبلية من ناحية أخرى. إذ أن الأهداف التربوية على مختلف مستوياتها: قريبة أو بعيدة، مباشرة أو غير مباشرة، وعلى مختلف مجالاتها وأبعادها: عقلية، دينية، جسدية... الخ، أهدافها ومراميها مستغرقة في تلك الفلسفة المعتمدة، باعتبارها الإطار العام الذي تدور في فلكه أية

عملية تربوية وأية تربية.

مهما اختلفت الاصطلاحات والألفاظ: أهداف، أغراض، غايات، مرامي، تطلّعات... الخ. ومهما اجتهد البحّاث في التمييز بين لفظ وآخر، حيناً على أساس الدرجة أو النوع، وحيناً آخر على أساس الكم أو الكيف، أو على أساس التدرّج والتسلسل. وإن هذا التمييز والتنويع من الضروري أن يأتي بجانبه الإجرائي ليؤدي غرضاً واحداً سامياً ومستقبلياً، إن لم نقل مثالياً، وتصب جميعها في غرض واحد، هو الغايات القصوى للتربية، وإلاّ خرجت عن أن تكون أهدافاً تربوية، وبالتالي نشاطاً تربوياً، لافتقارها الى التناسق والتجانس من ناحية، وإلى الوعي والمستقبلية من ناحية أخرى، لتأتي جميعها، مهما اختلفت الألفاظ والمصطلحات، مُستَغرقة في إطار فلسفة تربوية محدّدة واضحة المنطلقات والغايات، والمبدأ والمصير لذلك الكائن الذي هو شعاعها ومحورها، موضوعها وغايتها في آن.

وبالرغم من أن حقيقة ذلك الكائن من حيث الطبيعة والماهية، المبدأ والمصير واحدة مهما اختلفت الأمكنة والأزمنة، وهي ثابتة دائماً لا تتغير فإن الرؤى والتصورات لتلك الطبيعة والماهية، لذلك المبدأ والمصير، لتلك الحقيقة الأزلية الواحدة، جاءت مختلفة ومتعدّدة باختلاف المكان والزمان. وهذه الرؤية بالذات، وذلك التصور نفسه، يعني الفلسفة، هو المشكلة الكبرى التي عاشها ويعيشها إنسان كل عصر، وما يترتب عليها من نتائج تتحدّد من خلالها مسيرة حياته بوجه خاص، والمسيرة الإنسانية بأجمعها بوجه عام.

ومنذ القديم كانت التعريفات للتربية - ماهية وغرضاً - مختلفة ومتعددة ومتضاربة، وأحياناً متعارضة. وعلى سبيل المثال وليس الحصر نذكر هنا بعض التعريفات الحديثة للتربية ولأغراضها، التي أخذت تطفو وتشيع منذ بدأ هذا الموضوع (التربية) يأخذ طريقه الى البحث الموضوعي الجاد، نظراً لأهميته وخطورته، وما يترتب عليه من نتائج وأبعادٍ، لنجد مدى التداخل الحاصل بين التربية كنشاط وكظاهرة إنسانية، وبين غاياتها التي لا يمكن أن تستقل وتنفصل عنها،

فهي عند دوركهايم (Durkhiem) : كل ما تحدثه الأجيال الراشدة في الأجيال التي لم تنضج بعد النضوج اللازم للحياة الاجتماعية، وغاياتها وأهدافها تكوين الأفراد تكويناً اجتماعياً.

وهي عند جون ديوي (J. Dewey) مجموعة العمليات التي يستطيع بها مجتمع ما، أو زمرة اجتماعية ما ـ كبيرة كانت أو صغيرة ـ أن تنقل من خلالها سلطاتها وأهدافها المكتسبة بغية تأمين وجودها الخاص ونموّها المستمر.

وهي عند فيخته (Fichté) ليست شيئاً أقل من ان يبلغ الإنسان مصيره، وهدفها عند سبنسر (Herbert Spencer) تكوين الفرد من أجل ذاته، وذلك بأن توقظ فيه ضروب ميوله الكثيرة.

وبكلمة، إن الأهداف التربوية وغاياتها بلغت درجة عالية من الأختلاف والتعدد، بحيث لا يمكن حصرها أو ضبطها، حتى إنها في المكان الواحد والزمن الواحد للمجتمع الواحد اختلفت تلك الأهداف والغايات وتعارضت حتى ضاعت بها الرؤية، وضلّ المسعى وخاب.

وليس هذا على مستوى الفلسفات فحسب، إذ تتجاوزه إلى الأديان المنزلة، حتى إنها في إطار الدين الواحد لا تخلو من اختلاف وتعارض. فهي عند الغزالي غيرها عنه ابن خلدون، وعند الفلاسفة غيرها عند الفقهاء والصوفية[1]. وعند الأكويني وأغسطين غيرها عند رابليه وروسو.

ولنا مثل على ذلك الاختلاف الذي تسرّب إلى العمق وترك أثره في مسيرة الإنسان والإنسانية جمعاء، والذي يتجلّى في الأخلاق ذاتها التي تنظر بعين الاعتبار إلى الجانب التطبيقي والممارس لكل معتقد ولكل تربية، وبالتالي التي تهتم بالسلوك العملي المؤدي الى المثل وإلى الأهداف السامية. فإن ما أثير حول هذا الموضوع ولا

---

(١) أنظر للمؤلف، موسوعة التربية والتعليم الاسلامية، بيروت ـ دار إقرأ.

يزال من اختلاف وتعارض، وهل هو نتيجة للمعتقد ـ حيث المعتقد هو مصدر الأخلاق، وهو الذي يحدّد ما هو خير ومحمود، وما هو شر ومرذول ـ أم إن العكس صحيح، أي أن المعتقدات تأتي عن الأخلاق التي تنتج بدورها عن الطباع، والطباع تتأثر بالظروف البيئية والمناخية في كل مكان وزمان(١).

كم هي شاقة ومضنية تلك المحاولة التي تجرؤ على التصدي لحصر كل ما قيل وما قد يقال عن هذا الكائن، وما نسج حوله من رؤى وتصورات. وكلما تعدّدت هذه الرؤى والتصورات، اختلفت الغايات والمقاصد لهذا الكائن، وذلك لارتباطها بمقولتي المكان والزمان كما سبق وذكرنا. وإذا كانت هاتان المقولتان تتركان دائماً بصاماتها على كل ما هو مرتبط بها، فالأولى أن تبدو بصماتها على هذا الكائن، حيث يؤثران به تأثيراً لا يمكن إنكاره أو تجاهله، حتى انه عند البعض محصّلة لهما معاً.

ومن المشكوك فيه أن يعثر المرء حالياً على فلسفة متكاملة بجانبيها النظري والعملي، إذ أن الفلسفات وعلى الأخص الحديثة منها، تفقد الكثير من بريقها ولمعانها عندما تحاول الانتقال من النظر الى التطبيق ومن الفكر إلى الواقع. وهكذا إمّا ان نجد فلسفات تفتقر الى مذهب تطبيقي عملي، أو نجد مذاهب تطبيق وعمل لا تملك جذوراً فكرية (تصوراً) تامة وكاملة تمدها بالأغراض والمنهجية المناسبة. وبكلمة فإننا إما أن نجد فلسفات بدون أهداف أو أهدافاً بدون فلسفات، فلا يكتب لها البقاء ولا الدوام، مما أدى إلى التخبّط والضياع الذي عاشه الإنسان ولا يزال يعيشه.

ولعل التخبط الذي عاشته البشرية ولا تزال في مسيرتها الإنسانية، والذي بلغ ذروته في عصرنا هذا، راجع إلى ذلك الاختلاف في النظرة لهذا الكائن، وبالتالي إلى عدم الوضوح في الأهداف والغايات القصوى لهذا الكائن، وبكلمة إلى افتقار البشرية إلى رؤية تامة وكاملة (نظرية وعملية) للإنسان، توضع على ضوئها الغايات

---

(١) نذكّر بما توصل إليه العلماء والباحثون من أثر البيئة المناخية والفيزيقية على الطباع وعلى سلوك الإنسان، والذي عالجها ابن خلدون بإسهاب، ومن قبله إخوان الصفا، ومن بعدهم علماء البيئة والوراثة والسلالات.

والمقاصد [1]، مما حدا بالمؤرخ الإنكليزي المعاصر «توينبي» إلى القول بأن الإنسانية لو أتيح لها العودة الى ما قبل العصر الحجري ، لكان هذا أيسر لها وأقل إيلاماً (وإنه من الأيسر والأقل إيلاماً لأجدادنا من أهل العصر الحجري الحديث أن يظللوا على مستوى قبل المعدن، وما هو بالنسبة لأحفادنا في أن يعودوا الى ذلك المستوى، فيما إذا بدا لهم أن هذا البديل الوحيد لفنائهم) [2].

والخلاصة، إن تعدد الرؤى والتفسيرات لهذا الكائن من ناحية، وبالتالي قصور هذه التفسيرات، وعدم تمامها وكمالها من جهة، وعدم الإجماع عليها من جهة أخرى، مما ترتب عليه تعدد واختلاف في الغايات القصوى، كان وسيكون السبب في التناحر والتصادم والتعارض بين أبناء الجنس الواحد وذوي الأصل الواحد والمصير الواحد والطبيعة الواحدة.

ولما كانت التربية هي الأداة لما سيكون عليه الإنسان، والكفيلة ببلوغه غاياته القصوى، ستبقى البشرية تعاني إلى أن يتاح لها بلوغ الرؤية الواحدة والواضحة للإنسان، وبالتالي يحصل الاتفاق على غاياته القصوى وعلى الطريق المؤدّية لتلك الغايات.

ب - المنهجية التربوية:

المنهجية التربوية بأبسط معانيها هي المسار (الطريق) الذي وقع عليه الاختيار لبلوغ الغايات الموضوعية. وهي تقع في موقع متوسط بين الفلسفة والغايات، بين المبدأ والمصير. ومن الطبيعي أن يقع الاختيار على الطريق الأقصر والأسهل والمستطاع للانتقال مما هو كائن إلى ما يجب ان يكون.

وإذا كانت الغايات التربوية متضمّنة حكماً في فلسفتها، فإن المنهجية التربوية

---

(١) نقصد هنا الفلسفات وليس الأديان السماوية المنزلة.

(٢) أ. توينبي، المرجع السابق، جـ ١.

متضمّنة أيضاً في غاياتها، لأن الفكر بعد أن تنكشف له الرؤية عن غاياته، ينبري جاداً للكشف عن أفضل الوسائل وأقصر الطرق وأجداها، وعن كل ما قد يخدم تلك الأغراض ويكفل بلوغها. إذ يلجأ إلى جميع المعطيات المتاحة في المكان والزمان، ويتعامل معها بطريقة أو بأخرى، بشكل أو بآخر، بدرجة أو بأخرى، في مرحلة أو في أخرى، من أجل الوصول الى ذلك الغرض [١].

وكما يفترض في المنهجية التربوية، التناسق والمواءمة فيما بين عناصرها وأجزائها من أجل خدمة الغرض الواحد، الذي يتلخص في كيفية الانتقال مما هو كائن إلى ما يجب ان يكون، والطريقة الفضلى لأخراج ما هو موجود بالقوة إلى موجود بالفعل، من هنا فإننا نجد من خلال التاريخ ان المربّين الذين كانوا أصحاب فلسفات متشابهة ومتقاربة، سواء المثالية منها أو المادية أو البرغماتية، نجد أنه من الطبيعي أن تتشابه عندهم النظرة الى الغايات القصوى للإنسان، وبالتالي فإنهم يلجأون عادة إلى منهجية متقاربة ومتشابهة الى حدّ ما، إلاّ ما تقدمه مقولتا المكان والزمان من معطيات متغيّرة ومتطورة ومستجدة بتغيرها [٢].

ولسنا بحاجة هنا للتذكير بأن العملية التربوية تبلغ ذروة نجاحها، وتكون أقرب الى تحقيق غاياتها عندما تكون منهجيتها (أدوات وطرق وأساليب ومناهج....) هي ذاتها الغايات والمقاصد، بمعنى أنه من أجل تربية العقل أو الحواس، نلجأ إلى التعامل مع العقل ذاته أو مع الحواس ذاتها، بصرف النظر عن كونها غايات بذاتها أو أدوات لغايات أخرى، أي عندما تكون الوسيلة هي الغرض تكون التربية قادرة على تحقيق غاياتها.

وهكذا نكون بعرضنا السابق لهذه المفاهيم للتربية وعناصرها، قد وضعنا خارطة

---

(١) عن المنهجية التربوية أنظر: د. ن. الدمرداش ـ عبد المجيد سرحان، المناهج المعاصرة، الكويت، مكتبة الفلاح، ط ٢، ١٩٧٩.

(٢) هذا التشابه نلحظه عند المربّين المسلمين من الفقهاء أو الفلاسفة. وهذا ما يقابله عند المربّين في الغرب: المتديّنين وغير المتديّنين.

لتحركنا في بحثنا في المذهب التربوي لإخوان الصفاء. إذ أن هذه العناصر مجتمعة، بنوعيها الثابت والمتغير، المحايد وغير المحايد، هي المعنيّة بالبحث في كل مذهب تربوي، حيث يتكون منها بواسطة التنسيق والمواءمة فيما بين عناصرها ما نطلق عليه اسم «الفلسفة التربوية» أو «المذهب التربوي». حيث نبدأ بنظرة أو تصور شمـولي للإنسـان، وينتهي بوضع الغايات القصوى له، مروراً بالمنهجية أو الطريق المؤدية لتلك الغايات.

تلك كانت العناصر الأساسية لكل تربية، والمخطّط الذي يتحرك بداخله كل باحث في الفلسفة التربوية أو المذهب التربوي لفردٍ أو لجماعة، لعصر أو لمجتمع.

الفصل الرابع ❁ مذهب إخوان الصفاء التربوي

إذا كان المذهب التربوي هو مجموعة العناصر التي ذكرنا: الرؤية للإنسان، والغايات القصوى التي يسعى إليها، والمنهجية التي يتبعها لبلوغ تلك الغايات، فقد آن الأوان لنعالج على ضوء تلك العناصر والمفاهيم مذهب إخوان الصفاء التربوي.

سبق وأفردنا فصلاً خاصاً عن الجانب المتضمّن رؤية إخوان الصفاء للإنسان في إطار فلسفتهم العامة، ولعلّ من المفيد أن نعود لنرسم بعض الخطوط العريضة لتلك الرؤية:

أ ـ أصل الإنسان ومبدؤه: الله عز وجل هو موجد الكون بأسره على ترتيب وتنظيم معيّنين. عنه صدر العقل الفعّال أولاً، وعن العقل الفعّال فاضت النفس الكلّية المنبثّة في هذا الكون بأسره، وعن حركة النفس صدرت الهيولي الأولى ـ الهيولي الأولى كائن روحاني أيضاً ـ وهذه جميعها تشكّل عالم ما فوق فلك القمر. أما عالم ما تحت فلك القمر فهو كلّ الموجودات التي تتحد بها الروح مع الهيولي الثانية (المادة).

ب ـ طبيعة الإنسان وماهيته: الإنسان ذو طبيعة مثنوية: الروح والجسد، وهو مركّب من جوهرين مختلفين متناقضين: الروح ذات الطبيعة الروحية، وماهيتها الشوق والنزوع دوماً للعودة الى أصلها ومبدئها النفس الكليّة في عالم الأرواح (ما فوق فلك القمر) لتعيش حياتها الأزلية مع الملائكة والصدّيقين بجوار بارئها. والجسد ذو الطبيعة والجوهر المادي، وماهيته الشوق والنزوع إلى مبدئه وأصله الهيولي (الميـولة

الثانية) وهو يفسد ويتحلل إلى عناصره الأربعة (الماء والنار والهواء والتراب) بعد مفارقته النفس.

يترتّب على هذه الثنائية في التركيب ثنائية في الأفعال والأقوال والأخلاق، كالموت والحياة، الخير والشر، الصواب والخطأ... الخ. وإن ما يصدر عن هذا الكائن المركّب لا يُنسب عادة الى أحدهما، بل ينسب الى الإنسان كوحدة. ولكن تبقى الروح هي مصدر كل خير والجسد مصدر كل شر. وعندما تفارق الروح الجسد فإنها تعود الى مبدئها الذي صدرت عنه، فإما أن تعيش السعادة الأبدية مغتبطة بما أقدمت عليه، من خير وحسن تصرف عندما كانت متّحدة بالجسد، وإما، على العكس من ذلك تعيش تلك الأبدية في الشقاء والندم والخسران لطواعيتها للجسد دون أن تلتفت الى طبيعتها.

جـ - غايات الإنسان القصوى: لما كانت ماهية النفس طلب السعادة الأبدية في الحياة الباقية، ولا يتسنّى لها ذلك إلاّ إذا عاشت حياتها في الدنيا حسبما تقتضيه طبيعتها وجوهرها، أي بالصفاء والنقاء الروحانيين، وإن اتحادها بالجسد قد يحرمها من ذلك أثناء وجودها في الحياة الدنيا - التي اعتبرها الإخوان محنة للإنسان - كان عليها ان تسعى دوماً للمحافظة على هذا الصفاء والنقاء لتعود الى بارئها عندما تأتي ساعة الفراق للجسد وللدنيا وهي خالية من الأدران والشوائب التي لحقت بها نتيجة لذلك الاتحاد. وهو ما سيكون سبباً في تنغيص حياتها الأبدية عليها، وفقدانها للسعادة التي تنشدها.

د - دور التربية والتعليم: يرى إخوان الصفاء أن (أنفس المتعلّمين علاّمة بالقوة، وأنفس العلماء علاّمة بالفعل) وأن العلوم هي تلك الصور التي يتم إخراجها من القوة إلى الفعل، فإن تلك العملية - الإخراج من القوة الى الفعل - لا بد أن يتعاون بها الطرفان (العالم والمتعلم) ليصبح المتعلم عالماً، ويعيش مع الصدّيقين والأولياء في عالم الروح. وعملية التعلّم والتعليم هي الكفيلة بتحقيق ذلك. ومتى نُسبت هذه العملية الى المتعلّم سُمّيت تعلّماً، وإذا نُسبت الى العالم سُمّيت تعليماً. ومن الطبيعي أن

تكون هذه العملية من الصناعات العلمية الروحية، لأنها تتعامل مع النفوس وليس مع الأجساد. ويكون تأثيرها في النفوس، لأن أنفس المتعلمين والمريدين هي موضوعها وغرضها في آن.

نجد هذه العملية عند إخوان الصفاء أشبه ما تكون بعملية إخراج وتوليد [1] لتلك الصور الموجودة بالقوة في أنفس المتعلمين. ولا يتسنى لها الخروج إلى الفعل إلا إذا أتيح لها من يخرجها بما يبذله طرفا العملية (العالم والمتعلم) من جهد ومشقّة من أجل الغرض الواحد. إنها أشبه ما تكون بجدل (ديالكتيك) صاعد بين العالم والمتعلم، ولنقل صراع بين العلم والجهل، بين الحياة والموت، بين السعادة والشقاء...

هـ - قطبا العملية التربوية: إذا كان المتعلم هو كل مريد وباحث عن الخلاص من تلك المحنة - الدنيا - التي وُجد فيها نتيجة خطيئة أبينا آدم، فمن يكون إذن المعلم؟ سؤال يعود ليطرح نفسه دائماً كلما جرى الحديث عن إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء. من هم أصحاب تلك التعاليم أي العلماء بالفعل، الذين أرادوا لجميع بني البشر أن يكونوا هم، أي أن يصبحوا علماء بالفعل، ليبلغوا السعادة الأبدية التي يعيشونها، ويدركوا الخلاص الذي أدركوه؟ وما هو الطريق الذي وضعوه لهم ورسموه هم أنفسهم للآخرين، واعتبروه هو طريق الإنقاذ والخلاص؟

بصرف النظر عن هذا التراث، سواء كان نتيجة عمل فرد أو جماعة، فإن صاحب هذا الإنتاج يُدرج في خانة العظماء في تاريخ البشرية الذين أرادوا لتعاليمهم الاستمرار والانتشار، ولمنهجيتهم النجاح والتحقق، إذ استطاعوا ان يجعلوا أثرهم هذا يمتدّ ويستمر في أكثر من جيل، ولتعاليمهم ان تبقى وتنتشر لتستقطب الطلاّب والمريدين على مرّ العصور.

وإن كان يصعب على فرد بمفرده أن يقوم بهذا الدور مهما بلغ من المقدرة والنبوغ، إذ أن تاريخ البشرية ينبىء بأن العظماء في التاريخ ممن كتب لتعاليمهم البقاء

---

(١) نذكّر هنا بنظرية المعرفة عند سقراط.

والاستمرار طوال أجيال عديدة بعدهم، كان عليهم أن يلجأوا الى جمعيات أو مؤسسات تتبنّى تعاليمهم، أو يقيموا هم أنفسهم أكاديميات يستقطبون إليها الطلاّب والمريدين، أو يلجـأوا الى السلطات لتتبنّى مذاهبهم وتؤيد تعاليمهم وتعمل على نشرها [1] (بوذا، كونفوشيوس، زارادشت، إفلاطون...) وبدون هذا لا يكتب لنظرياتهم ومعتقداتهم الاستمرار والدوام. إذا ان تلاميذهم هم الذين سيقومون بهذا الدور من بعدهم كناشرين ومدافعين عنها.

من المعلوم أن تعاليم إخوان الصفاء كانت مناهضة للسلطة القائمة آنذاك (الدولة العباسية)، وكانت تدعو القوم للعودة الى طريق الصواب، بعد أن أخذ القوم ينحرفون عن الدين باتباعهم السلطة التي هي سبب هذا الانحراف بإقدامها على إبدال الدين والأخلاق. لقد دقّ إخوان الصفاء ناقوس الخطر للأمّة داعينها لليقظة والبحث عن المنقذ وترقّبه، (إنه قد تناهت دولة أهل الشر وظهرت قوتهم وكثرت أفعالهم في العالم في هذا الزمان، وليس بعد الزيادة إلا الانحطاط والنقصان، ولا بد من كائن قريب وحادث عجيب فيه صلاح الدين والدنيا) [2].

ونتيجة لهذا الموقف، ما كان عليهم لحفظ بقائهم واستمرار دعوتهم إلاّ أن يلجأوا الى نوع من التنظيم الذاتي والداخلي المحكم من ناحية، وإلى منهجية وأسلوب في العمل يحقق لهم ذلك الغرض من ناحية أخرى. وهكذا اجتهد إخوان الصفاء للعمل في اتجاهين متوازيين:

الأول: في مجال التنظيم الذاتي.

الثاني: في مجال الأسلوب والمنهجية.

---

(١) أنظر، تونبي، المرجع السابق، جـ١، ص: ١٨٢، عن الطريق التي سلكها العباقرة العظام في التاريخ من أجل نشر تعاليمهم واستمرارها بعدهم.

(٢) الرسائل، جـ١، ص: ١٣١.

سرّيه العمل وكتمان الأسماء والتنظيم الهرمي للأتباع والمريدين، لتكـون قاعدة هذا الهرم من كل المريدين للخلاص، والساعين إليه والباحثين عنه، وكل راغب في الخروج من المحنة التي هو فيها. ويقوم أفراد هذا الهرم بالترقي في العلوم والمعـارف ليبلغوا القمة التي يتربّع علها العقل الذي ارتضوه حكماً ورئيساً لهم. (ما من جماعة تجتمع على أمر من أمور الدين والدنيا، وتريد أن يجري أمرها على السواء، وتكون سيرتها على الرشاد، إلاّ وتحتاج إلى رئيس يرأسها، ليجمع شملها، ويحفظ نظام أمرها، ويراعي أحوالها، ويروم على الانتشار لجماعتها، ويمنع من الفساد صلاّحها؛ وذلك أن الرئيس أيضاً لا بدّ له من أصل يبني عليه أمره به بينهم، وعلى ذلك الأمر يحفظ نظامهم. ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعتنا وإخواننا، والحكَم بيننا العقل الذي جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الأمر والنهي)[1]، وهكذا يكون العقل الذي هو قمّة الهرم بالنسبة للمخلوقات (أول الخلق) هو نفسه القائم بالرئاسة والحكم بين جماعة الإخوان.

ويتدرّج المريدون من القاعدة الى القمّة حسب أرقام وأعداد ينبغي ان لا تزيد ولا تنقص. وفي كل مرتبة من مراتب الترقّي يقع الخيار على الأفضل والأصلح والأعلم ممن هم في المرتبة السابقة، ليلتحقوا بالمرتبة التي تليها. ويتم هذا لسببين:

الأول: للحفاظ على العدد كلمّا نقص بوفاة أحدهم.

الثاني: مكافأة للنفس على اجتهادها بقدر ما حقّقت من صفاء وصلاح وحفاظ على جوهرها. (لا يزال في هذه الأمة أربعون رجلاً من الصالحين على ملّة ابراهيم الخليل عليه السلام). وهؤلاء الأربعون مصطفون ومنتقون من جملة أربعمائة، وهم الذين يؤلفون المرتبة السابقة عليها من الزاهدين العارفين. وهؤلاء الأربعمائة منتقـون من أربعة آلاف من المؤمنين الثابتين المخلصين. وهكذا تترقّى بعض النفوس في المراقي

(١) الرسائل، جـ ٤، ص: ١٨١.

والمراتب. ولا يبلغ المرتبة العليا للهرم سوى أربعة فقط، وهؤلاء الأربعة يصفّون تصفية بعد تصفية، ويبدّلون خلقاً بعد خلق، وهم الأئمة المستورون (إنهم أولئك الأقلّون عدداً والأعظمون عند الله قدراً). وكلما نقص من هؤلاء الأربعة واحد، قام في رتبته فرد من الأربعين، وكلما نقص فرد من الأربعين، قام فرد من الأربعمائة ليحل محلّه. وهكذا يبقى العدد ثابت عن طريق الاختيار والانتقاء للأفضل. وتحفظ الجماعة نفسها عن طريق التستّر والكتمان [١].

ويستشهد إخوان الصفاء على هذا التنظيم وذلك الأسلوب بالكثير من الحكم والآيات والأحاديث.

وحتى يبلغ المريد المراقي العليا في الهرم، فإن إخوان الصفاء لا يقفون منه موقف الواعظ المرشد الملقّن، أو موقف المعلم الذي ليس عليه سوى أن ينقل ما عنده من علوم وحقائق ومعارف إلى المتعلم وحسب، بل أرادوه ان يصير أحدهم، ويبلغوا به مرتبتهم. إنهم أرادوا نقله فعلاً من عالم بالقوة (أنفس المتعلمين علاّمة بالقوة) إلى عالم بالفعل، لأن (أنفس العلماء علاّمة بالفعل). وبكلمة أرادوا للمتعلم بعد أن أفسحوا له المجال وأعطوا له الفرصة لأن يكون أحد الأربعة المصطفين. أرادوا له ان يبلغ نفس الصيرورة التي بلغوها هم أنفسهم، حيث يعيشون السعادة الأبدية كنفوس مجرّدة بجوار بارئها مع العقل الفعّال، ليكونوا العلماء بأمور الديانات، العارفين بأسرار النبوآت، المتأدبين بالرياضيات الفلسفية، ويغدوا مستودعاً للعلوم بأنواعها ومراتبها، لا يحتاجون فيها الى سواهم، ولا يطلع الناس على أسرارهم، وينفصلون عن العالم بمعرفتها. إنها الغاية القصوى للتربية وعمل كل مربّ، نقل الآخرين الى ما هو عليه، أو إلى ما يريده هو لهم، وهذا ما أشرنا إليه في الفصل السابق عند حديثنا عن بعض المفاهيم في التربية، كما إننا ألمحنا إلى خطورة هذه العملية، والمدى الذي قد تبلغه في أثرها وأبعادها [٢].

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص:٢٩٨.

(٢) راجع الفصل الثالث.

وكأن هذا الأثر وخطورته وأبعاده قد أدركه إخوان الصفاء، مما يدل على أنهم كانوا صادقين مع أنفسهم من ناحية، ومع الآخرين من ناحية أخرى. إذ نجدهم وإن كانوا غير متردّدين في نشر تعاليمهم وفي نقل ما وصلوا إليه من حقائق إلى الآخرين، فإنهم كانوا حذرين ومتيّقظين مّما قد تتركه تلك الرسائل بتعاليمها في بعض النفوس التي لم تستعدّ أو لم تتهيّأ لقبولها. (وهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسائل، ان لا يضيّعها بوضعها في غير أهلها، وبذلها لمن لا يرغب فيها، ولا يمنعها عن مستحقّها، وليحترز في حفظها وإسرارها وإعلانها وإظهارها كل التحرّز... فإنها شفاء ونور وضياء، بل كالداء إن لم تكن دواء، وكالفساد إن لم تكن صلاحاً، وكالهلاك إن لم تكن نجاة)(١).

وهكذا يكون إخوان الصفاء قد أدركوا ماهية العملية التربوية والتعليمية وطبيعتها من ناحية، كما أدركوا أبعادها وأثرها من ناحية أخرى، في الوقت الذي ما زلنا حتى اليوم حيارى في تلك العملية، ومتخبّطين في تحديد ماهيتها، ومختلفين في فهم طبيعتها. ولنا عودة الى هذا في موضع آخر.

إنه المسار الأول الذي اتبعه إخوان الصفاء من أجل تحقيق أغراضهم، أي محاولة البلوغ بالمتعلم إلى ما أرادوه هم له كفايات قصوى، وجمعوا له كل ما توفر عندهم من معطيّات للحثّ والترغيب، ولإيجاد الحافز والدافع للمتعلم للإقبال على تعاليمهم، وسلوك مسالكهم، وانتهاج طريقهم، ليغدو المتعلم واحداً منهم او أحدهم.

الاتجاه الثاني: المنهجية التربوية والتعليمية

(La méthodologie éducative)

قبل أن نتناول بالبحث منهجية إخوان الصفاء التربوية، لا بدّ لنا من وقفة سريعة على نظرية المعرفة عندهم (Esthémologie) وكيفية تعاملهم مع هذه المعضلة الفلسفية.

(١) فهرست الرسائل، جـ ١، ص: ٤٤ - ٤٥.

باعتبارها المنفذ إلى عقول المتعلّمين من ناحية، والقناة التي تمدّ عقولهم بالغذاء الذي سيساعد على الصيرورة التي أرادوها لهم من ناحية أخرى.

وإخوان الصفا كغيرهم من أصحاب الفلسفات الذين كانت المعرفة الإنسانية بالنسبة لهم (درجاتها وأنواعها وأدواتها) على رأس مواضيعهم الفلسفية، إن لم نقل محور الفلسفات قديماً وحديثاً. من الطبيعي إذن أن تكون المعرفة الإنسانية والحلول التي اعتمدوها لهذه المعضلة تشكّل ركناً هاماً في فلسفتهم التربوية.

وقد يتراءى للبعض أن تناول هذا الموضوع عند إخوان الصفاء في مجال البحث التربوي فيه شيء من الغرابة، ويُدرج تحت عنوان لزوم ما لا يلزم. فلهؤلاء نقول: كانت المعرفة ونظريتها هي إحدى المقاييس التي يتم بموجبها تصنيف الفلسفات: عقلية، مثالية، تجريبية، حسيّة، روحية أو صوفية... الخ. وإلى ادواتها سيلجأ المربّون لنقل ما عندهم من حقائق ومعتقدات إلى المتعلمين. كما إنها الطريق الذي سيسلكه المربّون إلى نفوس وعقول المتعلمين ليصيروا كما يريدون لهم.

ولما كنا في مجال البحث عن المنهج الذي اعتمده إخوان الصفاء للوصول بالمريد (المتعلم) إلى الغايات التي وضعوها له، فإن المعرفة والنظرية التي اعتمدوها لها، من الطبيعي ان تشكل إحدى المعطيات المتاحة التي لجأوا إليها للانتقال بالمتعلم إلى ما أرادوه له، وبانتقال العلوم من الوجود بالذهن إلى العيان، ومن القوة إلى الفعل، ومن النظر والتصور إلى التطبيق والعمل. وبكلمة، إنها الأداة للانتقال بالمرء مما هو كائن إلى ما يجب ان يكون، أو إلى ما يريدونه له أن يكون.

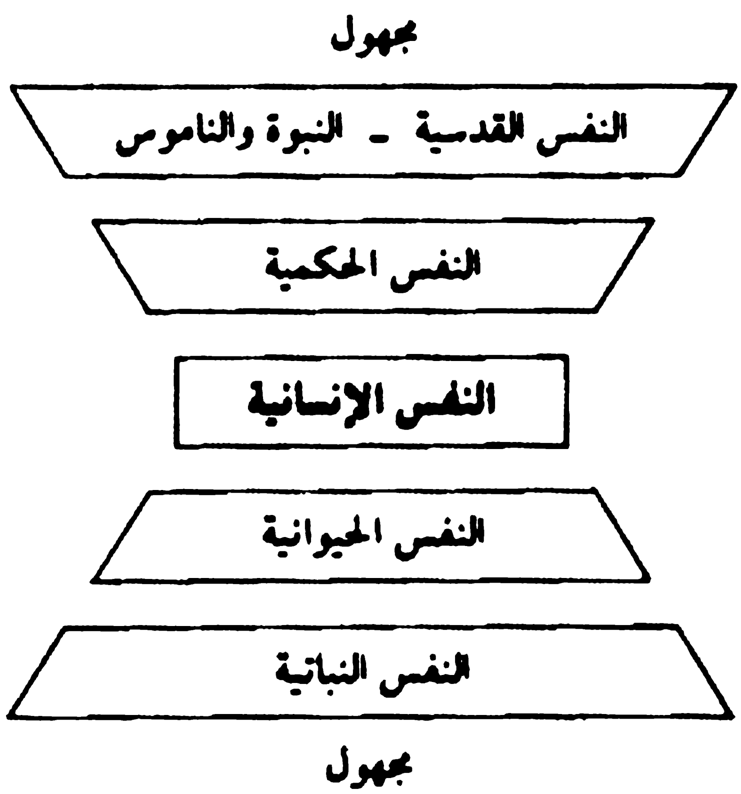
هناك معطيات ووقائع تعامل معها إخوان الصفاء كأدوات ووسائل لتلك المنهجية: النفس الإنسانية، الجسد، العقل، العلم والتعلّم والتعليم. وسواء كانت هذه المعطيات أدوات ووسائل لغايات أخرى، أو غايات بحدّ ذاتها، فإن إخوان الصفاء كمربّين، أدركوا طبيعة العملية التربوية وماهيتها كما سبق وذكرنا. فجاءت هذه المعطيات غرضاً ووسيلة في آن واحد.

كيف تصور إخوان الصفا هذه المعطيات والحقائق؟. وكيف تعاملوا معها؟.

بمعنى آخر، كيف رتّب إخوان الصفا هذه المعطيات ووظّفوها من أجل غاياتهم القصوى؟.

أولاً - النفس الإنسانية:

تقع النفس الإنسانية في مرتبة متوسطة بين النفوس السبعة[1]، علماً أن الحكماء والفلاسفة لم يستطيعوا إدراك سوى خمس منها، إثنتان فوق النفس الإنسانية، واثنتان تحتها، وما عدا ذلك ما زال مجهولاً (ما هو دون النباتية وفوق القدسية بعيدة معرفتها عند المرتاضين بالعلوم الإلٰهية، فكيف على غيرهم؟!).



ومن لطف الخالق على خلقه انه أنعم على كل نفس من هذه النفوس بنوع من المعرفة والتأييد، كما إنه بكرمه وحكمته يثيب كل نوع منها، بأن يعينها على الترقي في المراتب الأعلى كلما بلغت رتبة وازدادت شوقاً إلى الأعلى حتى تبلغ أقصى غاياتها،

---

(١) مجموع النفوس عند إخوان الصفا خمس عشرة، سبع فوق النفس الإنسانية وسبع تحتها.

(أيدها الله وأعانها بضروب من المعاونة وفنون من التأييد ليبلغها أقصى غاياتها وتمام نهايتها)[1] وأما عقوبتها فتكون بالحرمان من هذا العون والتأييد، لتبقى في المرتبة الدنيا مع الهيولى التي ارتضتها لها مقراً وبالجسد مقاماً. وذلك استناداً إلى الكلام المنزل: ﴿يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات﴾[2].

وكما إن لكلّ نوع من هذه النفوس طبيعته وماهيته الخاصة، كذلك لكل مرتبة من المراتب التي تبلغها كل نفس صفات وخصال وقوى وأخلاق تختص وتتميّز بها عن المرتبة السابقة أو اللاحقة؛ فالامتصاص للنفس النباتية، والغضبية للنفس الحيوانية، والنطق للنفس الإنسانية، والحكمة للعاقلة، والملكية للناموس. (كل هذه الخصال من الجبلة من غير فكر ولا رويّة، وكل ذلك معاونة من الطبيعة لنفوسها وتأييد لها بإذن باريها)[3].

وترقي النفس من مرتبة إلى أخرى يكون عن طريق تحصيل العلوم والمعارف التي هي غذاء للنفس كما ان الماء والطعام هما غذاء للجسد. وكلما ارتقت النفس من رتبة إلى أخرى، «إرتكزت» في جبلّتها خصال وأخلاق تناسب الرتبة التي ارتقت إليها، ويكون ذلك إما بحكم طبيعة النفس التي ارتقت إليها، أو بالإكتساب نتيجة العادة والتطبّع. وكل ذلك من أجل مساعدة النفس وإعانتها (على إظهار أفعالها وعلومها وصنائعها وسياستها وتدبيرها بلا فكر ولا رويّة).

ومن النفوس ما هو مطبوع على المحمود من الأخلاق والخصال، كالشجاعة والسخاء والاعتدال، ومنها ما هو مطبوع على المذموم منها. والنوع الأول من النفوس هو المحتاج الى التنقية والتصفية مما قد لحق بها، نتيجة اتحادها مع البدن، من شوائب وأدران وخصال ليست من طبعها بالأصل. فهي محتاجة الى الأمر والنهي، إلى الثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والمدح والذم، والترغيب والترهيب، أي إلى ما يجعلها

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص:٣١٢.
(٢) القرآن: سورة المجادلة، آية ١١.
(٣) الرسائل، جـ ١، ص:٣١٣.

لتحتفظ بنقائها وصفائها من ناحية، ولتستحق العون الذي يلزمها للترقّي من ناحية أخرى. وبكلمة هي بحاجة الى تربية كي تعود إلى طبيعتها وتحقق ماهيتها.

ويرى إخوان الصفاء أن تلك التربية للنفس ينبغي ان تتجه في اتجاهين:

الاتجاه الأول: نحو العلم والتعلّم.

الاتجاه الثاني: نحو تهذيب الأخلاق.

ثانياً - العقل:

كيف يعمل العقل كأداة صالحة ومشتركة بين الجميع على تحصيل العلوم والمعارف والترقّي بها؟

يرى إخوان الصفاء «أن النفس علاّمة بالقوة»، وأن هذه العلوم الموجودة في النفس بالقوة يتم خروجها الى الفعل بفضل ما وفّر لها خالقها من أدوات وطباع. إذ ان الله لما خلق آدم، أبا البشر عليه السلام، فضّله على كثير من خلقه، ومن هذا التفضيل تحصيل مختلف العلوم وغرائب المعارف، وأمدّه بالعون والمساعدة بأن جعل له عدّة طرق لتحصيلها:

أ - الحواس الخمس: التي يدرك بها الأمور الحاضرة في المكان والزمان.

ب - إستماع الأخبار (النطق): ويتفرّد بها الإنسان دون سائر الحيوان، ويدرك عن طريقها الأمور الغائبة عنه في المكان والزمان.

جـ - القراءة والكتابة (اللغة): يفهم الإنسان بواسطتها معاني الكلام واللغات والأحداث والأقاويل.

ويفترض إخوان الصفاء تسلسلاً وتدرّجاً منطقيين في هذه الأدوات والوسائل، سواء لجهة قيمة تلك الأدوات وقيمة العلوم التي تحصّلها، أو لجهة نموّها وتطوّرها الطبيعي مع تطور الكائن البشري ونموّه. فلكل مرحلة من مراحل النمو البشري أدواته ووسائله وعلومه، كما إن لكل علم قيمته وأهميته بالنسبة لذاته أو لغيره من العلوم.

رأى إخوان الصفا أن الطفل متى خرج من الرحم، فإن حواسه تدرك محسوساتها مباشرة، وذلك عن طريق قوة الحواس، ويكون تدرّجه بها وترقّيه بما يتناسب مع نموه من ناحية، واتساع محيطه الخارجي من ناحية أخرى (ثم يميّز على مرّ الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والإخوة والأخوات والأقرباء وغيرهم. على هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواس ومحسوساتها، إلى ان تتمّ سن التربية، ويُغلق باب الرضاع، ويفتح الكلام والنطق. ثم بعد ذلك تجيء أيام القراءة والآداب والصنائع والرياضيات وسماع الأخبار والروايات والتفقة في الدين، والنظر في العلوم، وطلب حقائق الموجودات)[١].

ويترافق الترقي بالأدوات والوسائل مع الترقي بأنواع العلوم والمعارف كمّاً وكيفاً. إذ أن الكائن البشري في بحثه عن الكائنات، يستدل بالحاضرات على الغائبات، وبالمحسوسات على المعقولات، وبالجسميات على الروحانيات، وبالرياضيات على الطبيعيات، وبالطبيعيات على الإلٰهيات (التي هي الغاية القصوى من المعارف، حيث السعادة الأبدية والدوام السرمدي).

في هذه الحال من الطبيعي أن يفترض إخوان الصفاء أن ما يُدرك «بأوائل العقول» يكون متفاوتاً ـ نوعاً ودرجة ـ. إذ ان العقول تبدأ بإدراك ما هو ظاهر وجلي، وتنتهي بإدراك ما يحتاج الى فكرٍ وتأمّل شديدين كما هو الشأن في العلوم الطبيعية، وتليها العلوم الإلٰهية. لذا ينبغي للترقي في العلوم وتحصيلها أن يتجه في اتجاهين اثنين في آن: الكم أو الدرجة، والنوع أو الكيف. وهذا ما يساعد النفس على هذا الترقي، بالإضافة الى الشوق والنزوع نحو تحصيل المعارف بحكم طبيعتها.

هناك بعض القوى الأخرى (القوة المتخيلة، القوة الحاسة، القوة المفكرة) التي هي من خواص النفس. وقد أدرك إخوان الصفاء مسبقاً أنه لا بد من حَكَم على هذه العلوم جميعها، يتميّز به الصواب من الخطأ، والحق من الباطل. كما إن هذا الحَكَم لا

---

(١) الرسائل، جـ ٣، ص: ٤١٥.

بد أن يكون واحداً، يرجع إليه الجميع في أحكامهم، وإلاّ تضاربت الأحكام في الأمر الواحد وتناقضت، وضاع الحق، واختلط الصواب بالخطأ، فسعوا الى إيجاد وحدة في التفكير وفي البناء الفكري، ينتج عنه وحدة في أداة الحكم الذي هو «العقل» الذي يتربع في قمة الهرم كما سبق وأشرنا (ونحن قد أجبنا على هذه المسائل كلّها، وأكثر منها، مما يشاكلها من المسائل على أصل واحد وقياس واحد، وهو صورة الإنسان. لأن صورة الإنسان أكبر حجة لله على خلقه، ولأنها أقربها إليهم)[1].

ونكتفي هنا بعرض الملخّص الذي قدّمه إخوان الصفاء (رسالة الحاس والمحسوس)[2] في فهرست الرسائل، حيث يلخصّ الإخوان عملية الإدراك عند الإنسان. [النصوص، جـ ١، ص: ٣٠ - ٣١، فهرست الرسائل].

كان إخوان الصفاء شديدي الحرص على التجانس والوحدة في التفكير والتوجه من أجل خلاص البشرية وإنقاذها مما هي فيه، فطالما ان البشر ذوو طبيعة واحدة، وماهية واحدة، ومن أصل واحد ومصير واحد، فلماذا إذن الاختلاف والتناقض والتشاحن...! في نظرهم كل هذا يرجع الى اعتماد البشر على أصول وقياسات مختلفة للحكم على الأمر الواحد.

تنطّع إخوان الصفاء لهذه المسألة المشكلة، ولتلك المعضلة البشرية، فحاولوا ان يجدوا حَكَماً واحداً عن طريق وحدة البناء والتكوين والتجانس، ليغدو ذلك الحَكَم واحداً لدى الجميع، وهذا الحَكَم هو العقل. ومتى حدث ذلك اتفق الجميع على رأي واحد ودين واحد ومذهب واحد، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع، ويكون ذلك سبباً لنجاة الكل[3].

---

(١) الرسائل، جـ ٤، ص:١٢.

(٢) الرسالة العاشرة من الرسائل الجسمانية الطبيعية. أنظر النص الكامل، جـ ٣، ص: ٤١٤ - ٤٢٧.

(٣) الرسائل، جـ ٤، ص:١٢.

وقد تصدّى الإخوان لتلك المهمّة الشاقة، إن لم نقل المستحيلة، واعتمدوا لها ما يكفل لهم ذلك، وعملوا على تحقيقه[1] وهو:

- وحدة في الغذاء للنفوس وللعقول: العلم والعلوم واكتساب المحمود من الأخلاق.
- وحدة في المسيرة الحياتية لبني البشر: التعلّم واكتساب المعارف والترقّي بها حسب منهجية واحدة.
- وحدة في الهدف والغرض: الترقّي بالنفس دوماً حتى تبلغ غاياتها القصوى في الحياة الآخرة.

ولعل الوصول الى ذلك أمر مشكوك فيه.

وهكذا يكون إخوان الصفاء قد اعتبروا «عقل» الإنسان «الجزئي» بمثابة الهيولي الموجودة بالقوة، وبالتعلّم تخرج من القوة إلى الفعل، بعد أن تتحد بالصورة التي هي العلم. وبما أن الهيولي واحدة، وعندما تكون الصورة التي تتحدّ بها واحدة، «العلوم»، ينتج عنها وحدة في العقل الذي هو قياس الأحكام ومصدرها. (والعلم غذاء للنفس وحياة لها، كما إن الطعام وجميع المتناولات غذاء وشراب للجسد، وحياة له)[2].

والعلم، هذا الذي (هو صورة المعلوم في نفس العالم)، وضده الجهل الذي هو عدم تلك الصورة، لا بد أن يكون واحداً كغذاء لأنفس المتعلّمين، حتى يكون هناك وحدة في البناء والتكوين والتجانس.

ثالثاً ـ فضل العلم وشرفه ومدى حاجة النفس البشرية إليه:

(فلا أفضل، ولا أجلّ، ولا أشرف، ولا أنفع لعبد، ولا أقرب إلى ربّه بعد

---

(١) لسنا بحاجة للقول بأنه لم يتحقق لإخوان الصفاء ما أرادوا.

(٢) الرسائل، جـ ١، ص:٣٨.

الإقرار به والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاءوا به، وخبّروا عنه، من العلم وطلبه وتعليمه)[١]. ويستشهد إخوان الصفاء على ذلك بما جاء من أقوال وأحاديث على لسان الأنبياء والمرسلين والحكماء، إذ انه القنية الوحيدة للنفس، كما إن المال قنية الجسد، فلا بديل لها عنه كغذاء وحيد لها. من أجل ذلك حثّ الأنبياء والحكماء على طلبه والسعي إليه، ونشره وتعليمه. وسنجد نفس المصادر الدينية والحكمية التي استشهد بها إخوان الصفاء في هذا المجال تتردّد عند الفقهاء والعلماء والفلاسفة المسلمين، عندما يتحدّثون عن العلم وفضله وشرفه[٢]. وهكذا يكون العقل إلى جانب النقل المعينين اللذين يمدّان النفس بالغذاء من أجل حياتها في الدنيا والآخرة.

ولما كان العلم قد يؤدي إلى نتيجتين مختلفتين تماماً: نتيجة خيّرة إيجابية بما قد يُكسب النفس من خصال محمودة، كالشرف والعزّ والرفعة والنبل والقوة والسلامة والجود...، وصفات رديئة، كالكِبَر والعُجب والافتخار والمنازعة وطلب الرياسة والتعصب، وغيرها من الأخلاق المذمومة التي تصيب عادة بعض العلماء، من أجل ذلك حدّد إخوان الصفاء غرضاً واحداً للعلم ينبغي ان يُطلب من أجله فقط، وهو طلب الآخرة وتصفية النفس، لتحتفظ بجوهرها ونقائها وصفائها، (واعلم يا أخي بأن كل علم وأدب لا يؤدي بصاحبه إلى طلب الآخرة، ولا يعينه على الوصول إليها، فهو وبال على صاحبه، وحجة عليه يوم القيامة)[٣].

وهكذا يكون العلم سيفاً ذا حدّين، إذا طلب لشؤون الدنيا، خسر صاحبه الخسران المبين، وإذا طلب من أجل الآخرة، كان منجاة لصاحبه. ويذكر لنا إخوان الصفاء الأمثلة والشواهد عن الفائزين ممن كان علمهم من أجل الآخرة وليس من أجل الدنيا.

لذا كان على إخوان الصفاء ان يضعوا شروطاً وآداباً للعلماء، وكذلك

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص: ٣٤٦.

(٢) انظر موسوعتنا، التربية والتعليم الإسلامية، فصل العلم وفضله.

(٣) الرسائل، جـ ١، ص: ٣٤٩.

للمتعلمين، ليبقى العلم في الإطار الذي افترضوه له، ويحقق الغرض الذي وضعوه له، وإن لم يسهب الإخوان في هذه الآداب والشروط، ويكتفون بتعدادها، مثل: النيّة، والصمت، وطريقة السؤال، والعمل به، والتفكّر فيه، والصدق، وشكر الله، وشروط أخرى غيرها. نجد هذه الشروط تتكرّر بإسهاب وتوّسع في الرسائل التربوية والتعليمية التي نجدها لدى بعض الفلاسفة والفقهاء المسلمين. فكما أن للعلم فضل وشرف لا يضاهيه شيء، ينبغي ان يكون لحامله خصائص وصفات، ولطالبيه شروطاً وآداباً اسهبوا بها وأطالوا، حتى غدت بعض الرسائل التربوية عبارة عن تعداد لهذه الآداب والشروط، كما هو شأن ابن جماعة في رسالته «مذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم»، وزين الدين العاملي في رسالته «منية المريد في آداب المفيد والمستفيد»، والسمعاني في «أدب الإملاء والإستملاء»، والغزالي في «أيها الولد»، ورسالة «العالم والمتعلم» في إحياء علوم الدين[1].

وإنّ دلّ هذا الموقف على شيء، فإنه يدل على الحرص الذي التزم به المربّون المسلمون، ومنهم إخوان الصفاء، بأن يكون للعلم وظيفة دينية وأخلاقية ينبغي ان يؤديها، ولا يجوز ان يخرج عن هاتين الغايتين، وأن يكون الغرض الوحيد منه هو طلب الآخرة. ومن الطبيعي ان يترتب على هذا التوجه (الموقف) ما ترتّب من مواقف وآراء مختلفة ومتناقضة إزاء العلم الذي هو «قنية النفس» وخلاصها في الآخرة، حسب قول الحكماء، باعتباره حسب الحديث الشريف: فرض على كل مسلم ومسلمة.

ما هو هذا العلم؟ وأي العلوم هي المطلوبة؟ وإلى أي مدى جاءت الإجابات على هذا السؤال عند المربين المسلمين متوافقة أو متناقضة، سواء من حيث أنواع العلوم وما المطلوب منها، أو بالنسبة للدور والوظيفة التي قد يؤديها كل منها؟

كان لإخوان الصفاء رأيهم الخاص إزاء هذا الموضوع، ومن الطبيعي ان يتناسب هذا الموقف مع فلسفتهم من ناحية، ومع أغراضهم التي سعوا إليها من ناحية أخرى.

---

(١) انظر للمؤلف، موسوعة التربية والتعليم الاسلامية.

رابعاً ـ أجناس العلوم وأنواعها:

أ ـ نظرتهم للعلوم وتعاملهم معها:

لم يقف إخوان الصفاء من العلوم موقف الحذر والتحفظ، كما هو الشأن عند الجلّة من علماء المسلمين، وخاصة الفقهاء منهم، بل أقبلوا على العلوم ـ وكل ما وصل منها إليهم ـ إقبال المتفتح المتقبّل، والمتشوّق لها جميعاً. فهم لم يختاروا علوماً ويقدّموها على غيرها لأنها تخدم العلوم الدينية (الشرعية)، ويؤخرّوا أو يهملوا أخرى ويرفضوها باعتبارها مضيعة للعمر وتفسد عقول المتعلمين (الغزالي)، بل نجدهم على العكس من ذلك، احتضنوا العلوم جميعها بلا استثناء، ولم ينكروا أو يستبعدوا أياً منها خوفاً أو حذراً، باعتبارهم فلاسفة، والعقل رائدهم، وهو الحَكَم فيما بين البشر جميعاً، وهو المقياس والمعيار الأنسب والأوحد للأحكام. وكداعين لثورة في الفكر الإسلامي، إحياء وتجديداً له، كان من الطبيعي أن لا ينكر إخوان الصفاء على أهل العلم علمهم ـ مسلمين وغير مسلمين ـ قبل الإسلام وبعده، ولا على أصحاب النظر والحكمة حكمتهم ونورانية عقولهم، ولا على أصحاب النبوءات والرسالات السماوية وحيهم، طالما أن العقل هو المقياس والمعيار والحكم فيما بين البشر. وهذا العقل ليس حكراً على قوم ولا على عصر ولا على معتقد، بل إنه النعمة من خالق الجميع وللجميع، من أجل تحصيل المعارف على شتّى أنواعها، وبشتّى مجالاتها، فإن كل ما يقبله هذا الحكم فهو حق وصواب.

وقد اجتهد إخوان الصفاء وبرعوا في توظيف العلوم جميعها، وما وصل إليهم منها، سواء كان مصدرها العقل (العلوم الفلسفية) أو الوحي والنقل (العلوم الشرعية)، أو الاعتقاد القائم على التقليد والعرف (النجوم، السحر، الزجر، الفأل...)؛ وجدوا لهذه الأنواع جميعها ـ من المعتقدات الشعبية والحكمة المستخرجة من الخبرة الحياتية ـ موقعاً في سياق رؤيتهم وتصورهم (فلسفتهم) وجعلوها تصبّ جميعها في مجرى واحد يخدم غرضهم الأقصى، كغذاء وحيد للنفس البشرية، وعامل على تصفيتها وتهذيب أخلاقها.

وبكلمة، إستغرق إخوان الصفاء جميع من سبقهم على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، وامتصوا وتمثّلوا كل ما وصل إليهم من علوم ومعارف، ومن معتقدات وتقاليد، فألّفوا بينها ونسّقوا، وأقاموا منها بناء محكماً، ونسجوا من خيوطها مذهباً نُسب إليهم، ومعتقداً لطلابهم وأتباعهم. فكان لكل علم ولكل فن ولكل معتقد، موقع في سلّم المعارف، ووظيفة يؤدّيها من أجل الأغراض القصوى. حتى السحر والتنجيم، وغيرها من الممارسات التي أنكرها الجميع، لم يجد إخوان الصفاء حرجاً في تبنّيها واعتمادها، بعد أن أوجدوا لها تفسيراً يقبله العقل، ووظيفة تخدم غرضهم. فالنجوم والتنجيم هي إحدى ضروب الكشف عن المستقبل، إلى جانب الزجر والكهانة والفأل والمنامات والإلهام والوحي والخواطر وغيرها مما أنكره علماء المسلمين. أوجدوا لها جميعاً موقعاً ووظيفة في مجال ترقّي النفس من أجل الحفاظ على صفائها ونقائها.

علم النجوم مثلاً يمكن أن يكون مدعاة للخلاص وللاستهانة بالمصائب، أو لبعث الخوف في النفوس من المصائب التي ستقع أو قد تقع، ومدعاة للتوبة إلى الله، والعودة إليه، والتذرع له، وتقديم القرابين، ليكفيهم تلك المصائب وينجيهم منها.

وفي نظرهم إن الفقهاء وأصحاب الحديث من المسلمين لم ينهوا عن هذا النوع من العلوم للأسباب الآنفة الذكر، بل لكونها جزءاً من علوم الفلسفة، والفلسفة مضرّة بالأحداث والصبيان، ولكن من (عرف أحكام الشريعة، وتعلّم علوم الدين، فإن النظر في علوم الفلسفة لا يضرّه بل يزيده في علم الدين تحقّقاً)[1].

أيضاً للملائكة والجن والشياطين والمردة وجود، كما إن لهم موقعاً ووظيفة يرضاها العقل وتخدم الغرض. فإن (ذواتهم حيث أفعالهم، وصورهم معروفة بآثارهم). وغرضها هو البيان أن في العالم فاعلين نفسانيين وروحانيين غير جسمانيين. كما إن للسحر والعزائم والزجر والفأل والوهم والرقي وأعمال الطلسمات، أيضاً، مبرّر

---

(١) الرسائل، ج ١، ص: ١٥٧.

وغرض[1].

وليس هذا مستغرباً على إخوان الصفاء الذين لم يعتمدوا النص الشرعي الديني كَحكَم ومقياس للمعارف والعلوم، بل اعتمدوا العقل - كما سبق وذكرنا - حَكَماً ومقياساً ومعياراً للعلوم وصدقها. بل نجدهم كثيراً ما يلجأون إلى النص (القرآن والحديث) ليستنبطوا تفسيرات وتأويلات تدعم رأيهم وموقفهم. وما أسهل عليهم، وهم «الباطنيون»، الذين تبنّوا تفسيراً وتأويلاً للشرع وللنص في خدمة غرضهم، ويحقق غايتهم، ويدعم مذهبهم وفلسفتهم، ليضفوا عليه شيئاً من المتانة والقوة والشرعية.

وما أكثر ما استشهد إخوان الصفاء بالآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية، وبالحِكَم القديمة، والأمثال الدارجة، والقصص والنوادر، إمّا دعماً لموقف ورأي اتخذوه، أو مبعثاً ومصدراً لرؤية أو لنظرية تبنّوها.

ولم يفرّق إخوان الصفاء في الغايات القصوى للعلوم، سواء كان مصدرها العقل عند الحكماء والفلاسفة، أو العلوم الشرعية التي مصدرها الأنبياء والوحي، أو خبرات الأمم وتجارب الشعوب التي مصدرها المسيرة الحياتية للبشرية؛ رأوا أن هذه جميعها تخدم غرضاً واحداً، وإنه مهما تنوّعت العلوم واختلفت مصادرها، وتعدّدت الطرق المؤدية إليها، فإنها جميعها تخدم في النهاية غرضاً واحداً هو الترقّي بالنفس من حال النقص إلى الكمال، والخروج بها من حدّ الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، فتنال بذلك الدوام والخلود في النعيم مع أبناء جنسها من الملائكة المقرّبين، (وكلاهما، العلوم الحكمية والعلوم الشرعية، أمران إلٰهيان يتفقان في الغرض المقصود منهما الذي هو الأصل، ويختلفان في الفرع). فإذا كانت غاية الفلسفة وعلومها (هي التشبّه بالإلٰه بحسب طاقة البشر) فإن الغرض من العلوم النبوية الشرعية والناموسية (هو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحها وتخليصها من جهنم عالم الكون والفساد، وإيصالها إلى

---

(١) موضوع الرسالة الحادية عشرة من الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية.

الجنّة ونعيم أهلها في فسحة عالم الأفلاك وسعة السموات)[1].

ويرى إخوان الصفاء أن السبب وراء اختلاف الطرق والمسالك المؤدية إلى هذا الغرض الواحد، ناتج عن اختلاف الطبائع والأعراض المتغايرة التي تطرأ على النفوس، وما العلوم بأنواعها وأجناسها إلاّ كعقاقير الأطباء وطرق معالجتهم للأمراض (بحسب اختلاف الأمراض العارضه للأجساد من الآلام والأوجاع، بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة).

وهكذا استطاع إخوان الصفاء التوفيق والتوليف بين شتّى العلوم، الشرعية النقلية منها (الوحي)، والحكمية الوضعية (العقل)، وجعلوا منها وحدة متجانسة ومتكاملة لتخدم غرضاً واحداً هو تصفية النفس والمحافظة على نقائها، من أجل البلوغ بها إلى أقصى غاياتها، (ولما كان مذهب إخواننا الفضلاء الكرام النّظَرَ فيها جميعاً، والكشفَ عن حقائق أشيائها، أعني العلوم الحكمية والنبوية جميعاً، وكان هذا العلم بحراً واسعاً وميداناً شاسعاً، إحتجنا أن نتكلم في الضرورة التي دعت إلى كتابة هذه الرسائل المجموعة في إحدى وخمسين رسالة)[2].

وكان لهم من القرآن والتوراة والإنجيل، وما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين، ومن أقوال الأئمة والصدّيقين، إلى جانب ما بلغه الفلاسفة والحكماء بعقولهم وتجاربهم، على اختلاف انتماءاتهم ومشاربهم، كان لهم من هذا كلّه مادة علمية وغذاء لعقول المتعلّمين من طلابهم ومريديهم، بعد أن أقاموا منها نسقاً متجانساً ومتناغماً في إطار منهجية مناسبة للغرض الذي سعوا إليه، وكفيلة لأن تحقق الصيرورة التي أرادوها لأتباعهم ومؤيديهم.

---

(١) الرسائل: جـ٣، ص: ٣٠.

(٢) الرسائل، جـ٣، ص: ١٢٩، ونشير هنا إلى أن «رسالة الجامعة» التي تضمّنت تلخيصاً للإحدى والخمسين رسالة، تعتبر الثانية والخمسون.

ب ـ أنواع العلوم وأجناسها ومواضيعها:

وضع إخوان الصفاء اثنتين وخمسين رسالة، ضمّنوها تفصيلاً لشتى العلوم والفنون، وأتبعوها برسالة «الجامعة» المشتملة على جميع الحقائق التي وردت في الرسائل الاثنتين والخمسين، وجعلوا هذه الرسالة الجامعة[1] (منتهى الغرض، وأقصى المدى، ونهاية القصد، وغاية المراد.) واشترطوا على المريدين أن لا يتناولوها إلاّ بعد أن يكونوا قد ألمّوا إلماماً وافياً بمجموع الرسائل السابقة عليها، إذ (لا يقف على كنهها، ولا يحيط بحقائقها، ولا يحصّلها ولا شيئاً منها إلاّ من ارتاض بما قدّمنا، وحذق وعرف وتدرّب فيها وتمهّر، أو بما شاكله، إذ أن هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمداخل إليها... لا ينفتح غلق معتامها، ولا ينكشف مستور غامضها، إلاّ لمن تهذب بهذه الرسائل الاثنتين والخمسين، أو بما شاكلها من الكتب)[2].

وفي وقفة سريعة على مضمون هذه الرسائل وفحواها، نجدها مقسّمة إلى أربعة أقسام، وكل قسم منها يختص بنوع من العلوم، ولكل نوع مواضيعه الخاصة به. وندرج هنا الأقسام تلك مع ما تضمنه كل قسم من العلوم والمواضيع، ونتبعها بخارطة[3] موضحة لأجناس العلوم وأنواعها التي تناولها الإخوان بالبحث والتفصيل، وتدرّجهم وترقّيهم بها مع المتعلمين، باعتبار أن التدرج والترقيّ بالعلوم هو من صميم المنهجية التي وضعوها لطلابهم، بما يتناسب مع طبيعة الأنفس، ومع استعداداتهم وتقبّلهم، ليخرجوا ما هو موجود فيها بالقوة إلى وجود بالفعل، وما هو عندهم بالنظر إلى العيان والتطبيق.

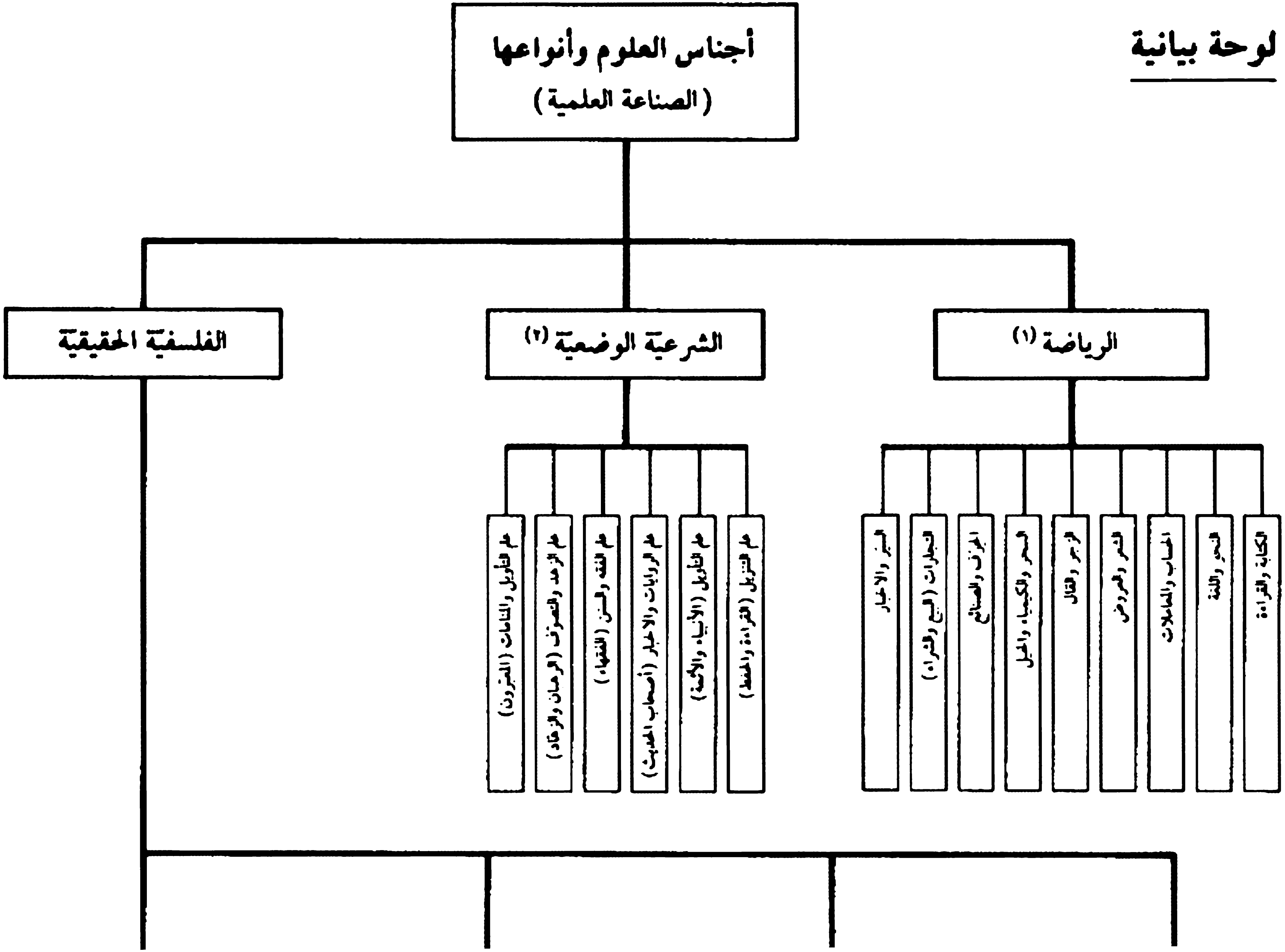
---

(١) تحقيق عارف تامر، بيروت، دار النشر للجامعيين. ويعتبر المحقق ان رسالة الجامعة هي الثانية والخمسون. وسبق وحققها الدكتور جميل صليبا، المجمع العلمي العربي في دمشق معتبرها للمجريطي.

(٢) فهرست الرسائل، جـ ١، ص: ٤٣.

(٣) أنظر اللوحة البيانية اللاحقة.

لوحة بيانية


أجناس العلوم وأنواعها
(الصناعة العلمية)
الرياضية (١)
الشرعية الوضعية (٢)
الفلسفية الحقيقية
الكتابة والقراءة
النحو واللغة
الحساب والمعاملات
الشعر والعروض
الزجر والفال
السحر والكيمياء والحيل
الحرف والصنائع
التجارات (البيع والشراء)
السير والأخبار
علم التنزيل (القراءة والحفظ)
علم التأويل (الأنبياء والأئمة)
علم الروايات والأخبار (أصحاب الحديث)
علم الفقه والسنن (الفقهاء)
علم الزهد والتصوّف (الرهبان والزهّاد)
علم التأويل والمنامات (المعبّرون)

- **علوم الرياضيات**
  - الارثماطيقا (الكم المنفصل العدد)
  - الجيومطريا (الكم المتصل الهندسة)
  - الاسطرنوميا (النجوم)
  - الموسيقى (التأليف والتركيب)

- **علوم المنطقيات (٣)**
  - أنولوطيقا الأولى (صناعة القياس)
  - سوفسطيقا (صناعة المناظرة والمغالطة)
  - ريطوريقا (صناعة الخطابة)
  - طوبيقا (صناعة الجدل)
  - أنولوطيقا الثانية (صناعة البرهان)

- **علوم الطبيعيات**
  - علم المبادىء الجسمانية (الهيولى، والصورة، المكان والزمان)
  - علم السماء والعالم (جواهر الأفلاك والكواكب)
  - علم الكون والفساد (معرفة جواهر الاركان الأربعة)
  - علم حوادث الجو (تأثيرات الهواء بالكواكب والعكس)
  - علم المعادن (الجواهر المعدنية)
  - علم النبات (النبات والجذور والفروس)
  - علم الحيوان (معرفة الأجسام الغازية والنامية المتحركة والحاسة)

- **العلوم الإلهية**
  - معرفة الباري والصفات المختصة به
  - الروحانيات (معرفة الجواهر الروحانية البسيطة، الملائكة، ...)
  - النفسانيات (معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية)
  - علم السياسة (كيفية وضع النواميس)
    - السياسة النبوية (كيفية وضع السنن وغاياتها)
    - السياسة الملوكية (حفظ الشريعة وإحياء السنن)
    - السياسة العامية (الرئاسة على الجماعات)
    - السياسة الخاصية (تدبير المرء معيشته ومنزله)
    - السياسة الذاتية (تدبير المرء أموره واخلاقه)
  - علم المعاد (معرفة ماهية النشأة الأخرى وانبعاث الأرواح)

(١) هي العلوم التي وُضع اكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الدنيا.

(٢) وُضعت من أجل طب النفوس وطلب الآخرة.

(٣) وُضعت من أجل ضبط الأقوال والأفعال والاعتقادات. يشير إخوان الصفاء هنا إلى: أرسطو في قاطيغوراس وباريمنياس وأنولوطيقا. وكتاب فورفوريوس الصوري: إيساغوجي. وأنه لكثرة التطويل والتحويل من لغة إلى أخرى، وتعامل من ليس عارفاً بها، انغلقت معانيها، وعَسُرَ فهمها.

جـ - أقسام الرسائل ومواضيعها (المادة التعليمية التعلّمية):

١ - **الرسائل الرياضية التعلّمية الفلسفية (١٤ رسالة):** ١ - العدد. ٢ - الهندسة. ٣ - النجوم. ٤ - الموسيقى. ٥ - الجغرافيا. ٦ - النسب العددية والهندسية. ٧ - الصنائع العلمية النظرية. ٨ - الصنائع العملية والمهنية. ٩ - اختلاف الأخلاق، وأسباب اختلافها. ١٠ - إيساغوجي (الألفاظ الستة). ١١ - قاطيغورياس (الكلّيات). ١٢ - باريمانياس (العبارة). ١٣ - أنولوطيقا الأولى (القياس). ١٤ - أنولوطيقا الثانية (البرهان).

٢ - **الرسائل الجسمانية الطبيعية (١٧ رسالة):** ١ - الهيولى والصورة. ٢ - السماء والعالم. ٣ - الكون والفساد. ٤ - الآثار العلوية. ٥ - كيفية تكوين المعادن. ٦ - ماهية الطبيعة. ٧ - أجناس النبات. ٨ - أصناف الحيوان. ٩ - تركيب الجسد. ١٠ - الحاس والمحسوس. ١١ - مسقط النقطة. ١٢ - الإنسان عالم صغير. ١٣ - كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية. ١٤ - بيان طاقة الإنسان في المعارف. ١٥ - ماهية الموت والحياة. ١٦ - ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية. ١٧ - علل اختلاف اللغات.

٣ - **الرسائل النفسانية العقلية (١٠ رسائل):** ١ - المبادىء العقلية، على رأي الفيثاغوريين. ٢ - المبادىء العقلية، على رأي إخوان الصفا. ٣ - إن العالم إنسان كبير. ٤ - العقل والمعقول. ٥ - الأكوار والأدوار، واختلاف القرون والأعصار. ٦ - ماهية العشق. ٧ - ماهية البعث والصور والنشور والقيامة والحساب. ٨ - أجناس الحركات. ٩ - العلل المعلولات. ١٠ - الحدود والرسوم.

٤ - **الرسائل الناموسية الإلهية والشرعية الدينية (١١ رسالة): ١ - في الآراء والمذاهب. ٢ - ماهية الطريق إلى الله عز وجل وكيفية الوصول إليه. ٣ - في بيان اعتقاد إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء. ٤ - كيفية عشرة إخوان الصفاء. ٥ - ماهية الايمان وخصال المؤمنين. ٦ - ماهية الناموس الإلٰهي والوضع الشرعي. ٧ - كيفية الدعوة إلى الله عز وجل. ٨ - كيفية أفعال الروحانيين والجن والملائكة المقربين والمردة والشياطين. ٩ - كيفية أنواع السياسات. ١٠ - كيفية نظر العالم بأسره. ١١ - ماهية السحر والعزائم.**

أما عن التدرج في هذه العلوم والترقّي بها، فقد افترض إخوان الصفاء لذلك سلّماً مناسباً لمنطلقهم (رؤيتهم للإنسان) من ناحية، ولغرضهم من ناحية أخرى (الوصول به إلى غايته القصوى. إذ أن لكل نوع من أنواع العلوم الآنفة الذكر الدور والوظيفة التي يؤديها لذاته - كغاية بحدّ ذاته - والدور والوظيفة التي يؤديها لغيره من العلوم كوسيلة لغاية أخرى. في الإتجاه الأول، باعتباره رياضة للنفس وتهيئة للارتقاء إلى رتبة أعلى، بعد أن صارت النفس مهيّأة ومستعدة لتقبل المثوبة من خالقها بالعون الإلهي، لتنتقل إلى المرتبة الأعلى بالتدرج، لتبلغ العلوم الإلهية (الناموسية) أقصى غاياتها. وفي الاتجاه الآخر، إذ لا يمكن للنفس أن تُلمّ بالطبيعات أو الإلٰهيات، وتقف على مُغلقها، إذا لم تتمرس أولاً بالرياضيات والمنطقيات وما شاكلها كضوابط لها من الخطأ والزلل، ومعينة لها للوقوف على كنه العلوم الأخرى.

وهكذا يكون ترقّي النفس ورياضتها يتم باتجاهين: كمّي وكيفي، في آن واحد. إذ ليس الغرض هو كمية العلوم والدرجة التي بلغتها النفس في تحصيلها وحسب، بل هناك أيضاً نوع العلوم وكيفية تحصيلها، ليكون الانتقال من نوع إلى نوع ارتقاءً صيرورة لها، إذ تتحول النفس إلى طبيعة جديدة ذات ماهية أخرى، غير التي كانت عليها، لتصبح ذات طباع وأخلاق مناسبة للمرتبة التي ارتقت إليها.

تبقى عملية الإخراج لهذه العلوم من القوة إلى الفعل، ومن النظر إلى التطبيق. والطريق إلى ذلك هو التعلّم والتعليم.

الفَصْلُ الخَامِسُ ✿ الصَّنَائِعُ العِلْمِيَّةُ الرُّوحِيَّةُ

العلم والتعلّم والتعليم والتربية [1]

ماذا يقول إخوان الصفاء في هذه المفاهيم وهذه الاصطلاحات؟.

- (واعلم أن العلم ليس بشيء إلاّ صورة المعلوم في نفس العالِم، وأن الصنعة ليست شيئاً سوى إخراج تلك الصورة التي هي في نفس الصانع العالم ووضعها في الهيولى).
- (واعلم يا أخي أن أنفس العلماء علاّمة بالفعل، وأنفس المتعلمين علاّمة بالقوة... وأن التعلم والتعليم ليسا سوى إخراج ما في القوة، يعني الإمكان، إلى الفعل، يعني الوجود. فإذا نسب ذلك إلى العالِم سُمّي تعليماً، وان نسب إلى المتعلم سُمّي تعلّماً).
- (النفس الكلّية علاّمة بالفعل. كل نفس جزئية تكون أكثر معلومات وأحكم مصنوعات، فهي أقرب إلى النفس الكلّية، لقرب نسبتها إليها وشدة شبهها بها).
- (حدّ الفلسفة هو التشبّه بالإله حسب الطاقة الإنسانية).

(١) عن هذه المواضيع أنظر الرسائل، جـ ١، ص: ٣٩٩، فصل في العلم والتعليم والتعلم. أيضاً ص: ٢٦٢، فصل في العلم والمعلوم والتعلّم والتعليم وأوجه السؤال. أيضاً، ص: ٣٠٧، مطلب في التربية.

- (واعلم أن العادات الجارية بالمداومة فيها، تقوّي الأخلاق المشاكلة لها، كما إن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها، والدرس لها، والمذاكرة فيها، يقوّي الحذق بها والرسوخ فيها. وهكذا المداومة على استعمال الصنائع والدؤوب فيها، يقوّي الحذق والأستاذية فيها، وهكذا جميع الأخلاق).

ممّا تقدم، نرى أن الصور لتلك المفاهيم واضحة ومحدّدة في ذهن إخوان الصفاء، وعلى أساسها تعاملوا هم أنفسهم معها، كما طلبوا من مريديهم أن يتعاملوا معها أيضاً. وبموجبها شرع إخوان الصفاء في بناء وتكوين أنفس المتعلمين ليبلغوا بها الغايات القصوى التي افترضوها لها.

إن العلوم التي قدّموها في رسائلهم للمريدين، والترقيّ بها تدرّجاً - كمّاً ونوعاً -، هو الطريق الكفيل ببلوغ الغرض.

كما نرى، إن عملية التعلّم والتعليم هي صناعة، يلزم لكي يبلغ صاحبها درجة الأستاذية فيها، أن يكون على درجة من المهارة والحذق اللازمين لها، ليكون قادراً على إخراج تلك الصور الموجودة في أنفس المتعلمين (العلوم) بالقوة إلى وجود بالفعل. ومن الطبيعي أن تكون تلك الصناعة من الصناعات العلمية الروحية، مقابل الصناعات العملية التي تتعامل مع الهيولى (المادة)، لأنها تتعامل مع أنفس المتعلمين ذوات الجواهر الروحية.

وهكذا يغدو التعليم ليس سوى الطريق للخروج من القوة إلى الفعل، أو هو «الدالة» على تلك الطريق. والأستاذون هم «الأدلآء»، وما يعلمونه هو الدلالة، والمعلوم هو المطلوب «الدلالة» عليه، مما يعني أن المريد لا يستطيع أن يخرج ما عنده من القوة إلى الفعل بمفردة، بل يحتاج إلى «ادلآء» علماء بالفعل (كل نفس علاّمة بالقوة لا بدّ لها من نفس علاّمة بالفعل تخرجها من القوة إلى الفعل). بمعنى آخر، إن كل صانع من البشر لا بدّ له من أستاذ يأخذ عنه تلك الصنعة أو ذلك العلم[1].

---

(١) نشير هنا إلى موقف مشابه عند العلاّمة إبن خلدون، الذي افترض أن لكل علم «سند» ينبغي أن يؤخذ العلم عنه. كما ان الفرد لا يمكن ان يبلغ كما له بمفرده من وجهة نظر الاجتماعيين.

ويتدرج المتعلّم مع أساتذته في الترقيّ والحذق والمهارة ليبلغ درجة الأستاذية، حيث يصبح علمه ليس من أحد من البشر، وهو حدّ الفلسفة (التشبه) بالإله. وهي تلك الدرجة التي افترضها الإخوان لانفسهم، إذ أن علومهم ومعارفهم لا يدركها غيرهم من البشر، ولا يأخذونها عن غيرهم من أبناء جنسهم.

ويرى الإخوان أن هناك فئتين من البشر قد تبلغان تلك المرتبة العليا، عن طريقين مختلفين:

الأولى - فئة بقوة نفسها: تبلغ تلك المرتبة عن طريق الرؤية والاجتهاد والتفكر (العقل)، وهي فئة الحكماء والفلاسفة.

الثانية - الفئة التي أدركت تلك المرحلة عن طريق الإلهام والاصطفاء (الوحي)، وهي فئة الأنبياء والمرسلين.

وكلاهما (الفلاسفة والأنبياء) يحتاج إلى العناية الإلهية والتوفيق من الله عزّ وجلّ لبلوغ تلك المرحلة - من باب إثابة النفس على اجتهادها - (واعلم يا أخي علماً يقيناً أنه ليس من البشر أحد يحيط بعلم من العلوم، لا أنبياء ولا فلاسفة ولا غيرهم، إلاّ بما شاء الذي وسع كرسيّه السموات والأرض).

إنها مرتبة العلوم الإلٰهية حيث يُدرك «الناموس الإلٰهي». ولما كانت هذه المرتبة لا تدرك من أيّ كان، كما إنها لا تستهوي الجميع - لبُعدها وصعوبة مراقيها - يضع إخوان الصفاء لهؤلاء حدّاً أدنى يمكن بلوغه، حيث يمكن ان يكون (خادماً في الناموس الإلٰهي، يحفظ أحكامه والقيام بحدوده)[1].

هناك ملاحظتان جديرتان بالاهتمام:

١ - إن العناية الإلٰهية، وتوفيق الله عزّ وجل، أمر ضروري ولا يمكن بدونه بلوغ تلك المرحلة، بمعنى ان من يريد بلوغها لا بدّ أن يكون قد حصل

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص: ٢٩٥، الرسالة الثامنة من القسم الرياضي.

على مرضاة الله وعمل بموجب الناموس الإلٰهي في الكون والخلق.

٢ ـ ان الخير والإخلاص والرياضة النفسية، والنوايا والأعمال، وغيرها من الأمور والممارسات، هي التي تكون سبباً لذلك العون، إذ ان التوفيق والعناية الإلٰهية لا يُمنحان كيفما اتفق، ولا ينالهما أيّ كان.

عن طريق وحدة العقل، حقّق إخوان الصفاء وحدة الإنسان، وبالتالي وحدة الأحكام:

إن وحدة الحكم على الأمور التي سعى إليها إخوان الصفاء عن طريق العقل، بالإضافة الى الوحدة في المنطلق (الرؤية لطبيعة الإنسان) ووحدة الغايات القصوى للإنسان (ماهيته)، كلّها تقتضي وحدة في المسيرة الحياتية لهذا الكائن (بناءً وتكويناً وتفكيراً وتوجّهاً وتطلّعات واهتمامات...) لذا نجد إخوان الصفاء يرسمون الطريق واضحاً ومحدّداً لطلابهم.

ولما كانوا قد أرادوا للعقل ان يكون المقياس والمعيار للحكم على الأمور (ونسبته الى النفس كنسبة الضوء من البصر، فكما أن البصر لا يرى شيئاً من الأشياء إلاّ بالضوء، كذلك النفس لا تنظر ذاتها إلاّ بنور العقل، ولا تعرف حقائق الموجودات إلاّ بالنظر الى العقل)[1]، كان من البديهي ان يسعى إخوان الصفاء لوحدة تكوينية وبنائية لدى الإنسان، لإنه بالتالي ليس غير الإنسان ذاته، والنفس الناطقة عينها (وإن العقل للإنسان ليس هو شيئاً سوى النفس الناطقة، إذا تصورت رسوم المحسوسات في ذاتها ميّزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها، وعرفت جواهرها وأعراضها، وجرّبت أمور الدنيا، واعتبرت تصاريف الأيام بين أهلها).

والعقل هـذا محصّلة ونتيجة لعوامل أو لمعطيات ثلاثة:

العامل الأول: معطيات العقل الفعّال ـ أول فيض عن الخالق ـ وهو خزّان

---

(١) الرسائل، جـ ٢، ص: ٤١٦.

الحقائق والعلوم الموجودة بالفعل فيه، وبما يحققه عقل الإنسان من اتصال وارتباط مع العقل الفعّال يمكن ان يخرج ما فيه من حقائق وصور بالقوة إلى الفعل.

العامل الثاني: المعطيات الحياتية للإنسانية وبما يبذله المرء من جهد، (إنه كلما كان المرء أكثراً تأملاً للمحسوسات، وأدقّ نظراً في أمور الموجودات، وأجود بحثاً عن الخفيّات، وأكثر تجاربَ للأمور الدنيوية، وأحسن اعتباراً لأهلها، كان أرجح عقلاً من أبناء جنسه، وأكثر علماً من أبناء طبقته)[1].

العامل الثالث: إذن هناك مسالك وقنوات بين العقل الجزئي والعقل الكلّي (الفعّال)، وليس التفكر والتأمل، أو الجهد الذي يبذله المرء وحده كاف لفتح تلك المسالك والمنافذ والقنوات بينهما. لذا يفترض إخوان الصفاء عاملاً آخر، وهو حركة النجوم والكواكب في منازلها وأبراجها، في المكان والزمان.

وإذا كان إخوان الصفاء قد وجدوا بالعلم والتعلّم (العقل) طريقاً لترقّي الإنسان، ولانتقاله من حالة الى حالة، ومن مرتبة الى أخرى، وإن الله هو المعين على ذلك، وجدوا أيضاً للنجوم والكواكب دوراً وأثراً في انتقال الإنسان من عالم ما تحت فلك القمر، عالم الكون والفساد، إلى عالم ما فوق فلك القمر، عالم الأرواح والبقاء.

كيف فسّر إخوان الصفاء تلك العلاقة بين النجوم ذات الطبائع المختلفة، والتي تتحرك في أبراجها وأفلاكها، وبين الإنسان الذي يحيا تحت فلك القمر؟

الإنسان وتطوره

يرى الاخوان إن الإنسان بعد أن يكون نطفة (أنقص الحالات) فإنه لكي ينمو ويتطور إلى الأفضل والأكمل، فإنه يحتاج إلى الأوقات والأزمان (لأن طبيعته لا

---

(١) الرسائل، جـ ٣، ص:٤٢٥.

تقبل فيض أشخاص فلكية دفعة واحدة، ولكن بالتدريج). ويأخذ نموه المنحى التالي:

- **تكوّن النفس النباتية:** فهو منذ سقوط النطفة يحتاج الى أربعة أشهر ليتقبل صورة الإنسان، وخلال هذه الفترة الزمنية تكون الشمس قد سارت أربعة أبراج النطفة لا تزال تتقلّب من حال الى حال من النضج والاستحكام (بمشاركة قوى روحانية أخرى). في هذه المرحلة تكون أفعال الكواكب وتأثيراتها مصروفة الى (تأسيس بنية الجسد وتكوين أعضائه المختلفة) وهي مرحلة تكوين النفس النباتية بطبائعها وأمزجتها. في نفس الوقت تكون الشمس قد حطّت طبائع الأبراج التي قطعتها خلال تلك الفترة من عالم ما فوق القمر (الأرواح والبقاء) إلى عالم الكون والفساد (دون فلك القمر).

- **تكوّن النفس الحيوانية:** وفي مرحلة تليها (أربعة أشهر أخرى) وبعد أن تكون بنية الجسد قد اكتملت وأحكم خلق الأعضاء تسري بالكائن (الجنين) النفس الحيوانية، وقد أصبح بالإمكان ان تظهر أفعالها، بعد أن تكون الشمس قد قطعت أيضاً أبراجاً أخرى، لتضع تلك النفس الحيوانية وما فيها من طباع وقوى في ذلك الكائن.

- **تكوّن النفس الناطقة:** خلال أربع سنوات من الولادة يستوفي الكائن البشري تكوينه وترقّيه، حيث تكتمل البنية وتستحكم الصورة، وتسري فيه القوى الناطقة وتظهر أفعالها (وذلك أن تلك القوى الروحانية تصرف تأثيراتها وأفعالها إلى تربية المولود وإحكام إدراك الحواس لمحسوساتها، ثم ترد النفس الناطقة وينطلق لَسِن المولود بالعبارة عن معاني تلك المحسوسات وتميّزها)[1].

وهكذا في الوقت الذي ينمو فيه الكائن ويتطور في الزمان، تكون الشمس وبقية الكواكب تنتقل في المكان (الأفلاك والأبراج) وتنقل الى هذا الكائن ما يناسب

(١) الرسائل، جـ ٢، ص: ٤٢٢ - ٤٢٩.

ذلك المكان والزمان معاً، القوى والطباع والسمات والأمزجة المناسبة لتينك المقولتين[1].

وهكذا يفسر إخوان الصفا عمل الكواكب وتأثيراتها، سواء في الأمزجة والطباع والأخلاق والمذاهب والمعتقدات، وبالتالي بتعلّم العلوم واكتساب الصنائع، والحذق والمهارة بها، (واعلم أن قبول الصبيان تعلّم الصنائع يختلف بحسب طباعهم المختلفة، واختلاف طباعهم بحسب مواليدهم)[2]. وقد أفرد إخوان الصفاء لهذا الغرض رسالة خاصة في تأثيرات النجوم في المواليد.

وإن كان ابن خلدون بعد إخوان الصفاء قد احتار في سبب تفاوت قدرات المتعلمين على الفهم واكتساب الصنائع، ولم يجد لذلك تفسيراً (لا يعلم كنهه إلا الله)، فإن إخوان الصفا قد وضعوا له التفسير الذي يتناسب مع تعاليمهم وفلسفتهم الكونية، التي كانت تحتّم عليهم الكشف عن علاقة قائمة بين عالم الأرواح (الملائكة والكواكب والعلماء بالفعل) الذين هم فوق فلك القمر (أي عالم الأرواح والبقاء)، وعالم الكون والفساد، عالم ما تحت فلك القمر، أي ما بين هذين العالمين من تأثر وتأثير ووحدة واتصال.

أما تفسيرهم لسبب تفاوت البشر لتقبّل العلوم والصنائع، فجاء على الوجه التالي: (إن السبب في ذلك ان الصناعة لا تتأتى للمولود إلاّ بدالّة كوكب متولٍّ لبرج العاشر من طالعه) فإذا استوى على هذا البرج واحد من الكواكب الثلاثة (المريخ، الزهرة، عطارد) لا بدّ لهذا المولود من صنعة يتعلمها، لأن اكتساب كل صنعة تمر بمراحل ثلاث هي: الحركة والنشاط والحذق، فالحركة من طبيعة المريخ، والنشاط للزهرة، والحذق لعطارد، أما بقية الكواكب كالشمس وزحل والقمر والمشتري، فإن

---

(١) نلاحظ أن هذا التفسير بعيد كل البعد عن التفسير العلمي لتطور الجنين، إذ أصر إخوان الصفاء على ربط هذا التطور وتأثراته بحركة النجوم والكواكب في أفلاكها.

(٢) الرسائل، ج ١ ـ ١، ص: ٢٩٠.

لكل منها أيضاً ما يناسبها من الطباع التي ترتكز بدورها في نفوس مواليدها (أبراجها)، مما يسمح له باكتساب ما يشاكل تلك الطباع من الأعمال.

من استوى على مولده مثلاً الشمس، فهو لا يتعلم صناعة لِكبرَ نفسه (أولاد الملوك). ومن استولى عليه المشتري، لا يعمل في الدنيا لزهده وورعه، ويرضى بالقليل من أمور الدنيا، ويُقبل على طلب الآخرة (كالأنبياء والصدّيقين ومن يقتدي بهم). ومن استولى عليه زحل، فإنه لا يعمل ولا يتعلّم، لكسله وثقل طبيعته عن الحركة، ويرضى بالذل والهوان. ومن استولى عليه القمر، أيضاً لا يعمل بسبب مهانته واسترخاء طبيعته (النساء وامثالهن من الرجال)[1]. وليس هذا وحده كافياً لتعلم الصنعة.

بل يكون على المريد ليبلغ غايته القصوى في أية صناعة والتعلّم والتعليم من ضمنها، بل وأشرفها - باعتبار العلم القنية الوحيدة للنفس البشرية، وبها ترتقي وتتحقق ماهيتها - ينبغي عليه أن يترقى ويحذق ليبلغ بها درجة من المهارة تخوّله التشبه بالصانع الحكيم، (واعلم يا أخي ان الحذق في كل صنعة هو التشبّه بالصانع الحكيم الذي هو الباري جلّ ثناؤه، ويقال أن الله تعالى يحب الصانع الفاره الحاذق... ومن أجل هذا قيل في حدّ الفلسفة أنها التشبّه بالإله حسب طاقة الإنسان)[2]. وكلما ازداد المرء في صناعته إتقاناً ومهارة، إزداد من الله قربه. وإذا كان الإنسان، ليبلغ تلك الدرجة، يحتاج إلى إعانة الخالق والى التأثير الايجابي من الكواكب (البرج الذي يسيطر على مولده)، فإن السعي الذي يبذله الانسان من جهته انه الملاذ الأخير، والمبرر الوحيد لثواب الخالق ورحمته (لأن العباد لا يملكون سوى سعيهم كما ذكر الله عزّ وجل، فقال «وان ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرىّ)[3].

---

(١) يستشهد إخوان الصفا بما كان يلجأ إليه اليونان قبل أن يختاروا الصنعة المناسبة لأولادهم، إذ كانوا يدخلون بهم الى هيكل الصنائع وسائر الكواكب، فيقدمون القرابين لصنم الكوكب المستولي على مولد الصبي، وإذا لم يعرفوا مولده، عرضوا عليه الصنائع ليتعرفوا على مدى قبوله لإحداها قبل أن يصرفوه إليها.

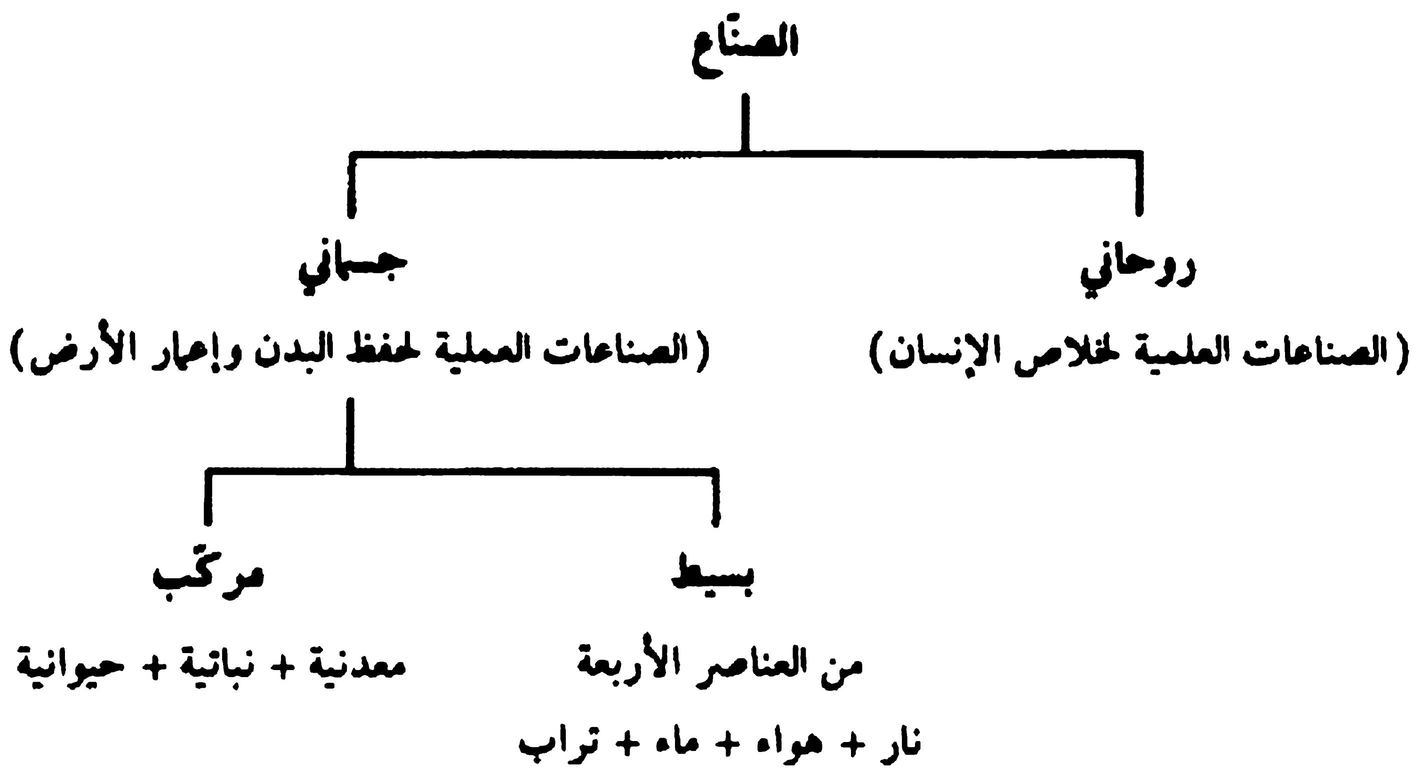
(٢) الرسائل، جـ ١، ص: ٢٩٠.

(٣) القرآن، سورة النجم، آية ٥٣.

أنواع الصناعات وطبيعة كل منها

بالرغم من أن إخوان الصفاء يضعون « المريدين » أمام خيارين من الصناعات: إما الصناعات العلمية الروحية، وإما الصناعات العملية الهيولية، فإنهم من خلال عرضهم لطبيعة كل منها، يضعون الباحثين عن خلاصهم أمام خيار وحيد لا مناص لهم منه، وهو اختيار النوع الأول من الصناعات. إذ أن الصناعات العلمية روحية بطبيعتها لأنها (تتعامل مع أنفس المتعلمين)، وهي الوسيلة الوحيدة أمامهم من أجل تنقية النفوس وإصلاحها، وبها تتخلص من ظلمات الجهالة، وتنال السعادة في الآخرة (فراراً من النار ومن عالم الكون والفساد) الذي هو دار الحيوان. وبهذا النوع من الصناعات، باعتبارها القنية الوحيدة للنفس البشرية، به ترتقي، كما إنه الغذاء الوحيد الذي تنزع إليه وتشتهيه ويكون به خلاصها، بالإضافة لكونها هي الأشرف والأفضل، والأولى باهتمام الإنسان في الدار الدنيا. بينما النوع الآخر من الصناعات، والذي هو قنية الجسد، ومن الصناعات الدنيوية، حيث تتعامل مع المادة (الهيولى)، إن الغرض منها تأمين حياة البدن وإعمار الأرض.

وهكذا يقدم إخوان الصفاء الصنائع وأنواعها للمريد، وما تتطلبه كل صناعة، والغرض لكل منها. وعليه يكون هناك نوعين من الصنّاع:



من الطبيعي أن يعزي اخوان الصفا تفاوت عقول البشر الى التفاوت في الإتقان والمهارة التي تبلغها النفس في النوع الأول من الصنائع (الصنائع العلمية). إذ أن النفس كلما ترقَّت في مدارج العلوم والمعارف ازدادت شفافية وصفاء، وأصبحت إلى جوهرها أقرب، وإلى تقبل المزيد من العلوم أرغب. في الجانب الآخر من الصنائع، كلما أمعنت النفس وانصرفت في دنياها إلى الاهتمام بالصنائع الجسمية، ابتعدت عن جوهرها الروحاني، وأصبحت عن تقبّل العلوم أبعد، فتنقاد للجسم الفاني، حيث مقرّه الدار الزائلة، فيكون الخسران المبين والتألم الأبدي.

وعموماً لا يفضل إخوان الصفاء لطلابهم التوجه نحو الصنائع العملية المهنية، بالرغم من أنها ضرورية لقوام البدن وإعمار الأرض، لأنها تتنافى مع طبيعة النفس البشرية وماهيتها، ولا يكون به خلاصها ومنجاتها، بل العكس.

ويمكن أن ندرج المقارنة التالية بين النوعين من الصنائع:

الصنائع العلمية والروحية	الصنائع العملية والمهنية
١ - موضوعها: الجواهر الروحانية - أنفس المتعلمين	١ - الجواهر الجسدية، وهيولي ما تحت فلك القمر.
٢ - غرضها: تنقية النفس وتهذيبها للعودة بها الى مبدئها الأول	٢ - إعمار الأرض وحفظ البدن الزائل
٣ - أدواتها ووسائلها: الرياضة النفسية وأثرها في العلوم على اختلاف أنواعها وأجناسها.	٣ - العناصر الأربعة، والحركة والآلة، وأعضاء البدن.
٤ - تحتاج إلى الفكر والعقل	٤ - تحتاج الى الفكر والعقل.
٥ - شرفها يتأتى من موضوعها وغرضها	٥ - شرفها يتأتى من عدة وجوه: حيويتها، مصنوعاتها، وحاجة المجتمع البشري لها، وطبيعة الصناعة ذاتها.

الصنائع العلمية والروحية	الصنائع العملية والمهنية
٦ ـ مراتبها: من العلوم الرياضيـة إلى الطبيعة ثم الإلهية	٦ ـ منها ما هو ذو مرتبة أولى ولا تقوم الحياة بدونه: الحراثة، الحياكـة، البناء، ومنها ما هي تابعة للأولى: الغزل والنسيـج. ومنهـا الزينيـة التجميلية: التـزيين، الزخـرفـة، العطور.
٧ ـ ماهيتها: إخراج العلوم الموجـودة بأنفس المتعلمين بالقوة إلى وجود بالفعل، لتصبـح أنفس المتعلمين علامة بالفعل.	٧ ـ ماهيتها: إخراج الصورة الموجودة في ذهن الصانع بالقوة إلى الفعـل بوضعها في الهيولي.

ولكي يأخذ إخوان الصفاء بأيدي المتعلمين ولا يتركونهم يتخبّطون في متاهات العلوم والمعارف فيضيع مسعاهم، ومن أجل الترّقي في الإتجاه الصحيح والسليم، يضع إخوان الصفاء المريدين منذ البداية على الطريق الواضح ليتمكنوا من إخراج ما هو موجود عندهم بالقوة إلى وجود بالفعل، ويتمكن العقل من بلوغ نهاية العلوم، والنفس غايتها القصوى، فيضعون له قائمة بالأسئلة الفلسفية كمعالم لتلك الطريق وحدود لها، فيتدرّج بها ويترقّى على الوجه التالي:

١ ـ هل هو: البحث في وجود الشيء أو عدمه (رسالة العقل والمعقول)
٢ ـ ما هو: تعريف الشيء البسيط بالرسم (الصبغة) والمركّب بالحد.
٣ ـ كم هو: البحث عن مقدار الشيء: الكم المتصل (الخط، السطح، المكان، الزمان)، والكم المنفصل (العدد، الحركة).
٤ ـ كيف هو: البحث في صفة الشيء: المقولات العشر.
٥ ـ أي شيء هو: هل هو واحد من جملة، أو بعض من كل.
٦ ـ أين هو: مكان الشيء أو رتبته.

٧ - متى هو : زمان كون الشيء .

٨ - لِمَ هو : علّة الشيء المعلول.

٩ - من هو : تعريف الشيء - هذا السؤال لا يوجه إلاّ لكل ذي عقل - .

بهذه القائمة من الأسئلة يضع إخوان الصفاء المتعلمين على عتبة العلوم قبل الدخول إليها ، ليعرفوا كيف يتعاملون معها . إنها أشبه بالمدخل والمقدّمات لتهيئة فهم المتعلمين للنظر في المنطق والفلسفة . وكان هذا ضرورياً من أجل وحدة التفكير (وحدة العقل) الذي سعوا إليه عند المتعلمين من ناحية ، ومن أجل وحدة الغرض والمقصد من ناحية أخرى . (وذلك لكي يتسنّى لطالبي العلم والباحثين عن حقائق الأشياء أن يعرفوا أولاً ما العلم وما المعلوم ، وعلى كم وجه يكون السؤال ، حتى يدروا ما الذي يسألون وما الذي يجيبون عليه إذا سُئلوا لأن الذي يسأل ولا يدري أيّ شيء يسأل ، فإذا أُجيب لا يدري بأي شيء أجيب)[1] .

وهكذا يكون الإخوان قد قدّموا للمتعلم منهجاً متكاملاً موحّداً ، بحيث لم يتركوا ثغرة يمكن أن يتسرب منها الخلل أو الاختلاف حول المواقف أو الآراء والمقاصد ، وطرق التعامل معها والمسالك إليها ، ليتسّنى لهم الوصول بالمتعلمين إلى الغاية التي وضعوها لهم ، وبذلك يصبحون جميعاً كأنهم رجل واحد في الأقوال والأفعال والآراء - كما كانوا هم أنفسهم - ووحدة الحَكَم (العقل) الذي سعوا اليه .

الأخلاق

لقد فلسف إخوان الصفاء الأخلاق كما فلسفوا غيرها من المظاهر الإنسانية ، ونظروا إليها من موقع يختلف إلى حدّ ما عن موقع الأكثرية . إذا كانت الأخلاق عند البعض تمثل الجانب العملي المنظور والمعاش والممارس من حياة المرء ، فهي عندهم تمتد إلى جذور عميقة في طبيعة النفس البشرية ، وهي بنوعيها ، المحمود والمذموم ،

---

(١) الرسائل ، جـ ١ ، ص : ٢٦٢ .

ترجع إلى مصدرين اثنين: الأول فطري مطبوع في النفس ومركوز فيها، نتيجة استيلاء أحد الكواكب على المرء أثناء ولادته. والثاني مكتسب ومعتاد نتيجة جريان العادة وكثرة الاستعمال. وهذا النوع من الأخلاق هو الذي يرافق النفس بعد مفارقتها الجسد، وعليه تُعاقب أو تُثاب، وتكون احد الأسباب المنجية للنفس من المهلكة، إلى جانب بعض المكتسبات الأخرى [1].

ولما كانت الأخلاق المركوزة في الجبلّة هي (استعداد وتهيُّؤ فطري في كل عضو من أعضاء الجسد، يسهل به على النفس إظهار فعل من الأفعال أو عمل من الأعمال، أو تعلّم علم من العلوم أو أدب من الآداب، أو سياسة من غير فكر أو رويّة) [2]. فإن هذا التهيُّؤ والاستعداد لتقبل جميع الأخلاق كما يذكرون (المحمود منها والمذموم)، من طبيعة الإنسان «المطلق» فقط. بينما الإنسان الجزئي، بحكم مولده واستيلاء أحد الكواكب عليه، فهو مفطور على تقبّل إحداها فقط، المحمود أو المذموم، لتأتي النفس إمّا مطبوعة على المحمود من الأخلاق ومستعدّة لهذا النوع - بدون فكر ولا رويّة - حيث يسهل عليها اكتساب كل سجيّة وكل جبلّة مركوزة في هذا الخلق وتابعة له. فإذا كان الإنسان مطبوعاً على الشجاعة، فإنه يسهل عليه الإقدام على الأمور المحفوفة بالمخاطر بدون فكر ولا رويّة. وهكذا يكون شأن العفّة والسخاء وغيرها من الأخلاق والسجايا المحمودة. وإذا حاولت النفس أن تُقدِم على عكس هذه الأخلاق المطبوعة فيها فإنها تحتاج إلى فكر ورويّة واجتهاد وتكلفة شديدة: (في هذه الحال يكون الإنسان بحاجة الى أمر ونهي، إلى ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، ولوم وذم). وبهذا يفسّر إخوان الصفاء ماهية الناموس الإلهي، ويبرّرون وجود الأنبياء والمرسلين لهذه الفئة من الخلق ذوي النفوس المريضة، إذ لا يمكنها أن تستقيم وتحتفظ بصفاتها وروحانيتها إلّا بالإرشاد والتوجيه وما يستتبعها من جهود ورغبة وأمر ونهي.

---

(١) رأى إخوان الصفاء ان هناك أربعة أشياء ترافق النفس بعد انفصالها عن الجسد: العلوم والمعارف، والآراء والمعتقدات، والأعمال المكتسبة بالاختيار والإرادة، إلى جانب الأخلاق المكتسبة.

(٢) الرسائل، جـ ١، ص: ٣٠٥.

وفي كلتا الحالتين تكون المداومة على ما يشاكل ما في الطباع من أخلاق وسجايا، محمودة كانت أو مذمومة، يقوّيها ويزيدها استحكاماً وغرزاً: (فكما إن النظر في العلوم والمداومة على البحث عنها والدرس لها والمذاكرة فيها، يقوّي الحذق بها والرسوخ فيها وأيضاً الصنائع، فإن المداومة عليها واعتيادها يقوّي الحذق والاستاذية فيها).

وفي هذا المساق يكون من الطبيعي عند إخوان الصفاء أن يكتسب الصبيان أخلاق وسجايا الأهل والأخوة والأتراب والأصدقاء ومن يربون معهم وينشأون، كالمعلمين والأستاذين. ولا يقتصر هذا على الأخلاق، بل يتعدّاه عند الإخوان إلى المذاهب والأديان جميعاً.

وهكذا يرى إخوان الصفاء أن هناك أربعة أسباب تكمن وراء اختلاف الأخلاق:

السبب الأول - المناخ وتربة البلاد وهواؤها: نتيجة حرارة الشمس الساطعة في معظم أيام السنة (في القسم الجنوبي من بلاد الحبشة والزنج والنوبة وأهل السند والهند) يسخن الهواء ويحمي الجوّ، لتسودّ الأبدان وتتجعّد الشعور... فتبرد بواطن الأبدان وتميل النفوس للخمول والكسل. وعلى عكس ذلك في القسم الشمالي، بسبب ابتعاد الشمس عنها (ولا يمرّ عليها لا صيف ولا شتاء) يغلب على أهويتها البرد، فتبيّض الجلود وتترطّب الأبدان (وتستجنّ الحرارة في بواطن الأبدان، فتكثر الشجاعة والفروسية فيهم... وعلى هذا القياس توجد صفات أهل البلدان المتضادة بالمناخ والأهوية، فيكونون مختلفين في الطباع والأخلاق في أكثر الأمر وأعمّ الحالات)[1].

السبب الثاني - أحكام الكواكب والنجوم: إذا استولت على المواليد

---

(١) الرسائل، جـ ١، ص: ٣٠٤، كما نذكّر هنا بآراء ابن خلدون وغيره من البحّاث والعلماء بعد إخوان الصفاء، الذين كشفوا عن أثر البيئة الفيزيقية بالأخلاق.

الكواكب « النارية »، وتحكّمت أبراجها بها « كالأسد »، تغلّبت الحرارة وقوة الصفراء على أبدان وأمزجة هؤلاء المواليد. وإذا استولت عليها الكواكب المائية (الزهرة) وتحكّمت أبراج (الشعرى اليمانية) يغلب على أبدان وأمزجة تلك المواليد البلغم والرطوبة. وهكذا شأن الذين يولدون في البروج الترابية المستولي عليها أحد الكواكب الثابتة (زحل) تغلب عليهم اليبوسة والسوادة... الخ. وغيرها من أنواع الكواكب والأبراج حيث يستولي على مواليدها ما يشاكلها من الأمزجة والطباع.

ولا يرى إخوان الصفاء هذا فقط لأثر الكواكب والأبراج على المواليد، بل إن ذلك يتعدّاه إلى الميل والاستعداد لما يناسب تلك الأمزجة والطباع من آراء ومعتقدات وأحوال وأفعال وأخلاق. فالطبيعة « المرّيخية » مثلاً تميل بآراء أصحابها ومذاهبهم، إلى التعصّب والجدال والخصومات، أكثر من غيرها، والطبيعة « المشترية » تميل بأصحابها إلى الآراء والمذاهب، التي طابعها اللين والزهد والورع. وهكذا يكون فعل الكواكب والأبراج، في الطباع والأمزجة والأخلاق، من ناحية، وما قد يتبعها من معتقدات ومذاهب من ناحية أخرى.

السبب الثالث: أما السبب الثالث لاختلاف الأخلاق فهو العادة والمداومة على نوع معيّن من الأعمال والأفعال، حتى تصبح طبعاً للنفس، وسجيّة لها وخلقاً، فتغدو طبيعة ثابتة لها، يصعب على النفس الرجوع والتخلّي عنها. وترافق هذه الطباع والأخلاق النفس بعد مفارقتها الجسد، (حيث تصير خُلقاً وسجيّة، وعادة يصعب الإقلاع عنها وتركها، وعلى هذا الجنس من الاخلاق تقع المجازات من المدح والذم، والثواب والعقاب، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، لأنه اكتساب من صاحبه وفعل له)[1].

السبب الرابع - من جهة أخلاط البدن ونِسَب هذه الأخلاط[2]: من البشر

---

(١) ربط الإخوان العالم الأصغر (الإنسان) بالعالم الأكبر (الكون) أنظر ص: ٤٧.

(٢) الرسائل، جـ ١، ص: ٣٠٨.

من يغلب على أبدانهم الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة، وهذا ناتج عن نسب أخلاط البدن، وتغلّب نسبة على أخرى، ولكل حالة ما يترتّب عليها، من طباع وأخلاق تتميّز بها. محرورو القلب مثلاً يتّصفون بالنشاط والحركة والغضب والانفعال والذكاء، بينما باردو القلب (برودة) يتصفون بقلة الثبات على الأمور والتسامح، بينما اليابس المزاج يتصف بالصبر والثبات في الرأي، كما يغلب عليه الحقد [1].

وهكذا وضع إخوان الصفاء تفسيرهم لاختلاف الأخلاق عند البشر. وإن كان هذا التفسير لا يجد القبول عند الجميع، فإنه بلا شك ينسجم مع فلسفتهم ومنطقهم، حيث وجدوا في الإنسان الجزئي، عالماً صغيراً مستغرقاً لكل ما دونه، وفي العالم الكبير الإنسان المطلق مستغرقاً لكل ما عداه، كما النفس الإنسانية (الناطقة) مستغرقة لغيرها من النفوس الأخرى (النباتية والحيوانية)، ومشتملة على مالها من الطباع والقوى، ومستعدة لنقل ما يساعدها على الترقّي لبلوغ غايتها القصوى، التي تشتاق وتنزع إليها بطبيعتها، حيث سعادتها وراحتها في إدراكها، وغمّها وخسرانها في افتقادها: (ومما أعطيت النفس الناطقة من نعم الله تعالى، وخُصّت به من دون نفوس سائر الحيوانات، وأُعينت به على بلوغ أقصى مدى غاياتها، وأيدّت للوصول إلى تمام نهاياتها، وذلك عن طريق الهيولى ووظائف الأعضاء، والعقل الغريزي، والقوى الطبيعية المعينة لها. وإن الغاية القصوى لهذه النفوس جميعاً هي شهوة البقاء على أتمّ الحالات، وأكمل الغايات، وكراهية الفناء والنقص عن الحال الأكمل والأفضل) [2]. في الحالة الأولى تكون إثابتها على محافظتها على صفاء جوهرها، وفي الحالة الثانية، عقابها وعذابها، لأنها سارت في اتجاه يخالف ماهيتها وطبيعتها.

ربّ متسائل هنا، طالما إن نفوس الأفراد، تتحكم بها طباع وأخلاق وسجايا

---

(١) كما يرى إخوان الصفاء ان هناك نوعين من الأخلاق: الأول ما هو تابع للمعتقدات والآراء، والثاني حيث الأديان والمعتقدات تنتج عن الأخلاق. ويضربون على ذلك مثل المجوسي واليهودي.

(٢) الرسائل، جـ ١، ص ٣١٥ - ٣١٨.

مركوزة فيها منذ اتحادها مع البدن، وسواء كانت هذه الطباع متأتية نتيجة حركة الكواكب في أفلاكها (الأبراج)، أو نتيجة لتأثرها بالمناخ والهواء والتربة، أو من نسبة الأمزجة والاخلاط، أو نتيجة العادة والاكتساب، إذاً ما هو دور التربية، وما هو المدى الذي يمكن أن تعمل له في تعديل أو تغيير تلك الطباع؟ بمعنى آخر، كيف يمكن للتربية والتعليم أن يغيّرا ما هو جبلّة وطبع؟.

وإذا كان إخوان الصفاء، قد وضعوا رسائلهم تلك، من أجل إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، فأي النفوس عنوْا، وأيّ الأخلاق أرادوا؟.

يمكن أن نجيب على هذه التساؤلات كما يلي:

إن إخوان الصفاء، قد افترضوا أن النفوس تثاب من خالقها متى شاءت، بمدّها بالعون الإلهي، لترتقي في المراتب العليا، حتى تبلغ غايتها القصوى، ويكون ذلك مكافأة لها على كدّها وعملها الدؤوب، من أجل الحفاظ على صفاء جوهرها ونقاء طبيعتها. والأخلاق، خاصة المكتسب منها، هي من الأشياء - الأربعة - التي ترافق النفس، بعد مفارقتها البدن، وعلى هذا النوع من الأخلاق يتقرّر مصيرها، إما الصعود إلى مبدئها (فوق فلك القمر) حيث خلاصها وسعادتها، وإمّا البقاء مع الهيولى (تحت فلك القمر) حيث شقاؤها وتعاستها.

وقد افترض إخوان الصفاء، أيضاً، أن العلم والتعلّم والتعليم والبحث والدأب على العمل فيها، هو طريق الخلاص وليس له بديل، إذ من شأنه - كما سبق وذكرنا - أن ينقّي النفس ممّا لحق بها من أدران وشوائب، بسبب اتحادها مع الجسد، إلى جانب كونه غذاؤها الوحيد، (به تحيا من موت الجهالة، وبه تنتبه من موت الغفلة،... والعلم يهديك إلى طريق ملكوت السماء، ويعينك على الصعود إلى هناك).

فإذا كانت بعض النفوس الفردية، لسوء طالعها، قد تحكّمت بها بعض الكواكب والأبراج، أو بسبب المناخ والهواء، أو لغيرها من الأسباب المذكورة التي قد تركّز فيها المذموم من الأخلاق، فإنها بالعلم والتعلّم والتربية (يخرج ما هو موجود فيها بالقوة من خير وأخلاق محمودة قبل اتحادها بالهيولى - إذ أن الخير في طبيعتها ومن

مصدرها الأول ـ. وما لحق بها من شر وأخلاق مذمومة فهو أمر لاحق بها بعد اتحادها مع الهيولى. في كلا الحالين يكون بالعلم والتربية صلاحها ومنجاتها. وهي بحاجة إلى التربية والتعلّم سواء لإخراج ما هو موجود بالقوة إلى وجود بالفعل، أو من أجل الحفاظ على صفائها ونقائها مما قد يلحق بها من سوء الخُلق بعد اتحادها بالجسد بصرف النظر عن مصدر ذلك الخُلق.

وإذا كان إخوان الصفاء ـ كما سبق وذكرنا ـ قد وضعوا فلسفة شبه كاملة وشبه تامة، فإن ما تمم هذه الفلسفة وأكملها هو مذهبهم التربوي، الذي عن طريقه نقلوا ما هو موجود عندهم بالفعل (كعلماء بالفعل) إلى تلاميذهم، ليخرجوا ما هو موجود عندهم بالقوة إلى وجود بالفعل عن طريق التعليم ليضعوه في انفس المتعلمين (الهيولي).

« فالتعليم لـيس شيئاً سوى إخراج ما في القوة إلى الفعل ».
« وأنفس المتعلمين علاّمة بالقوة، وأنفس العلماء علاّمة بالفعل ».
والتعلّم والتعليم هما الخروج من القوة إلى الفعل، وإن العلم هو صورة المعلوم في نفس العالم، وضده الجهل ».

فجاء مذهبهم التربوي يشمل إلى جانب ما يشمل معطيات عصرهم وبيئتهم. وعن طريق ذهنهم الوقّاد أضفوا عليه بعض الخصائص والمعطيات الحديثة في التربية والتعليم، مثل الطريقة الجدلية والديالكتيكية للتربية، والتربية الذاتية، والتربية والتعليم المستمرّين. وقد تجلّت هذه الخصائص في كل جانب من جوانب تربيتهم، سواء في الغايات القصوى للتربية والتعليم، أو في المنهجية التربوية والتعليمية التي اتبعوها من أجل بلوغ تلك الغايات، أو في تصوّرهم لطبيعة النفس البشرية، وبالتعامل معها بمقتضى تلك الطبيعة من أجل تحقيق ماهيتها.

الخاتمة ❁ خلاصة وحكم

إن مذهباً كمذهب إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء، بصرف النظر عن كونه سياسياً أو دينياً، لم يكن ليكتب له البقاء والحياة، لو لم يلجأ أصحابه ودعاته إلى ما ذهبوا إليه، من تنظيم لجماعتهم، وغايات واضحة لتعاليمهم، ومنهجية مناسبة، من أجل تحقيق تلك الغايات، ولنقل تلك التعاليم.

بحكم البيئة والعصر الذي جاءوا به، كان عليهم أن يتبعوا تنظيماً صارماً في الداخل والخارج، يحفظ لهم بقاءهم، ويضمن نشر تعاليمهم، إلى جانب منهجية وأسلوب مناسبين، لمعالجة المواضيع المطروحة وتنسيقها، للوصول بها إلى درجة من الاعتقاد والرسوخ والقناعة، وطرحها كحقائق مطلقة لا تحتمل الجدال والنقاش، حتى غدت هذه الحقائق، تشكّل بمجموعها البناء أو الصرح، الذي أقامته هذه الجماعة. فكان التكتّم والسرّية حول أشخاصهم، والباطنية لتفسيراتهم وتأويلاتهم، والتديّن لمراميهم وغاياتهم.

من معطيات العقل والأديان المنزلة، ومن الخبرة العملية والحياتية، ومن الحكمة القديمة نسجوا مذهبهم، فكان سياسياً عند البعض، وفلسفياً عند البعض الآخر، ودينياً عند آخرين، فتناول الباحثون والدارسون هذا التراث، كلّ كما يحلو له، ووجد فيه ما يبحث عنه. فهم فلاسفة عند الباحثين في الفلسفة، وهم سياسيون عند الباحثين في السياسة، وهم أصحاب مذهب ديني عند الباحثين في المذاهب، وهم

مربّون ومعلّمون عند الباحثين في المذاهب التربوية. فكانوا روّاداً كما كانوا أصحاب تأثير في أبناء جنسهم.

لم يقتصر عملهم هذا على محاولة التوفيق بين العقل والنقل، أو بين الحكمة والشريعة فحسب، بل تطرّقوا إلى ما ليس للعقل فيه رأي، ولا للشريعة فيه اعتراف، تطرّقوا إلى السحر والتنجيم والخرافة، فأوجدوا لها في سياق ذلك المذهب، وروح تلك التعاليم، مكاناً وتفسيراً وتأويلاً.

تصوّروا وافترضوا واجتهدوا، فصاغوا مذهباً سياسياً، يدعو إلى نظام للمجتمع، على رأسه «العلماء بالفعل»، ليكونوا حرّاساً للناموس الإلهي. وأقاموا مذهباً دينياً، لعلاقة الروح بالجسد، فيه تفسير وتأويل، ولطبيعة الإنسان ولغاياته القصوى مفهوم وتصوّر. من هذا كله، ولأجل هذا صاغوا مذهباً تربوياً تعليمياً، له منطلقاته وفلسفته، كما له غاياته ومراميه. كما أوجدوا المنهجية المتناسبة مع ذلك المنطلق، والكفيلة بتحقيق تلك الغايات.

فجاءت فلسفتهم النظرية، مكتوبة بلغة قومهم، ممزوجة بمعتقداتهم، معبّرة عن تطلّعاتهم، فتعاملوا مع العقل حيناً، ومع الروح والعواطف حيناً آخر، ومع الحياة بجانبيها المادي والروحي، أحياناً أخرى، فتكوّنت عندهم مجموعة من المعطيات عقلية، ودينية، وروحية، ومادية، واجتماعية، وثقافية... صاغوها في وحدة متجانسة ومتناغمة، لتخدم بعضها البعض. وكانت لهم رؤيتهم للإنسان ولطبيعته وماهيته، فوضعوا له الغايات القصوى التي يجب عليه أن يسعى إليها، واختاروا له المنهج، والطريق المناسب، لبلوغ تلك الغايات.

فهل يبقى هناك شك في أن هذه الجماعة، قد اختارت لغاياتها القصوى ولفلسفتها النظرية، مذهباً تربوياً وتعليمياً، يتناسب مع تلك الفلسفة، من ناحية، مع غاياتها القصوى من ناحية أخرى. حيث وضعت تصوراً لما يجب أن يكون عليه الآخرون، أو لما كانت تتمنّى أن تكون هي نفسها عليه، وعملت بكل ما أوتيت من فكر، وتعاملت مع كل ما أتيح لها من معطيات، من أجل هذا الغرض.

حاولوا بناء الفكر وتكوينه، عن طريق منهجية تراكمية تصاعدية، ليصبح عقلاً بالفعل، بعد أن كانَ عقلاً بالقوة. وإذا كانت العلوم التي ذكرت هي مادة البناء، فإنها بأقسامها ومراتبها هي الهندسة، التي أقيم عليها ذلك الفكر.

إنها تربية تلقينية تعليمية، تقوم على التوجيه الصادر من الخارج، على الأقل، عندما تفرض علوماً ومراحل صادرة من خارج ذلك الفكر، وإن كانت قد افترضت له طبيعة وماهية معيّنة. وحاولت أن تعطي لهذا الفكر ما يناسبه من علوم، آخذة بالاعتبار ما عنده من استعدادات، للترقّي والنماء، لتصل به إلى غايته، فيصبح عقلاً فعّالاً بالفعل. وهذه الغاية لا تتحقق للفكر بالتلقين والتوجيه من الخارج فحسب، بل لا بدّ له أن يتفاعل من جانبه في حركة ذاتية ديناميكية، وليست ميكانيكية، متأثراً ومؤثراً ليصبح قادراً على بناء ذاته ليدرك تلك المرحلة الفاعلة والمنفعلة في العقل الكلّي.

وهكذا تكون تربية إخوان الصفاء تربية مثالية، تقوم على العقل وليس على شيء آخر. وكل ما عدا العقل (النفس والجسد) ليس سوى أدوات ووسائل لهذا العقل ليحقق ماهيته ويدرك غاياته القصوى عن طريقها ليبلغ بالنفس درجة الكمال، التي تسعى إليه.

إن مذهباً تربوياً كهذا جدير بالدراسة والبحث. وإن اقتصر، كما سبق وذُكر، على تربية عقلية فقط، فإن ما قدّموه في هذا الجانب من تربيتهم (التربية العقلية)، التي تقوم على الديالكتيك والترقّي في العلوم وتنوّعها، والتعلم الذاتي والمستمر، ما يجعلها تقترب من النظريات الحديثة في التربية والتعليم، باعتبار أن العقل هو الغاية، وليس للتربية من غايات أخرى عندهم.

القسم الثاني

نصوص مختارة

الفصل الأول ■ نصوص مختارة من المجلد الأول
الفصل الثاني ■ نصوص مختارة من المجلد الثاني
الفصل الثالث ■ نصوص مختارة من المجلد الثالث
الفصل الرابع ■ نصوص مختارة من المجلد الرابع

اختيرت هذه النصوص من رسائل إخوان الصفاء الاثنتين والخمسين، ومما له علاقة بموضوع البحث.
رسائل إخوان الصفاء، المجلدات الأربعة، دار صادر / دار بيروت، بيروت، ١٩٥٧.

الفَصْلُ الأول ❀ نُصُوصٌ مختَارة مِنَ المجَلّدِ الأول

فهرست الرسائل

هذه فِهْرست رسائل إخوان الصفا وخِلاّن الوفا، وأهل العدل وأبناء الحمد، بجُمَل[1] معانيها وماهِية[2] أغراضهم فيها، وهي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم وغرائب الحِكَم، وطرائف الآداب، وحقائق المعاني، عن كلام الخُلّصاء الصوفية، صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد. وهي مقسومة على أربعة أقسام: فمنها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية[3] إلهية.

فالرسائل الرياضية التعليمية أربع عشرة رسالة:

الرسالة الأولى منها في «العدد» وماهيته وكميته وكيفية خواصه، والغرض المراد من هذه الرسالة هو رياضة أنفس المتعلمين للفلسفة، المُؤْثرين للحكمة، الناظرين في حقائق الأشياء، الباحثين عن عِلل الموجودات بأسرها، وفيها بيان أن صورة العدد في النفوس مطابق لصور الموجودات في الهَيُولي[4]، وهي أنموذج من العالم الأعلى،

---

١ الجمل: جمع جملة، أي جملة الشيء.

٢ ماهية الشيء: حقيقته.

٣ ناموسية: شرعية.

٤ الهيولي عند الحكماء: شيء قابل للصور، ويسمى بالمادة.

وبمعرفته يتدرّج المُرتاض إلى سائر الرياضيات والطبيعيات، وإن علم العدد[1] جِذْرُ العلوم، وعنصر الحكمة، ومبدأ المعارف، وإسْطِقْس[2] المعاني.

الرسالة الثانية في «الهندسة» وبيان ماهيتها، وكمية أنواعها، وكيفية موضوعاتها. والغرض المقصود منها هو التهدي[3] للنفوس من المحسوسات الى المعقولات، ومن الجسمانيات الى الروحانيات، ومن ذوات الهَيُولي الى المجردات[4]، وكفية رؤية البسائط[5] التي لا تتكثر ولا تزداد، ولا تنفرد بالاتحاد، ولا تتقدر بمقدار، ولا انحصار في الأقطار[6]، كالصورة المجرَّدة المُعرَّاة من المواد المبرّأة من الهَيُولي، والجواهرِ المَحْضَة الروحانية، والذوات المُفرَدة العلوية التي لا تُدرك بالعِيان، وفوق الزمان والمكان، وكيفية الاتصال بها والاطلاع عليها والترقي بالنفس إليها.

الثالثة رسالة في «النجوم» شِبْهُ المدخَل، في معرفة تركيب الأفلاك، وصفة البُروج، وسَيْر الكواكب، ومعرفة تأثيراتها في هذا العالم، وكيفية انفعال الأمهات والمواليد منها بالنشوء والبلي والكون والفساد[7]، والغرض منها هو تشويق النفوس الصافية للصعود الى عالم الأفلاك وأطباق السمّوات، منازل الروحانيين، والملائكة المقرَّبين، والملإ الأعلى، والجواهر العُلى، والوصولِ الى القدس والروح الأمين[8].

الرابعة رسالة في «الموسيقى» وهو المدخل الى علم صناعة التأليف[9] والبيانُ بأن

---

١ الجذر: الأصل، وأصل الحساب.

٢ الإسطقس: الأصل، والإسطقسات الأربعة: الماء والأرض والهواء والنار، يوناني معرّب.

٣ التهدي: الاهتداء.

٤ المجردات: أي المفارقة المادة.

٥ البسائط: الموجودات غير المركّبة.

٦ الأقطار: الجوانب، والخطوط الهندسية القاسمة والواصلة.

٧ الكون: وجود الجوهر عن عدم مثل وجود عمرو بعد ان لم يكن. الفساد: عدم الجوهر عن وجود مثل أن يموت عمرو بعد أن كان حياً.

٨ القدس، والروح الأمين: العقل الفعّال عند الفلاسفة.

٩ التأليف: وضع الألحان.

النغم والألحان الموزونة لها تأثيراتٌ في نفوس المستمعين لها، كتأثير الأدوية والأشربة والتِّرياقات في الأجسام الحيوانية، وأن للأفلاك في حركاتها ودورانها واحتكاك بعضها ببعض نغمات مطربة مُلهية وألحاناً طيبة لذيذة معجِبة منها، كنغمات أوتار العيدان والطنابير وألحان المزامير. والغرض منها التشويق للنفوس الناطقة الإنسانية الملكية للصعود الى هناك بعد مفارقتها الأجساد التي تسمى الموت. لأنه الى هناك يُعرج بأرواح النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين المُحِقّين المستبصرين كما بيَّن الله تعالى بقوله: « إن كتاب الأبرار لفي عِلّيّين وما أدراك ما عِلّيّون كتابٌ مرقوم ».

الخامسة رسالة في « جغرافيا »، يعني صورة الأرض والأقاليم، والبيان بأن الأرض كُرِيّة الشكل بجميع ما عليها، من الجبال والبحار والبراري والأنهار والمدن والقرى، وأنها حيّة تشبه بجملتها صورة حيوان تام عابد الله تعالى، بجميع أعضائها وأجزائها وظاهرها وباطنها، وكيفية تخطيطها وتقديرها ومسالكها وممالكها. والغرض منها هو التنبيه على علة ورود النفس الى هذا العالم وكيفية اتحادها، وعلة ارتباطها بغيرها، واستعمالها الحواس، واستنباطها للقياس، والتنبيه على خلاصها والحث على النظر والتفكر فيما نصب الله لنا من الدلالات وأرانا من الآيات التي في الآفاق والأنفس، حتى يتبين للناظر أنه الحق فيتمسك به ويزدلِف إليه ويتوكل في أحواله عليه، فيستعد للرحلة والتزود الى دار الآخرة قبل الممات وفناء العمر وتقارب الأجل وفوت الأمل ووجدان الحسرة والندامة.

السادسة رسالة في « النِّسَب العددية والهندسية، والتأليفية وكَمية أنواعها، وكيفيّة ترتيبها ». والغرض منها التهّدي لنفوس العقلاء إلى أسرار العلوم وخفياتها وحقائقها وبواطن الحكم ومعانيها، والوقوف على أن الموجودات المختلفة القوى المتباينة الصور المتنافرة الطباع إذا جُمع بينها على النسبة المتعادلة ائتلفتْ وصحت وبقيت ودامت. وإذا كانت على غير النسبة المتعادلة اضطربت وتنافرت حتى اضمحلت وفنيت، وما اعتدلت ولا استقام شيء إلا على قدر المناسبة وصِحة الإئتلاف، وبمعرفة كمية ذلك وكيفيته يكون الحذق والمهارة بالصنائع كلها والتبرز فيها.

السابعة رسالة في « الصنائع العلمية النظرية » وكمية أقسامها وكيفية مراتبها وإيضاح طرائقها ومذاهبها ». والغرض منها تعديد أجناس العلوم وأنواع الحِكم وبيان أعراضها وحقائقها والتهدي لطلب العلوم والحكم والتوقيت عليها وكيفية الطريق إليها وبيان معرفتها.

الثامنة رسالة في « الصنائع العملية والمهنية وتعديد أجناس الصنائع العملية والحِرف. والغرض منها هو تنبيه نفوس الغافلين على معرفة جواهرها التي هي الفاعلة على الحقيقة والمستنبطة الصنائع كلها، المستعملة لأجسامهم، المستخدمة لأبدانهم، إذ هي للصنائع كالآلات للنفوس والأدوات لها تستعملها لتبلغ بها غرضها على اختلاف مقاصدها وفنون حاجاتها.

التاسعة رسالة « في بيان اختلاف الأخلاق وأسباب اختلافها وأنواع عللها ونكت من آداب الأنبياء وسُنّتهم وزُبَد من أخلاق الحكماء وسيرِهم ». والغرض في ذلك منها تهذيب النفوس واصلاح الأخلاق اللذان بهما الوصول إلى البقاء الدائم والسرور المقيم وكمال السعادة الباقية في الدنيا والآخرة.

العاشرة رسالة في « أيساغوجي » وهي الألفاظ الستة التي تستعملها الفلاسفة في المنطق وفي أقاويلهم ومخاطباتهم في كتبهم وحُججهم وبراهينهم. والغرض منها هو التنبيه على ما يُقوّم ذات الإنسان ويُتممُهُ ويُعرّفه البقاء الدائم، ويُعرفه الفرق بين الكلام المنطقي واللغوي والفلسفي، وما حقيقة كل واحد منها؛ وبيان ما يُحتاجُ من ذلك إليه لتسديد العقل وتثقيفه نحو الحقائق، ورده عن الزلل والغلط، كما يُحتاج الى النحو لتسديد اللسان وتقويمه نحو الصواب، وردّه عن اللحن لأن نسبة صناعة المنطق الى العقل والمعقولات مثلُ نسبة صناعة النحو إلى اللسان والألفاظ.

الحادية عشرة رسالة في « قاطيغورياس » وهو البيان عن المقولات الكليات وهي الألفاظ العشرة التي كل واحد منها اسم لجنس من الموجودات كلها. والغرض منها هو البيانُ بأن معاني الموجودات كلها قد اجتمعت في هذه المقولات العشرة التي يسمى كل واحد منها جنساً من الأجناس، والأجناس داخلة فيها؛ وكيف تنقسم

الأجناس إلى الأنواع، والأنواع إلى الأشخاص، والأشخاصُ إلى الأمهات، وإنها حدائق الآداب وبساتين العلوم وجناتُ الحِكم وفواكه النفوس ونُزه الأرواح.

الثانية عشرة رسالة في «باريمانياس»[1] وهي الكلامُ في العبارات وأداة المعاني على حقها والإبانة عنها. والغرضُ منها تعريف الأقاويل الجازمة المفردة البسيطة الحَمْليَّة[2] التي هي أقسام الصدق والكذب وكيف تحصل المقدمات القياسية، وتركيبها من الألفاظ البسيطة المفردة، وتقابُلُ الايجاب والسلب، وتقسيم أصناف الأقاويل، وأنها هي الجازمُ الذي منه تتركب المقدمات البرهانية، وما الاسم، وما الكلمة، وما القول المطلق، وما القول الجازم، وما الموجبة، وما السالبة، وما المحصَّل[3] والمستقيمُ والمعدولُ[4] وما القضايا الثُّنائية والثلاثية والرُّباعية، وما العناصر الثلاثة من ضروري وممكن وممتنع، وما الضدّ والنقيضُ وغير ذلك مما يحتاجُ إليه في مُقدمات القياس.

الثالثة عشرة رسالة في «أنولوطيقا الأولى» وهي القياس، والغرضُ منها وهو بيان كمية القياس الذي تستعمله الحكماء والمتكلمون في احتجاجاتهم والدعاوي والبيانات والمناظرات في الآراء والمذاهب، وأنه الميزان بالقِسْط[5] وضعته الفلاسفة ليُعرّف به الصّدقُ من الكذب في الأقاويل، والخطأ من الصواب في الآراء، والحقُّ من الباطل في الأفعال، وأيُّ شيء يكون، وكيف يكون، ومتى يكون، وأيُّها الصحيحُ، وأيُّها الفاسد.

---

١ باريمانياس: أو باري ارمنياس، كتاب العبارة لأرسطو.

٢ الحملية: المراد بها القضية الحملية، وهي عند المناطقة بمنزلة المبتدأ والخبر عند النحاة، ويسمى المبتدأ عندهم الموضوع، والخبر المحمول.

٣ المحصّل: يقال القضية المحصّلة، وهي الحملية التي يكون كل من موضوعها ومحمولها وجودياً بأن يكون السلب خارجاً عن مفهومي الموضع والمحمول جميعاً، سواء كانت موجبة كقولنا: زيد كاتب، أو سلبية كقولنا: زيد ليس بكاتب، سميت بذلك لكون كل واحد من الطرفين فيها وجودياً محصلاً. وربما خصص اسم المحصلة بالموجبة.

٤ المعدول: يقال قضية معدولة، وهي قضية حملية موضوعها أو محمولها أو كلاهما عدمي، وتسمى غير محصلة.

٥ القسط: العدل.

الرابعة عشرة رسالةٌ في « أنولوطيقا الثانية » وهي البرهان، والغرضُ منهـا هـو البيان والكشفُ عن كيفية القياس الصحيح الذي لا خطأ فيه ولا زلل، وهو المسمّى « البرهانُ » وهو ميزان البصائر، يُقيم الوزنَ بالقِسط، ومثاقيلُها[1] بـدايـةُ العقـول والمعارف الأولى، يستعملها الصيارفة[2] الإلّهيّون مـن الحكماء الذيـن يعـرفـون بـه[3] الصوابَ من الخطأ، والحقُّ من الباطل، ويوضّحُ الحقُّ المبين والعلم اليقين.

تمت الرسائل الرياضية التعليمية والفلسفية.

ويليها الرسائل الجسمانية الطبيعية وهي سبع عشرة رسالة:

الأولى منها رسالة في « الهيولي والصورة » وماهيتها وما الزمانُ والمكانُ والحركـة واختلاف أقاويل الحكماء في حقائقها وكيفياتها، والغرضُ منها هو تعريفُ ماهيةِ الجسم وحقيقتـه وما يخصّه من الأعراض اللازمة والزائلة والصورِ المُقومة والمتممة، وتلقب هذه الرسالة بسَمع الكِيان[4].

الثانية منها رسالة في « السماء والعالم » وبيـان كيفيـة اطبـاق السمـوات وكيفيـة تركيب الأفلاك، وما هو العرشُ العظيم، وما الكرسيُّ الواسع. والغرض منها هو البيان عن كيفية تحريك الأفلاك، وتسييرات الكواكب، وأن المحرّك لها كلّها هو الروحُ القُدُسُ والنَّفسُ الكُليّة الفلكية، الموكّلة بها باذن باريها.

الثالثة منها رسالة في « الكون والفساد » والغرض منها هو البيان عن ماهيّة الصور المقوّمة لكل واحد من الأركان الأربعة، أعني الامّهاتِ التي هي النارُ والهواء والماء

---

١ مثاقليها: موازينها، والضمير يعود الى البصائر.

٢ الصيارفة: أي الذين يميزون الأقوال، ويفضل بعضها على بعض، مأخوذ من صيارفة الدراهم.

٣ به: أي بالميزان.

٤ السمع: الصيت. الكيان: الطبيعة، قال الجواليقي إنها كلمة سريانية، وقيل سمع الكيان لأنه أول ما يسمعه المتعلمون لهذا العلم، ويسمى أيضاً السمع الطبيعي والسماع الطبيعي، وهو ما ينبغي ان يقدّم قبل تعلم الفلسفة.

والأرض، وأنها هي الأُمّهات الكُلية الكائِنُ منها المعدن والنبات والحيوان، وكيفية استحالة بعضها الى بعض باختلاف كيفياتها عليها، بدوران الأفلاك حولها، ومطارح شعاعات الكواكب عليها، وان الطبيعة الفاعلة لها، المحركة لكل واحدٍ منها الى كمالها وغايتها، هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية، وملك من جملة الملائكة الموكلة بها، وسائقه لها الى تمام ما أُعدَّ لها من غايتها.

الرابعة منها رسالة في «الآثار العلّوية» والغرض منها هو البيان عن كيفية حوادث الجو وتغييرات الهواء، من النور والظلمة، والحر والبرد، وتصاريف الرياح من البحار والأنهار، وما يكون منها من الغيوم والضباب والطل والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبَرَد والهالات[1] وقوس قزح والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك.

الخامسة منها رسالة في «كيفية تكوين المعادن، وكمية الجواهر المعدنية، وعلة اختلاف جواهرها وكيفية تكوينها في باطن الأرض». والغرض منها هو البيان بأنها أول مفعولات الطبيعة التي هي دون فلك القمر التي هي قوة من قوى النفس الكلية الفلكية بإذن باريها المصور للجميع، والموجِد للكل، لا من موجود، إبداعاً واختراعاً وخلقاً وتكويناً، ومنها تبتدىء الأنفسُ الجزئية بالتهدي الباعث بها الى الترقي من أسفل سافلين من مركز الأرض إلى أعلى عِلّيّين عالم الأفلاك وفوق السموات، موقف الأبرار المتّقين، ومقر الأخيار المنتجّبين[2]، ومحل الأنبياء والمرسلين، وهذا أول صِراط تجوز عليه الأنفس الجزئية ثم النبات بوَساطة الكون والنموّ، ثم الحيوان بوساطة الكون والنمو والحِسّ، ثم الإنسان بوساطة الكون والنمو والحِسّ والعقل، ثم التجرد والدخول في زمرة الملائكة الذين هم سكان الأفلاك والملإ الأعلى الذين هم أهل السموات.

السادسة رسالة في «ماهية الطبيعة» وكيفية أفعالها في الأركان الأربعة التي هي

١ الهالات: جمع هالة، وهي الدارة التي تظهر حول القمر.

٢ المنتجبين: المختارين.

الأمّهات ومواليدها التي هي: الحيوان والنبات والمعادن. والفرق بين الفعل الإرادي، من الفكري والشوقي، وبين الضروري من الطبيعي والقهري. والغرض منها تنبيه الغافلين على أفعال النفس وماهيّة جوهرها، والبيان عن أجناس الملائكة، وهي التي تسميها الفلاسفة روحانيات الكواكب الموكلة بإنشاء المواليد، بتحريكها الى استكمال صورها والتمام المُعد لها.

السابعة منها رسالة في «أجناس النبات» وأنواعها وكيفية سرَيان قوى النفس النامية فيها. والغرض منها هو تعديد أجناس النبات، وبيان كيفية تكوينها ونشوئها، واختلاف أنواعها من الأشكال والألوان والطعوم والروائح في أوراقها وأزهارها وثمارها وحبوبها وبذورها وصموغها ولحائها[1] وعروقها وقضبانها وأصولها وغير ذلك من المنافع، وأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة المعادن، وآخر مرتبتها متصلة بأول مرتبة الحيوان.

الثامنة منها رسالة في «أصناف الحيوان» وعجائب هياكلها وغرائب أحوالها. والغرض منها هو البيانُ عن أجناس الحيوانات وكمية أنواعها واختلاف صورها وطبائعها وأخلاقها، وكيفية تكوينها ونتاجها وتوالدها وتربيتها لأولادها، وأن أول مرتبة الحيوانية متّصلة بآخر مرتبة النبات، وآخر مرتبة الحيوانية متصلة بأول مرتبة الإنسانية، وآخر مرتبة الإنسانية متصلة بأول مرتبة الملائكة الذين هم سكان الهواء والأفلاك وأطباق السموات، وأن نفوس بعض الحيوانات ملائكة ساجدة لنفس الإنسان التي هي خليفة الله في أرضه، ونفوس بعضها راكعة له، ونفوس بعض الحيوان شياطين عصاة مغلغلة في جهنم عالم الكون والفساد، وأن الإنسان إذا كان خيّراً عاقلاً فهو ملكٌ كريم خير البرية، وإذا كان شريراً فهو شيطان رجيم شرّ البرية.

التاسعة منها رسالة في «تركيب الجسد» والبيان بأنه عالم صغير وأن بنية هيكله تشبه مدينة فاضلة، وأن نفسه تشبه ملكاً في تلك المدينة. والغرض منها هو معرفة

---

١ اللحاء: قشر الشجر.

الإنسان جسده وبنيته المهيّأة له، وان انتصاب القامة أجلُّ أشكال الحيوانات، وأن بنية جسد الإنسان مختصر من العالم الذي هو في اللوح المحفوظ، وأنه الصراطُ الممدود بين الجنة والنار، وأنه ميزان القسط الذي وضعه الله بين خلقه، وأنه الكتاب الذي كتبه الله بيده، وصنعته الذي صنع الله بنفسه، وكلمته الذي أبدع الله بذاته؛ وأن نفس الإنسانية هي خليفة الله في أرضه حاكماً بين خلقه، سائساً لبريته، مستعملاً لعالمه السفلي مدّة من الزمان، فإذا انتقل صار زينة لعالمه العلويّ، وحافظاً لذاته الوجوديّ على الأبد، وأن الإنسان إذا عرف نفسه المستخلَف عرف ربه الذي استخلفه وأمكنه الوصول إليه والزُّلفى لديه، فائزاً بنعيم الأبد والدوام السرمد.

العاشرة منها رسالة في «الحاسّ والمحسوس» والغرض منها هو البيان عن كيفية إدراك الحواس محسوساتها، واتصالها بواسطة القوة الحاسة، واتصالها إلى الحاسة المشتركة الروحانية الواصلة، التي منها انبعثت قوى الحواس الظاهرة، وانها ترد كالخطوط الخارجة من المركز إلى المحيط، بنقط كثيرة، الراجعة إليه بنقطة واحدة، وهو أول منازل الروحانية إذ القوة الحاسة المؤدّية إليه جسمانيٌّ بوجه وروحانيٌّ بوجه، والحاسة المشتركة، أعني الداخلة، روحانية محضة، لأن حكم الجزء منها حكم الكلّ، وإن كانت التجزئة لا تقع عليه بالحقيقة لأن تصورها الشيء بإدراكها واتصالها إلى القوة المتخيلة التي مجراها مقدَّمُ الدماغ لتوصلها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسطُ الدماغ، لتميزها وتخلصها بجولانها فيها، وتعرفَ حقائقها، ثم توصلَها إلى القوة الحافظة الذاكرة التي مجراها مؤخَّر الدماغ، لتمسكها وتحفظها معتقدة أو غير معتقدة إلى وقت التذكار، ثم تؤديها إلى القوة الناطقة العاقلة التي هي ذاتُ الانسان المدبرة للكل، الباقيةُ بالذات، تنتزع جميع المعاني والصور، ثم تصور تلك المعاني والصور المنتزعة من مصوراتها المرتسمة فيها، وهي القوة الناطقة أيضاً بوساطة الأولى، فتلك الصورة هي لها كالموضوع وكالهيولى. والقوة المعتبَرة أيضاً للنطق الخارج هي القوة الناطقة أيضاً على وجه ثالث بواسطة الألسن، فإذا همت الأولى بإظهار شيء إلى خارج وهو النطق الإلهي على الحقيقة، من صورة النفس، تصورت النفس الثانية، إذ هما جوهر واحد لتجردهما عن المواد، وتعريهما عن الهيولى أعني الجسمانية، فتأدّت إلى

القوة الناطقة التي مجراها على اللسان، لتعبر عنها بالألفاظ الدالّة للمخاطبين على المعاني التي تخرج من النفس إلى القوة الصانعة، التي مجراها اليدان، لتخط بالأقلام على أوجه الألواح وصفحات الدفاتر وبطون الطوامير[1] تلك الالفاظ وهي النطق الخارج والكلام الظاهر لتبقى العلومُ بصورها الذاتية أعني معانيها محفوظةً من الأوّلين إلى الآخرين، وخطاباً من الحاضرين للغائبين إلى يومَ يُبعثون.

الحادية عشرة منها رسالة في «مسقط النُطفة» وكيفية رباط النفس بها، أعني الهيولانية، عند تقلب حالاتها شهراً بعد شهر، وتأثيرات أفعال روحانيات الكواكب في أحكام بِنية الجسد من المِزاج والتركيب أربعة أشهر قدر مسير الشمس ثُلث الفلك، واستيفائها طبائع البروج من النارية والترابية والهوائية والمائية؛ ثم كيفية تأثيراتها وأفعالها في أحكام النفس أربعة أشهرٍ أخر وما ينطبع فيها من التهيؤ والاستعداد التي هي صورة الأولى بالقوة لتصير صورة بالفعل عند التهيؤ لقَبول الأخلاق والأعمال والعلوم والآداب والحِكَم والآراء في مُقبَل الزمان ومستقبل العمر، بعد الولادة في الشهر التاسع، عند دخول الشمس من بيت[2] التاسع، من موضعها، يوم مسقط النطفة بيت الحركة والسفر والنُقْلة والتصور والعلم والفطنة. والغرض منها هو الإخبار عن حال الأنفُس البسيطة قبل تشخُّصها واتصالها بالاجسام الجزئية المحصورة المحدودة المحسوسة بوساطة الألوان والأشكال والأعراض الأُخر؛ وان المكثَ في الرحم هذه المدة لتتميم البنية وتكميل الصورة، وهو الكمال الأول لاستكمال الآلة وإعدادها الأدوات ولاستتمام رباط النفس بالهيكل، واتحاد بقواه، وانبساطها في البنية، وتمكُّنها من الجملة.

الرسالة الثانية عشرة منها في معنى قول الحكماء: «إن الإنسان عالَمٌ صغير»، وهو معنى العالم الكبير المؤدّي عن جلته والمخصوص بثمرته، وان صورة هيكله مماثلة لصورة العالم الكبير الجسماني؛ وان أحوال نفسه وسريان قواها في بنية هيكله وحقيقة

---

١ الطوامير: الصحائف.

٢ البيت: قسم من منطقة البروج.

جوهره مماثلة لأحوال الخلائق الروحانيين من الملائكة والجن والشياطين، وأرواح الحيوانات أجمعين. فإن الانسان مختَصَرٌ من العالَمَين الروحاني والجسماني جميعاً، مهيأ مجبولٌ من سُوس، هو في الحقيقة خلاصة هذا العالم وثمرته وزبدته، وكدر ذلك العالم وثُفالته[1]، وأن يكون جوهر آخر المعاني الجسمانية، وأول المعاني الروحانية، فهو كالحد المتاخم لكل العالَمَين، وكالأصل الصالح لمجموع الكَمَالَين، وكالجوهر الذي هو بإنيّته[2] معقول، وكيفيته محسوس، وكالشيء الذي بذاته حياة من وجه وذو حياة من وجه، كالذات القائم بنفسه من جهة، والقائم بغيره من جهة، وكالمعنى المشير بمضمون فحواه، ويُفطَن، بمفهومه، لما سواه؛ ومن وجه آخر كالفرخ المتفقّىء عنه البيضة الذي هو له كمال من وجه ومنتهى للكمال من و جه آخر، فهو اللازم للوكر ما دام طائراً بالقوة، فاذا استكمل طار فصار طائراً بالفعل؛ وكالزاوية التي يوجد ذاتها متوسطة بين المتجزىء وغير المتجزىء، ثم النقطة جامعة لحاليها أعني البسيط والمركب، وكالنبوة التي هي ممتدة إلى الروحانيين بخط، وإلى الجسمانيين بخط، ثم الوحيُ جامع بين طرفيها، والإلهام حاوٍ لحدّيها، وكنهاية المحيط التي هي السطح لذي مكان وليس له مكان. والغرض من هذه الرسالة هو الإخبار عن حال الأنفس البسيطة قبل تشخيصها واتصالها بالأجسام الجزئية والأشخاص الحسية، وعلة اتصالها مدة، وحال مفارقتها عند بلوغ نهايتها؛ وكيف يعرف الإنسان هويته وإنيّته وكيفية نفسه وحقيقة ذاته، وأنه مجموع فيه معاني الموجودات كلها، فهو كالكل، ومحيط بالجميع، فينتبه كذلك، ويتأمل الصواب والفرصة مدة حياته، فيقصِده[3] ويقتنيه ويحتويه، إذ لذلك أنشأه منشيه فيعيده ويبديه ويديمه ويبقيه، وهو يبليه ويشفيه ويهديه لينجّيه فيفوز بالبقاء والنعيم المقيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الرسالة الثالثة عشرة منها في « كيفية نشر الأنفس الجزئية في الأجساد البشريـة

---

١ الثفالة: الحثارة، وهي ما رسب تحت الشيء من كدورته كحثارة الزيت والمرق وما أشبه. ولم نجد الثفالة في المعاجم التي بين أيدينا، وإنما وجدنا الثفل. فاستعملها هنا على قياس الحثارة.

٢ الإنية: تحقق الوجود العيني من حيث رتبته الذاتية.

٣ يقصده: أي يقصد الصواب.

والأجسام الطبيعية »، والغرض منها البيان عن كيفية بلوغ الإنسان بدوام انتقاله، وتغير أحواله، وآخر معاده ومآله، وكيف يصير إلى رتبه الملائكة ومنازل الروحانيين، دار القرار ومحل الأخبار، عند خلع المادة، وبلوغ الإرادة، ونهاية السعادة، إلى حلوله بعد الموت أو قبله بوجوده الصُّوري، وجوهره النُّوري.

الرسالة الرابعة عشرة منها في « بيان طاقة الإنسان في المعارف » إلى أي حدّ هو، ومبلغه في العلوم إلى أي غاية ينتهي، وأي شرف منها يرتقي. والغرض منها هو التنبيه على معرفة الله، جل جلاله، والقصد نحوه واستنجاز لقائه، والوقوف بين يديه، والرجوع بالكلية إليه، كما كان منه المبدأ وإليه المعاد والمنتهى.

الرسالة الخامسة عشرة منها في « ماهيّة الموت والحياة » وما الحكمة في وجودها في الدنيا عالم الكون والفسادة وما حقيقة المعاد. والغرض منها هو البيان عن علة رباط الأنفس الناطقة بالأجساد البشرية، واتصالها بالأشخاص الجزئية إلى وقت الموت، وكيفية التأهب والاستعداد قبل الفوت، والاستعجال ما دام الخلاص ممكناً والنجاة معرضة، والأجسام موجودة والآلة متمكنة، والاستهانة بالموت والتجافي عنه، وإزالة الخوف منه ببقاء النفس بعد الموت الذي هو مفارقتها الجسد، وترك استعمالها إياه، واستراحتُها من أذاه، ووصولها إلى عالمها، ووجودها مُناها، وبلوغُها منتهاها، وأنه لا سبيل لها إلى البقاء السرمدي الذي لا يتغير ولا يزول إلا بمفارقة الجسد المستحيل الذي هو سبب الانتقال والزوال والتغير من حال إلى حال.

الرسالة السادسة عشرة منها في « ماهية اللذات والآلام الجسمانية والروحانية » وعلّة كراهية الحيوانات الموت وكيفية أسباب الآلام واللذة التي تنال النفوسُ بسبب الأجسام، وكيف تنال بمجردها إذا فارقت الجسد، وكيف يكون انفرادها بذاتها، وتجردها بنفسها خلواً منها[1]، وانتهاؤها إلى الفَردانية واتحادها بالجواهر الصورانية والذوات الروحانية، وكيف تكون لذّات أهل الجنان وآلام أهل النيران. والغرض منها هو التصور أن عذاب أهل جهنم كيف يكون مع الجن والشياطين المغلّلة المقيدة

١ خلواً منها: أي انفراداً منها بذاتها.

المنكوسة المعكوسة، وان نعيم أهل الجنان كيف يكون مع الملائكة والروحانيين مسرورين، فيها مخلدين، لا يمسهم فيها نَصَب ولا عناء يتبوّأون من الجنة حيث يشاؤون؛ وان جهنم عالم الكون والفساد يصلاها من شقي بسوء المنقلب والمعاد؛ وان الجنان في أعالي عالم الافلاك وسعة السموات سعد بها من فاز بعد المات بذخائر الخيرات والباقيات الصالحات.

الرسالة السابعة عشرة منها في «علل اختلاف اللغات» ورسوم الخطوط والعبارات، وكيفية مبادىء المذاهب والديانات والآراء والاعتقادات، وأول نشوئها، وابتداؤها ونماؤها وتزايدها حالاً بعد حال، وقرناً بعد قرن، وكيفية انتقالها من قوم إلى قوم، وسبب تغييراتها والزيادة فيها والنقصان منها. والغرض منها هو التنبيه على ان أفعال النفس إنما تقع بحسب ما في طبعها وغريزتها، وان قوة البحث عن الخفيات موجودة في جوهريته، أي بضمير التذكير اعتباراً للانسان، أي في جوهرية النفس، كالمادة، والعلم صورة لتلك المادة، فهي علاّمة بالقوة، والعلم صورة قائمة فيها، وإن في قوتها أن تعلم الأشياء المحسوسة والمعقولة من أصناف العلوم في الأعلى والأسفل والأدقّ والأجلّ منها، بقوة النطق؛ ولذلك يسنح لذاته سوانح ويخطر بباله خواطر فيُعمل فيها فكره، فيستخرجُ بعلمه آراء ويستنبط بذهنه مذاهب، ثم يعبّر عن تلك الثورة المتخيلة في ضميره بألفاظ مؤدية عنها، ثم يقيّد تلك الألفاظ برسوم من الكتابة دالّة على تلك الألفاظ دلالة الألفاظ على تلك الخواطر، ودلالة الخواطر على أعيان الأشياء وحقائقها ومعانيها. وانما يتعاطون ذلك على حسب مناسبات من الطباع واتفاقات تقع في الأوقات والبقاع والمنشإ والمولد والمخالطات بأقوام أصدقاء وأقارب ومعارف؛ والإصغاء إليهم والأخذ عنه والتخلّق بأخلاقهم، فبحسب هذه الاتفاقات يقعُ إيثارُ الانسان الشيء على غيره من الآراء والمذاهب، والمطالب والاعتقادات والنّحل والصناعات والمكاسب، لأن كل انسان وان كان في ظاهر أمره متمكناً من اختيار ما يقتنيه من المذاهب والآراء فبينه وبين كل واحد منها مناسبات جبلّيّة[1]

---

١ جبلية: طبيعية.

باطنة، وعادات ألفيّة ظاهرة، تجذبها إليه وتحبّبها عنده وتحرضه عليها وتدعوه إليها، وبحسب انجذابه في طبعه وميله وألفه، يكون تبرّزه فيها ومهارته بها، ولذلك برّز أحدهم في شيء وتخلّف آخر، واجتهادهما واحد. وربما اتفق واحد منهم أن يسمع كلاماً أو يرى أمراً فيرضاه لنفسه، ويميل إليه بطبعه، ويقتنيه، ويدخل في جملة أهله، فيتأكد ألفته وأنسه به على مرور الزمان، فإذا قوي الألفُ واستمرت العادة، وسكنت نفسه إليه، وتمكن من قلبه، لشدّة صحبته له ومعرفته به، وفرط ميله إليه، آثره على غيره حتى يصير في آخر الأمر إلفاً لما يختاره منه، ومعانداً لما سواه، ويرى له الفضل على غيره من المذاهب الحقيقية، والآراء العقلية، وان كان مفضولاً؛ ويحكم له بالشرف والعلوّ، وان كان مشروفاً. فبحسب ذلك تكثرُ الاختلافات وتتباين المذاهب والديانات، والحق فيهم مع الأنذر الأقلّ والآخر لاحق بالأول.

ومنها الرسائل النفسانية العقلية، تشتمل على عشر رسائل:

الرسالة الأولى منها في «المبادىء العقلية» على رأي الفيثاغوريين، والغرض منها أن الباري جل جلاله لما أبدع الموجودات في المبدَع الأول وهو العقل، واخترع المخترَعات بوساطته في النفس، وخلّقها مقدَّرة في الطباع، وكوّنها بحسب الامهات والموالد، ورتبها ونظمها كمراتب الأعداد من الواحد الذي قبل الاثنين، والاثنين قبل الثلاثة، وكذلك ما بعده؛ وجعل لكل جنس منها حدّاً مخصوصاً، ونهاية معلومة، مطابقة بعضها لبعض، فاعلة ومنفعلة، هيولى وصورة، نوعاً وجنساً، إذ رأى ذلك أحكم وأتقن وأكمل وأهدى إليه وأبين.

الرسالة الثانية منها في «المبادى العقلية» على رأي إخوان الصفا وخُلّان الوفا، والغرض منها هو البحث عن علة الأشياء والأخبار وأسباب الكائنات الكليات والجزئيات عن الباري، جل وعز، كتركيب العدد الصحيح عن الواحد قبل الاثنين.

الرسالة الثالثة منها في معنى قول الحكماء «إن العالم إنسان كبير» ذو نفس وروح حي عالم طائع لباريه، خلقه ربه، جل ثناؤه، يوم خلقه، تامّاً كاملاً، وان كل

الخلائق داخلون فيه وهو جملتهم، وليس خارج العالم شيء آخر لا خَلاء[1] ولا مَلاء[2]؛ وليس العالم في مكان وكلُّ ما فيه في مكانٍ موكَّلٌ كلٌّ واحد من أهل العالم بما يتأتى منه، ويقدَّر عليه، يفعلون ما يؤمرون، وكلٌّ في فلك يسبَحون، يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون، كما قال تعالى «وما منّا إلا له مقامٌ معلوم، وإنّا لنحن الصافون، وإنّا لنحن المسبحون».

الرسالة الرابعة منها في «العقل والمعقول» وما العقل الهيولاني، وما العقل بالقوة، وما العقل بالفعل، وما العقل المستفاد، وما العقل الفعَّال. والغرض منها هو تعريف ذات الانسان، وصورة الصور، وما جوهر النفس بحقيقتها، والإشارة إلى الباقي فيها، وكيف اجتماع صور المعلومات فيها على تباينها وتغايرها، وكيف تَصوُّرها الموجوداتِ المنتزعة من المواد، وكيف تصير أحد موجودات العالم، بعد أن لم يكن شيء من الموجودات إلا بالقوة، وكيف خروجه بالصورة من العدم إلى الوجود، وكيف يحصل عقلاً بالفعل، وعاقلاً بالفعل ومعقولاً بالفعل، والوجود الصوري مجرَّداً من سائر المواد معرَّاةً من الهيولات، فتبقى ببقاء العقل الفعال، وجهِ الله ذي الجلال والإكرام، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجَعون.

الرسالة الخامسة منها في «الأكوار[3] والأدوار واختلاف القرون والأعصار والزمان والدهور»، والغرض منها هو البيان عن كيفية إنشاء العالم ومبدئه وترتيبه وظهوره وغايته وكيفية فنائه وخرابه، لو انقطعت مواد بقائه عن مبقيه لينعدم في الحال ويضمحل بالازمان، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب.

الرسالة السادسة منها في «ماهية العشق» ومحبة النفوس ونزوعها وتشوقها إلى

---

١ الخلاء: امتداد موهوم صالح لأن يشغله الجسم ويسمى أيضاً الفراغ الموهوم، أو هو البعد المجرد الموجود في الخارج القائم بنفسه.

٢ الملاء: الجسم في اصطلاح الحكماء، لأنه يملأ المكان، ومدّ هنا كالخلاء للازدواج.

٣ الأكوار: الطبائع.

الاتحاد ، والفرض الإلهي وما حقيقته ، ومن أين مبدأه. والغرض منها هو البيان بأن السابق المشوق إليه المعشوق المطاع المراد المطلوب المحبوب على الحقيقة هو الباري جلَّ ثناؤه، وأن الخلائق وجلة العالم مشتاقة إليه مريدة متحركة نحو الكمال باستتام الصورية ، وعاشقة إلى مصورها الذي هو فوق الصور والكمال التام ، وهو الباري المصور ، له الأسماء الحسنى والأمثال العلى.

الرسالة السابعة منها في « ماهية البعث والصُّوْر والنُّشور والقيامة والحساب وكيفية المِعراج » وعلمها هو الغرض الأقصى من رسائلنا كلها ، وإليه المنتهى ، وهو الغاية القصوى ، وإليه أشار بقوله « تَعرُجُ الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

الرسالة الثامنة منها في « كمية أجناس الحركات ، وكيفية اختلافها ومباديها وغاياتها » ، والغرض منها هو البيان عن كيفية وجود العالم عن الباري ، جلَّ جلاله ، وكيف حركة الطبائع إلى استكمالها ، وقبول صورها الخاصيَّة في كل واحد منها وكيفية سكونها عند استكمال كل واحد منها لصورته الخاصية ، إذ بالصورة يصير الشيء هو ما هو ، وبه يحصل في الوجود ، ويتميز ويتحيز ، ويصير شيئاً معلوماً مشاراً إليه .

الرسالة التاسعة منها في « العلل والمعلولات » وكيف رجوع أواخرها على أوائلها ، وأوائلها على أواخرها ، والغرض المقصود منها هو معرفة أصول العلوم ومباديها وأسبابها وقوانينها ورسومها وكيفياتها على الحقيقة .

الرسالة العاشرة منها في « الحدود والرسوم » ، والغرض منها هو معرفة حقائق الأشياء وماهياتها وأجناسها وأنواعها المركبة والبسيطة بما هي كلٌّ واحد منها ، وبمعرفتها الوقوفُ على ذوات الأشياء وكيفياتها وفصولها .

ومنها الرسائل الناموسية الإلٰهية والشرعية الدينية وهي تشتمل على إحدى عشرة رسالة:

الرسالة الأولى منها في «الآراء والمذاهب» في الديانـات الشرعيـة النـامـوسيـة والفلسفية، وبيان اختلاف العلماء في أقاويلهم، وما أدى إليه اجتهادُهم من البحث والنظر والكشف عن الحقائق والأصول، وكمية تلك المقالات، وما الأسباب والعلل التي من أجلها كان اختلافهم ومَن الـمُحِقُّ ومن الـمُبطِل، وما يصلح للجميع، وما يصلح للخاص، وما يصلح للعام. والغرض من هذه كلها هو البيان بأن المذاهب والديانات كلها وُضعت كالعقاقير والأدوية والأشربة لمرض النفوس وكسب الصحة ولطف الحيل لخلاصها من بحر الهيولى وأسر الطبيعة؛ ووصفُ طريق الآخرة وكيفية النجاة في المعاد من جهنم عالم الكون والفساد، والوصول إلى الجنان والفردوس عالم الأفلاك والسبع السمَوات؛ وان أكثر هذه الديانات لأقوام قد انحرفوا عن طريق النجاة، وبعُدوا عن انتهاج سبيل الرشاد، فاستولى عليهم الميل والعصبيّة، والحميّة الجاهليّة، نار الله الموقدة التي تطّلع على الأفئدة، فضلّوا ضلالاً بعيداً، وما الله بظلاّم للعبيد.

الرسالة الثانية منها في «ماهية الطريق إلى الله عز وجل وكيفية الوصول إليـه». والغرض منها هو الحثّ على تهذيب النفس، وإصلاح الأخلاق، وتطهير السرائر، وتنزيه الضمائر، وتنبيه النفوس الساهية، عمَّا بعد الموت في المعاد من أحوال القيامة والبعـث والنشر والحسـاب والميـزان والصراط والجواز على جهنم، والورود فيهـا، وحقائق معانيها. «وإنْ منكم إلا واردُها كان على ربك حتماً مقضيًّا. ثم نُنَجّي الذين اتقوا ونَذَر الظالمين فيها جِثياً».

الرسالة الثالثة منها في «بيان اعتقاد إخوان الصفـا وخلان الوفـا» ومـذاهـب الربانيين الإلهيين. والغرض منها هو وضوح الحجة على بقاء النفوس بعد مفارقتها الجسد الذي يسمى الموت، وحلُّ الشكوك فيها، وكشف الشُبَه بطريق إقناعي لا برهانيّ، إذ الرسالة الجامعة مقصورة على البراهين، على ما أشرنا إليه في رسائلنا التي هي كالمدخل إليه والعنوان له.

الرسالة الرابعة منها في «كيفية عِشرة إخوان الصفـا وخلاّن الوفـا» وتعـاون

بعضهم لبعض بصدق المودة وصحة المحبة، ومحض الرأفة والشفقة والتحنن والرحمة، وسيرهم في صلواتهم ومذاكرتهم ومجالستهم واجتماعاتهم. والغرض منها تأليف القلوب والتعاضد في الدين والدنيا جميعاً، إذ هي سبب نجاتهم والمؤدّية إلى خلاصهم.

الرسالة الخامسة منها في «ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحقّين»، والغرض منها هو معرفة الجلالة الروحانية وما الإلهام وما الوسوسةُ وما التوفيقُ وما الخذلان وما الهداية وما الضلالة، إذ كان هذا البابُ علماً غامضاً وسرّاً خفيّاً من العلوم الروحانية والأسرار النفسانية.

الرسالة السادسة منها في «ماهية الناموس الالهي والوضع الشرعي» وشرائط النبوّة وكمية خصالهم[1]، ومذاهب الربّانيين والإلهيّين. والغرض منها هو التنبيه على أسرار الكتب النبوية، ومرامي مرموزاتهم المقصودة، وأوضاعهم الناموسية الالهيّة والتهدّي إليها، وكيفية الكشف لها، من المهدي المنتظر والبَرَقْليط الأكبر.

الرسالة السابعة منها في «كيفية الدعوة إلى الله عزّ وجل» بصفوة الأُخوّة وصدق الوفاء، ومحض المودة، وخطاب طبقات المدعوّين، ومنازل المستجيبين إلى ذلك. والغرض منها هو البيان بأن دولة أهل الخير تبتدىء أولها من قوم أخيار فُضَلاء أبرار يجتمعون ويتفقون على رأي واحد، ومذهب واحد، وسُنّة رضيَّة، وسيرة عادلة من غير تخاذل ولا تقاعُد.

الرسالة الثامنة منها في «كيفية أفعال الروحانيّين والجن والملائكة المقرّبين والمرّدة والشياطين»، والغرض منها هو البيان أن في العالم فاعِلِين نفسانيّين روحانيين غير جسمانيين، لا يتمانعون ولا يتزاحمون ولا يتضايق بهم المكان ولا يحويهمُ الزمان، ولا يتحصّلون بمشاعر الحواس ومدارك العيان، ذواتهم حيث أفعالهم، وصورهم معروفة بآثارهم.

الرسالة التاسعة منها في «كمية أنواع السياسات» وكيفيتها ومراتب المسوسين

---

١ خصالهم: أي خصال الأنبياء.

وصفات المدبرين لها في العالم. والغرض منها هو البيان بأن مدبر الجميع وسائس الكل الحكيم الأول الباري المصور جل جلاله، وان من كان أحسن سياسة وأحسن تدبيراً كان عند الله أعظم منزلة، ولديه أقرب زلفة؛ ومن كان بقدرة الله أبصر، وبحكمته أعرف، كان بسياسة خُلقه أعلمَ، ومن كان لها أعلم فسياسته أحسنُ وأعدلُ، ومن كان كذلك، فإليه أقرب ولديه أوجَه.

الرسالة العاشرة منها في «كيفية نضد العالم بأسره» وفي مراتب الموجودات، ونظام الكائنات، وان آخرها منعطف على أولها من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض؛ وانها كلها عالم واحد كمدينة واحدة، وكحيوان واحد، وكإنسان واحد. والغرض منها هو الوقوف على معرفة الحقائق ومباديها وتواليها وسوابقها ولواحقها، علماً يقيناً وبياناً شافياً مقنعاً كافياً، بلا شك ولا شبهة ولا ريب ولا مِرية، وان مبدأها كلها صادرة عن فعل الله عز وجل وحده الذي هو الإبداع المحض، لا من موجود هو أولها بالوجود والوحدة وأقدمها فيه، وهو البديء[1] الذي أبرز الله فيه سائر الموجودات، تنبعث منه القوى متكثرة نحو غايتها المختلفة، وإليها تتصاعد متّحدة، وان إلى ربك المنتهى والى الله تُرجَع الأمور؛ وجعله السبب الأول الذي به يتعلق ما سواه من سائر الموجودات، تعلُّق المعلول بالعلّة مرتبطاً بعضُها ببعض فاعلة ومُنفعلة، مُنتقلاً من رتبة الدنيا إلى رتبة القُصوى، ارتباطَ معلولٍ بعلة على حسب بواديها وتواليها، إلى أن تتلاحق بأجمعها وتتوارد بأسرها إليه، فيكون هو علة العلل ومبدأ المبادىء الفائضة بما أفاض اليه الباري، جل جلاله، على ما دونها بخيرها ووجودها، يقبل كل ذات من الذوات بقدر ما يحتمله منها من الوجود اللائق به في الدوام والبقاء، نورُ الله وعنايته ورحمته وكلمته، به الله يهدي من يشاء ويثيب، وإليه يَرجع من ينيب.

الرسالة الحادية عشرة منها في «ماهية السحر والعزائم» وماهية العين والزجر والفال والوهم والرُّقى وكيفية أعمال الطلّسمات الباقية، وما عمارة الأرض، وما الجن

---

[1] البديء: المخلوق والأمر المبدَع.

وما الشياطين وما الملائكة المقربون والروحانيون، وكيف تأثيرات بعضهم في بعض. والغرض منها هو البيان بأن في العالم فاعلين غير مرئيّين ولا محسوسين يسمَّون روحانيين، أفعالهم ظاهرة، وذواتهم باطنة، منها ما تظهر أفعاله بوساطة الطبيعة، ومنها بوساطة النفس، ومنها بوساطة العقل، وهو أجلّ منازل المخلوقين وأعلى رتبة الروحانيين، لأن الباري، جل ثناؤه، جعل العقل سابقاً، والنفس لاحقاً، والطبيعة سائقاً، والهيولى شائقاً، والعَدم ماحقاً. والعقلُ هو البديء الأولُ والموجودُ الأولُ، عن مُوجِده بُدِيء وبه يَبقى. ولذلك صار ممتدَّ الوجود بوجوده، مُستكمِل الفضائل والخيرات، تامّ الأنوار والبركات، معرًّى من الشوائب والتغييرات، مبرأً من النقص الواقع من جهة الـهَيوليّات، يرتب كلَّ موجود مرتبة، وينزله منزلة، ويوفّيه قِسطه في لزوم النِّظام والبلوغ إلى التمام، ولذلك جعل له القوة الحافظة على سائر الموجودات ووجوداتها العاقلة، لهم ذواتها الخاصة بواحد واحد منها، يستحقها أو يليق بها، فلذلك يُشار إلى ذلك باسم الفعل الصادر عنها، إذ فعله ذاتُه، وصورتُه تأثيراته. فهذا هو السابق البادي، ثم يليه اللاحِقُ التالي، وهو القوة المُخترعةُ بوساطتِه المبدعة بها الذواتُ من سائر الموجودات، أفضَل أحوالها في الوجود الذي هو الحياة؛ وهي النفسُ التي بها أعطى الأجسامَ أفضل صُورِها وأتمّ وجودها. ولما تصوَّرت الأجسامُ بها وانطبعت فيها، حصّلت لها بها قوةٌ تتعلّق بها الأجسام على قدر اختلافها، فحصل صورة كل واحد منها، مخالفة لصورة الآخر، وهو الطبيعةُ الباقية في الأجسام، يحصُل بها التخلّقُ والتصوّر والتشكّل بالصورة الخاصة لواحد واحد منها، وهي قوةٌ وضعها الباري، جل جلاله، في الجسم وعلّق قِوامه بوجودها فيه، وصيّره بخاصتها للتحرُّك به إلى تمامٍ مُعَدّ له وغاية، قُدّر لبلوغه إليه، ووقوفِه عنده، إلاّ ان يعوقه عائِقٌ من خارج فيمتنع من حركته إلى أن ينقطع ذلك، فيعود إلى حركته الخاصيّة. ثم الـهَيولى الأولى التي هي ذاتٌ بالقوة لا موجود بالفعل، يخرجُ إلى الوجود بالفِعل بقبول الصورة التي بها يصيرُ الشيء هو ما هو، ويفارقه كون العدم، والعدم هو لا موجودٌ بالفعل، ولا موجودٌ بالذات، موجودٌ بالعَرض، فسبحان خالق الوجود والعَدمِ، وباسط الأنوار والظُّلَم، موجدِ وجـود كـل مـوجـود فينعـدمُ، ومُعيـدِه

فينصرم، ومُنشئِه فيبلى، ومُبقيه ليبقى، منه المبدأ وإليه المنتهى.

تمّ الكلام على الرسائل.

وتليها «الرسالة الجامعة لما في هذه الرسائل المتقدمة كلها، المشتملة على حقائقها بأسرها». والغرض منها إيضاح حقائق ما أشرنا إليه ونبهنا في هذه الرسائل عليه، أشد الإيضاح والبيان، يأتي على ما فيها فيتبين حقائقها ومعانيها ملخصة مستوفاة مهذبة مستقصاة ببراهين هندسية يقينية، ودلائل فلسفية حقيقة، وبيّنات علمية، وحجج عقلية، وقضايا منطقية، وشواهد قياسية، وطرق إقناعية، لا يقف على كنهها ولا يحيط بحقائقها، ولا يحصلها ولا شيئاً منها إلا من ارتاض بما قدمنا، وحذق وعرف وتدرب فيها وتمهّر أو بما يشاكله، إذ هذه الرسائل كلها كالمقدمات لها والمداخل إليها والأدلة عليها والأنموذج منها، لا ينفتح غلق معتاصها، ولا ينكشف مستور غامضها إلا لمن تهذب بهذه الرسائل الاثنتين والخمسين أو بما شاكلها من الكتب. والرسالة الجامعة من رسائلنا هي منتهى الغرض لما قدمناه، وأقصى المدى ونهاية القصد، وغاية المراد، ولله الحمد والمنة، وله الحول والقوة.

هذه فِهْرَسْت رسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا وأهل العدل وابناء الحمد، وهي اثنتان وخمسون رسالة، ورسالة، في تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن مَثَلَ صاحب هذه الرسائل مع طالبي العلم ومؤثري الحكمة ومن أحب خلاصه، واختار نجاته، كمثل رجل حكيم جواد كريم، له بستان خَضِرٌ نضرٌ بهجٌ مونِقٌ معجبٌ طيب الثمرات، لذيذ الفواكه، عطر الرياحين، أرِجة الأوراد، فائحة الأزهار، بهية المنظر، نزهة المرامي، مختلفة الأشكال والأصباغ، والألوان والمذاق والمشامّ، من بين رطب ويابس وحلو وحامض، وفيها من سائر الطيور المطربة الأصوات، الملهية الألحان، المستحسنة التغريد، تطّرد تحت أشجارها أنهار جارية، وخلال أزهارها وخضرها جداول منسابة تموج، وفي حافات الأنهار خضر مونقة، وأصداف مشرقة الألوان، وجواهر متناسبة الأصباغ، رائقة المناظر، عجيبة الصور، بديعة التأليف، غريبة التنضيد، فَرْحةُ كل

نفس، ونزهة كل عين، مَسْلاة كل همّ، مدعاة كل أنس، فأراد لكرم نفسه وسخاء سجيته أن يدخلها كل مستحق، ويتلذذ فيها وبها كل مشرّف عاقل، فنادى في الناس ان هلموا وادخلوا هذا البستان، وكلوا من ثمارها [1] ما اشتهيتم، وشموا من رياحينها ما اخترتم، وتفرجوا كيف شئتم، وتنزهوا أين هويتم، وأفرحوا واطربوا، وكلوا واشربوا، وتلذذوا وتنعموا، واستروِحوا بطيبها وتنسموا بروائحها. فلم يجبه أحد، ولم يصدقه خلق، ولا عبئوا به، ولا التفتوا إليه، استعظاماً لقوله، واستبعاداً لوصفه، واستنكاراً لكلامه، واستغراباً لذكره، فرأى الحكيمُ من الرأي ان وقف على باب البستان، وأخرج مما فيه تُحفاً، وطُرفاً ولُطفاً [2]، من كل ثمرة طيبة، وفاكهة لذيذة، وريحان زكي، وورد جني، ونَور أنيق، وجوهر بهي، وطير غرد، وشراب عذب، فكل من مرّ به عرضها عليه، وشهّاها إليه، وذوّقه منها وحيّاه بها، وأشمه من فوائح الرياحين، وأسمعه من بدائع التلحين، حتى إذا ذاق وشمّ وفرح به، وطرِب منه، وارتاح إليه واهتز، وعلِم أنه قد وقف على جميع ما في البُستان، ومالت إليه نفسه، واشتاق الى دخول البستان وتمنّاه، وقلِق إليه ولم يصبر عنه، فقال له عند ذلك: ادخُل البستان، وكلْ ما شِئت، وشُمّ ما شِئتَ، واختَرْ ما شِئتَ، وانظُرْ كيف شئت، وتنزَّه أين شئت، وجيء من أينَ شِئت، وتلذّذْ وتنعَمْ وتطيَّبْ وتنَسّم!

فهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسائل والرسالة. لا يضيّعها بوضعها في غير أهلها. وبذلها لمن لم يرغب فيها، ولا يَظلِمُها بمنعها عن مستحقّها وصَرفِها عن مستوجِبها، ولا يُعرّفها إلا لكل حُرٍّ، خيِّرٍ سديد، مبصر للقصد، مجلبٍ للرشد، من طالبي العلم ومؤثري الأدب، ومحبّي الحكمِ، وليَتحَرَّز في حفظها وإسرارها وإعلانها وإظهارها كلَّ التحرُّز، ويحرسُها غاية الحراسة، ويَصُنْها أحسنَ الصّيانة، وليكن المؤدِّي فيها حقَّ الأمانة بأن لا يضَعَها إلا في حقِّها، ولا يمنعها من مستحِقّها، فإنها جلاءٌ وشفَاءٌ ونورٌ وضِياءٌ، بل كالداء إن لم تكن دواءٌ، وكالفسادِ إن لم تكن

---

١ وكلوا من ثمارها: على إرادة الجمع، كما في الكلام السابق، أو على تأنيث البستان، لأنه بمعنى الجنة.

٢ اللطف: جمع لطفة، وهي الهدية.

صَلاحاً، وكالهلاك إن لم تكن نجاة، تُداوي وقد تُدْوِي[1] وتُميت وتُحيي، فهي كالتِّرياق الكبير الذي هو في نفسه وحده وتختلف الأحوالُ عنده فيفعلُ الشيء وضِدّه بحسب القَوابِل والمنفعِلات عنه، والحواصِل والمتوالِد منه، بل مثلُها الغِذاء والضياء، فإن بالغذاء القوّة والزيادة، وبالضياء الإبصار والهداية.

فكما أن الصبيّ الصغير والطفل الرضيع السليم من الداء، المستعدّ للزيادة والنماء، يحتاجُ الى حسن التربية، ولطف التغذية، وإطعام ما هو له أوفق وأصلح، وفيه أزكى وأنجعُ، على معرفة ومقدار، ثم التدرُّج بغذائه حالاً بعد حال الى استكمال قوّته، وتمام بنْيَته، لئلا يتغذى بما لا ينجعُ فيه، ولا يستمرئهُ فيُمرضه ويُدويه، بل يهلكه ويرديه، فكان الذي أُعدّ لشفائه وبقائه، هو سبب دائه وفنائه، أو كالعليل المتَلبّس بالداء، البعيد من الشفاء، ان غُذي لا ينتفع بغِذائه، بل يزيد في دائه، وربما كان سبب هلاك نفسه، وانقِضاء عُمره. وأمّا الضياء فإنه لا يَصلُح إلا لمن فتح عينه، وصح نظره، وقوي بصره، ويزيد الجِلاء جِلاءً، والنور قوة وضياء. فأما من لم يفتح عينه، أو كان قريب العهد بالخروج من الظلام، فيضعُف جداً عن مُقابلة ضوء النهار، ونور الشمس، بل يُكسِبه الضياء ظُلمة البصر، حتى ربما صار ضلالاً وعمًى، وكذلك من كان عليل الطرف أرمد العين، ذا عوَرٍ، أو في بصره سوء وقَذًى، فلا يفتح عينه فيبصِرَ، ولا يعاينُ الصُّور فيميز، بل يستريح أبداً الى الظلمات، ويهرُب من الضياء، وكلما زاد الضياء نقصَ إبصاره، وضعف إدراكه، فإن لجَّ أدّاهُ الى الغِشاء والعَماء[2]، وفقدِ النظر وذهاب البصر.

كذلك الواجبُ على من حصلت عنده هذه الرسائل وهذه الرسالة ان يتقي الله تعالى فيها بأن يهتمَّ ويعتني بها غاية العِناية، ولا يُخِلَّ بهذه الوصاية، ويتلطَّفَ في استعمالها وإيصالها، تلطف الأخ الشقيق، والأب الشفيق، والوادّ الصديق، والطبّيب الرفيق، بعد بذل وُسعه، واستفراغ جُهده في توخّي القصد وتحرّي الصواب في بَذله

---

١ تدوي: تمرض.

٢ العماة: السحاب أو المظلم منه.

شيئاً بعد شيء لمن رآه شديد الحاجة اليه، عظيمَ الحرص عليه، كثير الرغبة فيه، بعد أن اختبرهم واستبرأهم[1]، واستكشف حالهم، فمن أنِس منه رُشداً، ورجا فيه خيراً، ممن أقصى مُناه خلاص روحه، ونجاة نفسه، وجعلُ سعيه فيما يرجعُ الى ذاته، وإلى ما هو سبب حياته، يزهَدُ في أعراض الدنيا، ويرغب فيما هو خيرٌ وأبقى، لا يكذب نفسه[2]، ولا يسامحها، بل يَصدُقها صِدقاً، ويجد حزماً، ويعلم حقاً «أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، ثم يُجزاه الجزاء الأوفى، وان الى ربّك المُنتهى». دفعها اليه رسالة رسالة على الولاء شبيه الغذاء والتربية والنماء، وكالدواء للصحة والشّفاء، والكُحل والجِلاء[3] لتقوية البصر والضياء، ما يَقرُب من فهمه، ويليقُ بمحله، من علمه، ويستصلِحه لمثله، قدر ما يغذيه ويربيه ويُصبِحه ويشفيه بل يبصّره ويهديه ويشدّه ويقوّيه أولاً فأولاً، على الترتيب المبيّن في الفهرست، حتى إذا ما تمكنت الحكمة من نفسه، وأنست به، وتصوّرت عنده، واستقرّ في خلده وقوي فيه وتحقق بفكره معانيه، طلب عند ذلك الكلَّ بشدّة حرص وانشراح صدر، وغاية رغبة، وخُلوص نيّة، وقوّة عزيمة، وفضل معرفة، وزيادة يقين، وصحة بصيرة، فحصّلها وعمل بها، واستحقّ بعد النظر فيهن، والوقوف على جُمل معانيهن، النظرَ في الرسالة الجامعة، التي هي نهاية المُراد، ونزهة المُرتاد، والفوز في المعاش والمعاد. لأن بهن التوصّل إليها، وبفهمهن الوقوفَ عليها. فمن وفّقه الله لذلك، ويسّره، فقد هداه من الحيْرة، وأحياه بعد الموت، وأمنّه من الخوف، وأزلفه اليه، وأسبغ جلائل نِعَمه عليه، فيبقى بقاء الأبد، ويدوم دوام السرمَد، في السعادة التامة، والبركات العامة، والنعيم المقيم، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم.

تمت فهرست رسائل إخوان الصفا وخُلان الوفا، وأهل العدل، وأبناء الحمد، وأرباب الحقائق، وأصحاب المعاني، في تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق، للبلوغ

---

١ استبرأهم: طلب آخرهم ليقطع الشبهة عنه.

٢ يكذب نفسه: يحدثها بالأماني البعيدة التي لا يبلغها وسعه ومقدرته.

٣ الجلاء: الكحل: أو كحل خاص.

الى السعادة الكبرى، والجلالة العظمى، وله الحمد وحده، وصلى الله على رسوله سيدِنا محمد وآله الأئمة الطاهرين، وسلّم تسليماً عليهم أجمعين.

* * *

فصل في العلم والمعلوم والتعلُّم والتعليم وأوجه السؤال

وينبغي لطالبي العلم والباحثين عن حقائق الأشياء ان يعرفوا أولاً ما العلمُ وما المعلوم، وعلى كم وجه يكون السؤال، وما جواب كل سؤالٍ، حتى يدروا ما الذي يسألون وما الذي يُجيبون إذا سُئلوا، لأن الذي يسألُ ولا يدري أي شيء سأل، فإذا أُجيب لا يدري بأي شيء أجيب.

واعلم يا أخي بأن العلم إنما هو صورةُ المعلوم في نفس العالم، وضِدُّه الجهل وهو عدَم تلك الصورة من النفس. واعلم بأن أنفُس العلماء علاَّمة بالفعل، وأنفُسَ المتعلمين علاَّمة بالقوَّة، وإن التعلُّم والتعليم ليسا شيئاً سوى إخراج ما في القوّة، يعني الامكان، الى الفعل، يعني الوجود. فإذا نسِب ذلك الى العالِم سمّي تعليماً، وإن نُسِب الى المتعلم سمّي تعلُّماً.

واعلم بأن السؤالات الفلسفيّة تسعةُ أنواع مثلُ تسعة آحاد: أولها، هل هو؟ والثاني، ما هو؟ والثالث، كم هو؟ والرابع، كيف هو؟ والخامس، أيُّ شيء هو؟ والسادس، أين هو؟ والسابع، متى هو؟ والثامن، لِم هو؟ والتاسع، من هو؟ تفسيرها: هل هو: سؤالٌ يبحثُ عن وجدان شيء او عن عَدمِه، والجواب نعم أو لا، وقد بيّنا معنى الوجود والعَدم في رسالة العقل والمعقول، وما هو: سؤالٌ يبحث عن حقيقة الشيء؛ وحقيقة الشيء تُعرَف بالحدّ أو بالرَّسم، وذلك أن الأشياء كلها نوعان، مركَّبٌ وبسيطٌ، فالمركَّبُ مثلُ الجسم، والبسيطُ مثلُ الهيولي والصورةِ، وقد بيّنا معناها في رسالة الهيولي. والأشياء المركّبة تُعرف حقيقتُها إذا عُرفت الأشياء التي هي مُركبّة منها، مِثالُ ذلك إذا قيل: ما حقيقة الطين؟ فيقال: ترابٌ وماء مختلطان؛ وهكذا إذا قيل: ما حقيقة السَّكَنْجَبين؟ فيقال: خلٌّ وعسلٌ ممزوجان. وعلى هذا

القياس كلُّ مركّبٍ إذا سئل عنه، فيحتاج ان يُذكرَ الأشياء التي هو مُركّبٌ منها وموصوفٌ بها؛ والحكماء يسمُّون مثلَ هذا الوصفِ الحدّ، ومن أجل هذا قالوا في حدّ الجسم إنه الشيء الطويل العريضُ العميقُ؛ فقولهم: الشيءُ، إشارة الى الهيولي، وقولهم: الطويلُ والعريضُ والعميقُ، إشارةٌ إلى الصورة، لأن حقيقة الجسم ليست بشيء غير هذه التي ذُكرت في حَدّه. وهكذا قولهم في حَدّ الإنسان إنه حيٌّ ناطق مائت، فقولهم: حيٌّ ناطق، يعنون به النفسَ، ومائتٌ، يَعنون به الجسد، لإن الإنسان هو جُملةٌ مجموعةٌ منها، أعني جسداً جِسمانياً ونفساً روحانية. وعلى هذا القياس تُعرف حقائقُ الأشياء المركّبة من شيء.

وأمّا الأشياء التي ليست مركّبةً من شيء، بل مُخترعةٌ مُبدعةٌ كما شاء باريها وخالِقُها تعالى، فحقيقتُها تعرف من الصّفات المختصة بها، مِثالُ ذلك إذا قيل: ما حقيقةُ الهيولي؟ فيقال: جوهرٌ بسيطٌ قابلٌ للصورة، لا كيفيّة فيه البتّة. وإذا قيل: ما الصورة؟ فيقال: هي التي يكون الشيء بها ما هو. فمثلُ هذا الوصف يسمّيه الحكماء الرَّسمَ. والفرقُ بين الحدّ والرَّسم ان الحدّ مأخوذٌ من الأشياء التي، المحدود مركّبٌ منها، كما بيّنا، والرَّسمُ مأخوذٌ من الصّفات المختصّة بالمرسوم، وفرقٌ آخر ان الحدَّ يُخبِرك عن جوهر الشيء المحدود، ويميّزه عما سواه، والرَّسمُ يميّز لك المرسومَ عمّا سِواه حسْبَ. فينبغي لك ايها الأخ البارّ الرحيم، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، إذا سُئلت عن حقيقة شيء من الأشياء أن لا تَستعجِلَ بالجواب بل تَنظُر هل ذلك الشيء المسؤولُ عنه مُركّبٌ أم بسيطٌ حتى تُجيبَ بحسب ذلك. وأما كم هو فسؤالٌ يبحَث عن مِقدار الشيء. والأشياء ذواتُ المقادير نوعان، مُتصلٌ ومنفصِلٌ؛ فالمتصلٌ خمسة أنواع: الخط والسّطح والجسم والمكان والزمان، والمنفصلُ نوعان، العددُ والحركة. وهذه الأشياء كلها يقال فيها: كم هو؟ وقد بيّنا ماهيّة العدد في رسالة الأرثماطيقي، وماهية الحركة والزمان والمكان والجسم في رسالة الهيولي، وماهيّة الخط والسطح في رسالة الهندسة. وأما كيفَ هو فسؤال يبحث عن صفة الشيء. والصّفات كثيرة الأنواع، وقد بيّناها في رسالة شرح المقُولاتِ العَشْر التي كلُّ واحدةٍ منها جنسُ الأجناس. وأما أيُّ شيء هو فسؤالٌ يَبحثُ عن واحدٍ من الجملة أو عن بعضٍ من

الكُلّ، مثالُ ذلك إذا قيل: طَلَع الكوكب، فيقال: أيُّ كوكبٍ هو؟ لإن الكواكب كثيرةٌ. وأما إذا قيل طَلَعت الشمس، فلا يقال: أيُّ شمس هي؟ إذ ليس من جنسها كثرةٌ، وكذلك القمر. وأما أينَ هو فسؤالٌ يبحث عن مكان الشيء أو عن رُتبته. والفرق بينهما ان المكان صفةٌ لبعض الأجسام لا لكلّها، مثال ذلك إذا قيل: أين زيدٌ؟ فيقال: في البيت او في المسجد أو في السوق أو في موضع آخر. وأما المحلُّ فهو صِفة للعرض، والعرضُ نوعان: جسمانيّ وروحانيّ؛ فالأعراض الجسمانية حالّةٌ في الأجسام، مثالُ ذلك إذا قيل: أينَ السواد؟ فيقال: حالٌّ في الجسم الأسود. وهكذا الألوان كلُّها والطعومُ والروائح حالّةٌ في الأجسام ذات الطَّعْم واللون والرائحة؛ وهكذا حُكم جميع الأعراض الجسمانية.

وأما الأعراضُ الروحانية فحالّةٌ في الجواهر الروحانية، مثال ذلك إذا قيل: أين العلم؟ فيقال: حالٌّ في نفس العالِم؛ وكذلك السخاء والشجاعة والعدل وما شاكلها من الصّفات حالةٌ في النفس، وهكذا حُكم أضدادها. وقد ظن كثير من أهل العلم ممن ليست له خبرة بأمر النفس، ولا معرفة بجوهرها، أن هذه الأعراض حالّةٌ في الجسم، كلٌّ واحدٍ في محلٍ مختصّ، مثالُ ذلك ما قالوا إن العلم في القلب، والشَّهوة في الكَبد، والعقلَ في الدماغ، والشجاعةَ في المرارة، والجُبنَ في الطِّحال، وعلى هذا القياس سائر الأعراض. وقد بيَّنّا نحن ان هذه الأعضاء آلاتٌ وأدواتٌ للنفس تظهرُ بها ومنها في الجسد هذه الأفعالُ والأخلاقُ، في رسالة تركيب الجسد.

وأما الرُّتبة فهي من صفات الجواهر الروحانية، مثالُ ذلك إذا قيل: أين النفس؟ فيقال: هي دون العقل وفوق الطبيعة. وهكذا إذا قيل: أين الخمسة من العدد؟ فيقال: بعد الأربعة وقبل الستة. وعلى هذا القياس حُكم الجواهر الروحانية التي لا توصَف بالمكان ولا بالمحلّ، ولكن بالراتبة كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية.

وأما متى هو فسؤال يبحث عن زمان كون الشيء، والأزمان ثلاثةٌ: ماضٍ مثلُ أمسِ، ومستقبلٌ مثلُ غدٍ، وحاضِرٌ مثلُ اليوم، وهكذا حُكمُ السنين والشهور والساعات. وقد بيّنا ماهية الزمان واختلاف أقاويل العلماء في ماهيّته في رسالة الهَيولي.

واما لِمَ هو فسؤالٌ يبحث عن عِلّة الشيء المعلول.

واعلم يا أخي بأن لكلِّ معلولٍ صِناعيٍّ أربعَ علل، إحداها علّةٌ هَيُولانيّة، والثانية عِلةٌ صُوْرِيّةٌ، والثالثة عِلّةٌ فاعِليّةٌ، والرابعة علّةٌ تمامية، مثالُ ذلك الكُرسيُّ والباب والسرير، فإن العِلّة الهيولانية فيها الخشبُ، والعِلّة الصُّورية الشّكل والتربيعُ، والعِلّة الفاعِليّة النَّجار، والعِلّة التامّيّة للكرسيِّ القُعود عليه، وللسرير النومُ عليه، وللباب ليُغلق على الدار. وعلى هذا القياس كلُّ معلولٍ لا بدَّ له من هذه الأربع العِلل. فإذا سُئلت عن عِلّةِ شيء، فاعرف أولاً عن أيّها تُسأل، حتى يكون الجوابُ بحسب ذلك.

وأما مَن هو فسؤال يبحث عن التعريف للشيء، ويقول علماء النحو: ان هذا السؤال لا يتوجه إلا إلى كل ذي عقل، ويقول قوم آخرون: الى كل ذي علمٍ وتمييزٍ والجوابُ فيه أن يُعرف السؤال بأحدِ الثلاثة أشياء، إما ان يُنسَب إلى بلدِهِ، أو الى أصله، أو الى صناعته، مثالُ ذلك إذا قيل: مَن زيدٌ، فيقال: البَصريُّ، يُنسَب الى بلده، والهاشميُّ الى أصله، والنَّجّار، الى صناعته.

فهذه جملةٌ مختصرة في كميّة السُّؤالات وأجوبتها، ومباحِثَ العلوم والنظر في حقائق الأشياء، شِبهُ المدخَلِ والمقدّمات، ليَقرُبَ من فهم المتعلمين النظر في المنطق الفلسفيّ، وليوقّفوا عليها من قبل النظر في إيساغُوجي[1] الذي هو المدخَلُ الى المنطِق الفلسفي.

فصل في أجناس العلوم

وإذ قد فرغنا من ذكر ماهيّة العلوم وأنواع السُّؤالات، وما يقتضي كلُّ واحد من الأجوبة، فنريد ان نذكر أجناس العلوم، وأنواع تلك الأجناس، ليكون دليلاً لطالبي العلم إلى أغراضهم، وليهتدوا الى مطلوباتهم، لأن رغبة النفوس في العلوم

١ ايساغوجي: هو كتاب الكليّات لفورفوريوس اليوناني.

المختلفة وفنونِ الآداب، كشهوات الأجسامِ للأطعمة المختلفة الطَّعْم واللون والرائحة.

فاعلم يا أخي بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثةُ أجناسٍ، فمنها الرياضيّة، ومنها الشرعيّة الوضعيّة، ومنها الفلسفية الحقيقية. **فالرياضية** هي عِلمُ الآداب التي وُضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا؛ وهي تسعة أنواع، أولها علمُ الكتابة والقراءة، ومنها عِلم اللُّغة والنحو، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها عِلم الشعر والعَروض، ومنها عِلم الزَّجْر والفَألِ[1] وما يشاكله، ومنها علم السحر والعزائم[2] والكيمياء والحِيَل[3] وما شاكلها، ومنها علم الحِرف والصنائع، ومنها علم البيع والشّراء والتجارات والحَرْث والنَّسل، ومنها علم السِّيَر والأخبار.

وأما أنواع **العلوم الشرعيّة** التي وُضعت لطبّ النفس وطلب الآخرة فهي ستة أنواع: أولها علمُ التنزيل، وثانيها علم التأويل، والثالث علم الروايات والأخبار، والرابع علم الفِقْه والسُّنَن والأحكام، والخامس علم التَّذكار والمواعظ والزُّهد والتصوُّف، والسادس علم تأويل المنامات. فعلماء التنزيل هم القراء والحَفَظة، وعلماء التأويل هم الأئمّة وخُلفاء الأنبياء، وعلماء الرّوايات هم أصحاب الحديث، وعلماء الأحكام والسُّنَن هم الفقهاء، وعلماء التذكار والمواعظ هم العُبّاد والزُّهاد والرُّهبان ومن شاكلهم، وعلماء تأويل المنامات هم المُعبِّرون.

وأما **العلوم الفلسفية** فهي أربعة أنواع: منها الرياضيات، ومنها المنطِقيات، ومنها الطبيعيات، ومنها الالهيات. فالرياضيات أربعة أنواع: أولها الارثماطيقي وهو معرفة ماهيّة العدد، وكميّة أنواعه، وخواصّ تلك الأنواع، وكيفيّة نشوئها من الواحد الذي قبل الاثنين، وما يعرِض فيها من المعاني إذا أُضيف بعضُها الى بعض؛ والثاني

---

١ الزجر: ان نزجر للطائر فترميه بحصاة، أو تصيح به، فإن ولاك في طيرانه ميامنه، تفاءلت وإن ولاك مياسره، تطيرت منه. والفأل ضد الطيرة، وربما استعمال في الخير والشر.

٢ العزائم: الرُّقى، أو هي من القرآن تقرأ على ذوي الآفات رجاء البرء.

٣ علم الحيل: علم جرّ الانقال، أو القوى المحركة (ميكانيك).

الجومطريا وهو الهندسة، وهي معرفة ماهية المقادير ذوات الأبعاد، وكميّة أنواعهـا، وخواصّ تلك الأنواع، وما يعرض فيها من المعاني إذا أُضيف بعضُها الى بعض، وكيفيّة مَبدئها من النُّقطة التي هي رأس الخط، وهي في صناعة الهندسة كالواحد في صناعة العدد؛ والثالث الأسطرنوميا وهي النجـوم، وهـي مَعـرفـة كميّـة الأفلاك والكواكب والبروج، وكميّة أبعادها ومقادير أجرامها، وكيفية تركيبها وسُرعة حركاتها، وكيفيّة دورانها، وماهيّة طبائعها، وكيفية دلائلها على الكائنات قبل كونها؛ والرابع الموسيقى الذي هو علم التأليف، وهو معرفة ماهيّة النِّسب، وكيفية تأليف الأشياء المختلفة الجواهر، المتباينةِ الصُّور، المتضادَّةِ القوى، المتنافرة الطبائع كيف تُجمع ويُؤلف بينها، كما لا تَتنافر وتأتلفَ وتتَّحد وتصير شيئاً واحداً، وتفعل فعلاً واحداً أو عدَّة أفعال. وقد عمِلنا في كل صناعةٍ من هذه الصناعات رسالة به المدخل والمقدّمات.

والعلوم المنطِقيّات خمسةُ أنواع: أولها أنولوطيقا[1] وهي مَعرفـة صنـاعـة الشعـر، والثاني رِيطُوريقا وهي معرفة صناعة الخُطَب، والثالث طوبيقا وهي معرفة صناعة الجَدل، والرابع بولوطيقا وهي معرفة صِناعة البرهان[2]، والخامس سُوفسُطِيقا وهي معرفة صِناعة المغالطين في المناظرة والجدل. وقد تكلّم الحكماء الأوّلون والمتأخّرون في هذه الصّنائع والعلوم وصنّفوا فيها كتباً كثيرة، وهي موجودة في أيدي الناس. وقد عمِل أرِسْطاطاليس ثلاثة كتب أُخَر، وجعلهـا مقـدّمـات لكتـاب البرهـان أولها قاطيغورياس[3]، والثاني باريمنياس[4]، والثالث انولوطيقا الأولى. وإنما جعل عِنايته أكثرها بكتاب البرهان لأن البرهان ميزان الحكماء يعرفون به الصّدق من الكِذْب في الأقوال، والصوابَ من الخطأ في الآراء، والحقّ من الباطل في الاعتقادات، والخيرَ من

---

١ انولوطيقا: انولوطيقا اللاولى هي كتاب القياس لارسطو، واما كتاب صناعة الشعر له فهو بويطيقا.

٢ صناعة البرهان: هي كتاب انولوطيقا الثانية من كتب أرسطو.

٣ قاطيغورياس: هو كتاب المقولات لارسطو Les catégories.

٤ باريمنياس: أو باري ارمنياس، هو كتاب العبارة لارسطو.

الشرّ في الأفعال، كما يعرف جمهور النّاس بالموازين والمكاييل والأذرُع تقديرَ الأشياء الموزونة والمكيلة والمزروعة إذا اختلفوا في حَزْرِها وتخمينها؛ فهكذا العلماء العارفون بصناعة البرهان يعرفون بها حقائق الأشياء إذا اختلف فيها حَزْرُ العقول وتخمينُ الرأي، كما يعرف الشُعراء العَروضيُّون استواء القوافي وانزحافها إذا اختُلف فيه، بصناعة العَروض الذي هو ميزان الشعر. وقد عمل فُرفوريوس الصوريّ كتاباً وسمّاه ايساغوجي، وهو المدخَلُ الى صناعة المنطق الفلسفي، ولكن من أجل انهم طوّلوا الخطب فيها، ونقلَها من لغة إلى لغةٍ من لم يكت عارفاً بها وبمعانيها، انغلقَ على الناظرين في هذه الكتب فَهمُ معانيها وعَسُر على المتعلمين أخذُها. وقد عمِلنا في كل واحدةٍ من هذه الصنائع رسالة ذكرنا فيها نُكَتَ ما يُحتاج إليه وتَركنا التطويل.

لكن نريد أن نذكر غرض ما في كل رسالة منها ها هُنا. ليكون من ينظرُ فيها قد عرف غرَض كل صِناعة من هذه قبلَ النظر فيها، فنقول: أما غرضُ ما في ايساغوجي فهو معرفة معاني السّتة الألفاظ التي تستعملها الفلاسفة في أقاويلها، وهو قولهم،: الشّخص والنّوعُ والجِنسُ والفصلُ والخاصّة والعَرَضُ، وماهيّة كل واحدٍ منها وكيفيّةُ اشتراكاتها، وماهيّة رسومها التي تميّز بعضَها من بعضٍ، وكيفيّة دلالاتها على المعاني التي في أفكار النفوس. وأما غرض قاطيغورياس فهو معرفة معاني العَشرةِ ألفاظِ التي كلُّ واحد منها يقال له جِنْس الأجناس، وان واحداً منها جوهر، وتسعةَ أعراضٍ؛ وماهيّة كل واحدٍ منها وكميةُ أنواعها، ورسمُ كل واحد منها المميِّز لها بعضها من بعضٍ، وكيفيّةُ دلالتها على جميع المعاني التي في أفكار النفوس، وأما غرضُ ما في باريمنياس فهو معرفة تلك العشرة الألفاظ التي هي في قاطِيغورياس، وما تدلُّ عليه من المعاني عند التركيب، حتى تصيرَ كلماتٍ وقضايا، ويكون منها الصّدق والكذب. وأما غرض ما في انولوطيقا الأولى فهو معرفة كيفية تركيب تلك الألفاظ مرةً أخرى. حتى يكون منها مقدّماتٌ، وكميّة أنواعها وكيف تُستعمَل حتى يكون منها شيء محسوس، واقتران القضايا ونتائجها. وأما غرض ما في انولوطيقا الثانية فهو معرفة كيفيّة استعمال القياس الحقّ والبُرهانِ الصّحيح الذي لا خطأ فيه ولا زلل.

وأما العلوم الطبيعية فهي سبعة أنواع: أولها علمُ المبادىء الجسمانية، وهي معرفة خمسةِ أشياء: الهيولي والصورة والزمانِ والمكانِ والحركةِ، وما يعرض فيها من المعاني إذا أُضيف بعضُها الى بعض؛ والثاني علم السماء والعالم، وهو معرفة جواهر الأفلاك والكواكب وكميّتها وكيفيّة تركيبها وعلّةِ دورانها، وهل تقبل الكون والفساد، كما تقبل الأركان الأربعة التي هي دون فلك القمر أم لا، وما علّة حركات الكواكب واختلافها في السُّرعة والإبطاء، وما علّةُ حركة الأفلاك، وما علّةُ سكون الأرض في وسَط الفلك في المركز، وهل خارجَ العالم جسمٌ آخَرُ أم لا، وهل في العالم موضعٌ فارغٌ لا شيء فيه، وما شاكل ذلك من المباحث.

والثالث علم الكون والفساد، وهو معرفة ماهيّة جواهر الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وكيف يستحيلُ بعضها الى بعضٍ بتأثيرات الأشخاص العالية، ويكون منها الحوادث والكائنات من المعادن والنبات والحيوان، وكيف تستحيلُ إليها راجعة عند الفساد.

والرابع علم حوادث الجوّ، وهو معرفة كيفيّة تغييرات الهواء بتأثيرات الكواكب، بحركاتها ومطارح شعاعاتها على هذه الأركان، وانفعالاتها منها، وخاصّةً الهواء، فإنه كثير التلوُّن والتغيُّر من النور والظلمة والحرّ والبرد وتصاريف الرياح والضباب والغيوم والأمطار والثلوج والبرد والبروق والرعود والشُّهب والصواعق وكواكب الأذناب وقوسِ قُزَحَ والزوابع والهالات وما شاكلها مما يحدُث فوق رؤوسنا من التغييرات والحوادث.

والخامس علم المعادن، وهو معرفة الجواهر المعدنيّة التي تنعقد من البخارات المحتقِنة في باطن الأرض، والعِصارات[1] المُنعقِدة في الأهوية، وكُهوف الجبال، وقُعور البحار، من العقاقير والجواهر، من الكَباريت والزَّوابيق[2] والشُّبُوب[3] والأملاح

١ العصارات: جمع العصار وهو الغبار الشديد.

٢ الزوابيق: جمع زئبق.

٣ الشبوب: جمع الشب، وهو ملح معدني يعرف عند العامة بالشبه.

والنُّوشادِر والذَّهب والفِضَّة والنُّحاس والحديد والرَّصاص والأُسْرُبُ[1] والكُحل والزَّرنيخ والبِلَّور والياقوت والبازهْرات[2]، وما شاكلها، ومعرفة خواصِّها ومنافعها ومضارها.

والسَّادس علم النبات، وهو معرفة كل نبتٍ يُغْرَس أو يُبذر او ينبُت على وجه الأرض، او في رؤوس الجبال، أو قعر المياه، أو شطوط الأنهار، من الأشجار والزروع والبقول والحشائش والعُشْب والكَلاء، ومعرفة كميّة أنواعها، وخواصّ تلك الأنواع، ومواضع منابتها من البقاع، وكيفيّة امتداد عروقها في الأرض، وارتفاع فروعها وأُصولها في الهواء، وانبساطها على وجه الأرض، وتَفرّق فروعها في الجهات، وأشكال أغصانها من الطول والقِصَر، والدّقة والغِلظ، والاستقامة والاعوجاج؛ وكيفيّة اشكال اوراقها من السّعة والضيق، واللين والخشونة، وألوانِ أزهارها، وأصباغ أوراقها، وكيفيّة صُور ثِمارها وحبوبها، وبذورها وصموغها، وطعومها، وروائحها، وخواصِّها، ومنافعها ومضارّها، واحداً واحداً.

والسَّابع علم الحيوان، وهو معرفة كل جسم يغتذي وينمي ويُحسّ ويتحرّك، مما يمشي على وجه الأرض، او يطير في الهواء، او يسبح في الماء، أو يدب في التراب، أو يتحرك في جوف جسم آخر، كالديدان في جوف الحيوان، وفي لُبّ النبات والثمر والحبوب وما شاكلها، ومعرفةُ كميّة أجناسها، وأنواع الأجناس، وخواصّ تلك الأنواع: ومعرفةُ كيفية تكوُّنها في الأرحام، أو في البيض، او في العفونات؛ ومعرفةُ كيفية تأليف أعضائها، وتركيب أجسادها، واختلاف صُوَرها، وائتلاف ازواجها وفنون أصواتها، ومُنافرة طباعها، وتبايُن أخلاقها، وتشاكل افعالها؛ ومعرفةُ أوقات هَيَجانها وسِفادها، واتّخاذ أعشاشها، ورِفقها بتربية أولادها، وتَحَنُّنِها على صغار نتاجها، ومعرفتها بمنافعها ومضارها، وأوطانها، وأربابها وأعدائها ومعارفها، وما

---

١ الاسرب: الرصاص الأسود.

٢ البازهرات، والبادزهرات: جمع بازهر وبادزهر، وهو حجر ينسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم، فارسي معرب.

شاكل ذلك.

فالنَّظر في هذه كلها، والبحثُ عنها يُنسب الى العلوم الطبيعيات، وكذلك علم الطِّب والبيطرة، وسياسةِ الدواب والسّباع والطيور والحَرْث والنَّسل، وعلمُ الصنائع أجْمع داخِلٌ في الطبيعيات.

* * *

فصل في العلوم الإلهية

والعلوم الإلهية خمسة أنواع: أولها **معرفة الباري**، جلَّ جلاله وعمَّ نواله، وصِفةُ وحْدانيَّته، وكيف هو عِلّة الموجودات، وخالق المخلوقات، وفائض الجود، ومُعطي الوجود، ومَعدِن الفضائل والخيرات، وحافظ النِّظام، ومُبقي الدَّوام، ومُدبّرُ الكل، وعالِمُ الغيبِ والشهادة لا يَعزُب عنه مِثقال ذرَّة في الأرض ولا في السماء، وأوْل كل شيء ابتِداءً، وآخِرُ كل شيء انتهاءً، وظاهرُ كل شيء قُدرةً، وباطِنُ كل شيء علماً، وهو السميع العليم اللطيف الخبير الرؤوف بالعباد، عزّ شأنه، وجَلّت قدرته، وتعالى جَدّه، وجلّ ثناؤه، ولا إله غيره، تعالى عما يقول الظالمون عُلوّاً كبيراً.

والثاني **علم الروحانيات**، وهو معرفة الجواهر البسيطة العقلية، العلاَّمة الفَعّالة، التي هي ملائكة الله، وخالِص عباده، وهي الصُّور المجرَّدة من الهيولي، المستعْمِلة للأجسام المدَبّرة بها، لها ومنها أفعالها، ومعرفةُ كيفيّة ارتباط بعضها ببعضٍ، وفَيض بعضِها على بعض، وهي أفلاكٌ روحانية محيطاتٌ بالأفلاك الجسمانية.

والثالث **علم النَّفسانيات**، وهي معرفة النفوس والأرواح السارية في الأجسام الفلكية والطبيعيّة، من لدُن الفلك المحيط الى مُنتهى مركز الأرض؛ ومعرفة كيفيّة إدارتها للأفلاك، وتحريكها للكواكب، وتربيتها للحيوان والنبات، وحلولها في جُثَث الحيوانات، وكيفية انبعاثها بعد المات.

الرابع **علم السياسة** وهي خمسة أنواع: أولها السّياسة النبويَّة، والثاني السياسة

الملوكية، والثالث السياسة العامية، والرابع السياسة الخاصية، والخامس السياسة الذاتيّة.

فأما السياسة النبوية فهي معرفةُ كيفية وضع النواميس المرضية والسُّنن الزكية بالأقاويل الفصيحة، ومُداواة النفوس المريضة من الديانات الفاسدة، والآراء السخيفة، والعادات الرديّة، والأفعال الجائرة؛ ومعرفة كيفيّة نقلها من تلك الأديان والعادات، ومَحْو تلك الآراء عن ضمائرها بذكر عيوبها ونشر تزْييفها، ومداواتها من سقّام تلك الآراء وتلك العادات بالحِميّة لها من العود إليها، وشِفائها بالرأي المرضيّ، والعادات الجميلة، والأعمال الزكيّة والأخلاق المحمودة، بالمدح لها والترغيب في جزيل الثواب يوم المآب؛ وكيفية سياسة النفوس الشّريرة بصدودها عن قصد سبيل الرشاد، وسلوكها في وُعور طرق الغيّ والتمادي بالقمع لها والزّجر والوعيد والتوبيخ والتهديد، لترجع الى سبُل النجاة، وترغَب في جزيل الثواب؛ ومعرفة كيفيّة تنبيه الأنفس اللاهية، والأرواح الساهية من طول الرُّقاد، ونِسيانها ذكر المعاد، والإذكار لها عهدَ يوم الميثاق، لئلاّ يقولوا: ما جاءنا من رسولٍ ولا كتابٍ. وهذه السياسةُ يختصُّ بها الأنبياء والرسل، صلوات الله عليهم.

وأما السياسة الملوكية فهي معرفةُ حفظ الشريعة على الأمة، وإحياء السنّة في المِلّة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بإقامة الحدود، وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة، ورَدّ المظالم، وقمع الأعداء، وكفّ الأشرار، ونُصرة الأخيار، وهذه السياسة يختص بها خلفاء الأنبياء، صلوات الله عليهم، والأئمة المهديّون الذين قَضوا بالحقّ، وبه كانوا يَعدلون.

وأما السياسة العاميّة التي هي الرياسة على الجماعات، كرياسة الأمراء على البلدان والمدن، ورياسة الدّهاقين على أهل القرى، ورياسةِ قادة الجيوش على العساكر، وما شاكلها. فهي معرفةُ طبقات المرؤوسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم، وترتيب مراتبهم، ومُراعاة أمورهم، وتفقُّد أسبابهم، وتأليف شَملهم، والتناصُف بينهم، وجمعِ شتاتهم، واستخدامهم في ما يَصلحون له من الأمور، واستعمالهم في ما يشاكلهم من صَنائعهم وأعمالهم اللائقة بواحدٍ واحدٍ منهم.

وأما السياسة الخاصيّة فهي معرفة كل إنسان كيفية تَدبير منزله وأمرِ معيشتِه، ومراعاة أمر خدمه وغلمانه وأولاده ومماليكه وأقربائه، وعُشرته مع جيرانه، وصُحبته مع إخوانه، وقضاء حقوقهم، وتفقُّد أسبابهم، والنظر في مصالحهم من أمور دنياهم وآخرتهم.

وأما السياسة الذاتية فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه، وتَفقُّد أفعاله وأقاويله في حال شهواته وغضَبه ورِضاه، والنظر في جميع أموره.

والخامس علمُ المعادِ وهو معرفة ماهيّة النشأة الأخرى، وكيفيّة انبعاث الأرواح من ظلمة الأجساد، وانتباه النفوس من طول الرُّقاد، وحَشرها يوم المعاد، وقيامِها على الصِّراط المستقيم، وحشرها لحِساب يوم الدين، ومعرفةُ كيفيّة جزاء المحسنين وعِقاب المسيئين.

وقد عملنا في كل فصلٍ من هذه العلوم التي تقدَّم ذكرها رسالةً، وذكرنا فيها طَرَفاً من تلك المعاني، وأتممناها بالجامعة، ليكون تنبيهاً للغافلين، وإرْشاداً للمُريدين، وترغيباً للطالبين، ومسلكاً للمتعلمين، فكن به يا أخي سعيداً، واعرِض هذه الرسالة على إخوانك وأصدقائك، ورغّبهم في العلم، وزهّدهم في الدنيا، ودلّهم على طريق الآخرة، فإنك بذلك تنال الزُّلفى من الله تعالى، وتستوجب رِضوانه، وتفوز بسعادة الآخرة. وتبلغ به المرتبة العليا كما دلّ عليه قول النبي، عليه السلام: الدالُّ على الخير كفاعِله.

واعلم يا أخي بأن هذه الطريقة هي التي سلكها الأنبياء، صلوات الله عليهم، واتّبعهم عليها الأخيار الفضلاء من العلماء والحكماء، فاجتهد لعلّك تُحشر في زُمرتهم، كما وعد الله تعالى فقال: «فأولئك مع الذين أنعمَ الله عليهم من النَّبيّين والصّدّيقين والشُّهداء والصالحين، وحَسنُ أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله» «والذين جاهدوا فينا لنَهديَنَّهم سُبُلَنا، وإن الله لَمَعَ المحسنين». وفّقك الله وإيانا أيها الأخ للسَّداد، وهدانا وإياك سبيلَ الرَّشاد.

فصل في مراتب الصناعات

واعلم يا أخي بأن من هذه الصنائع ما هي بالقَصد الأول دعت الضَّرورة إليها، ومنها ما هي تابعةٌ لها وخادمة، ومنها ما هي مُتَسِّمة لها ومُكمِّلة، ومن الصنائع ما هي جمالٌ وزينة. فأما التي بالقَصد الأول فثلاثة، وهي الحِراثة والحياكة والبناء، وأما سائرُها فتابعة وخادمة ومتمِّمة، وذلك ان الإنسان لما خلق رقيقَ الجلد عُرياناً من الشعر والصوف والوبر والصَّدف والريش، وما هو موجودٌ لسائر الحيوان، دعته الضَّرورة الى اتخاذ اللِّباس بصناعة الحياكة؛ ولما كانت الحياكة لا تتمُّ إلا بصناعة الغَزْل، وصناعة الغزل لا تتمّ إلاّ بصناعة الحَلج، فصارت هذه الثلاثة تابعةً لها وخادمة. وأيضاً لما كان اللِّباسُ لا يتم إلا بالحياكة حَسْبُ، صارت صناعة الخياطة والقِصارة[1] والرَّفو والطِّرْز متمِّمة لها ومُكمِّلة. وأيضاً لما خُلق الإنسان محتاجاً الى القوت والغِذاء، والقوتُ والغِذاء لا يكونان إلا من حَبِّ النبات وثمرِ الشجر، دعت الضرورة الى صناعة الحراثة والغَرْسِ؛ ولما كانت صِناعة الحِراثة والغَرس محتاجةً الى إثارة الأرض وحفر الأنهار، ولا يتمُّ هذا إلا بالمساحي[2] والفُدْن[3] وما شاكلها، والمساحي والفُدْن لا تكون إلا بصناعة النِّجارة والحِدادة، دعت الضَّرورة الى اتخاذها؛ وصناعة الحديد محتاجةٌ الى صناعة المعدن والى صنائعَ أخرى، فصارت كلُّها تابعةً وخادمةً لصِناعة الحِراثة والغَرْس.

ولما كان حَبُّ الزَّرع وثمرُ الشجر يحتاج الى الدَّقّ والطَّحْن، دعت الضرورة الى اتخاذ صناعة الطحن والعَصْر. ولما كان الطَّحْنُ لا يتمُّ الغِذاء به إلاّ بعد الخبزِ، دعت الضرورة الى صناعة الخَبْزِ والطَّبْخ، وكل واحد منها محتاجٌ الى صناعةٍ أخرى مُتمِّمة له وخادمة. وأيضاً لما كان الإنسانُ محتاجاً الى ما يَكُنّه من الحرّ والبَرْد. والتَّحرُّزِ من السِّباع، وتحصين القوت، دعته الضرورة الى صناعة البِناء، وصناعةُ البناء محتاجةٌ ايضاً

[1] القصارة: حرفة القصار، وهو الذي يدق الثياب ويبيضها.

[2] المساحي: جمع مسحاة، وهي المجرفة من الحديد.

[3] الفدن: جمع الفدان بالتخفيف، وهو الفدّان بتشديد الدال، أي الثوران يقرن بينهما للحرث.

الى صناعة النَّجارة والحدادة، وكلٌّ واحدةٍ منها محتاجةٌ الى صناعةٍ أخرى مُعينةٍ أو مُتمِّمة بعضُها لبعضٍ. وأما صناعة الزِّينة والجمال فهي كصناعة الديباج والحرير وصناعة العِطْر وما شاكلها. والصنائع كلُّها الحِذق فيها هو تحصيلُ الصُّور في الهَيولي وتتميمها وتكميلُها، ليُنالَ الانتفاع بها في الحياة الدُّنيا حَسْبُ.

واعلم يا أخي ان الناس كلَّهم صُنّاع وتجارٌ أغنياء وفقراء، فالصناعُ هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم الصُّور والنقوشَ والأصباغَ والأشكالَ، وغرضُهم طلبُ العِوضَ عن مصنوعاتهم، لصلاح معيشةِ الحياة الدنيا والتجارُ هم الذين يتبايعون بالأخذ والإعطاء، وغرضُهم طلب الزيادة فيما يأخذونه على ما يُعطون. والأغنياء هم الذين يملِكون هذه الأجسامَ المصنوعة الطبيعيّة والصّناعية، وغرضُهم في جَمعِها وحِفظها مخافةُ الفقر. والفقراء هم المحتاجون إليها وطلبُهم الغِنى.

واعلم أن الغرض في كَون الناس اكثرهم فقراء، وخوفِ الأغنياء من الفقر، هو الحَثُّ لهم على الاجتهاد في اتخاذ الصنائع، والثبوتِ فيها، والتّجارات، والغرضُ فيهما جميعاً هو إصلاحُ الحاجات، وإيصالُها الى المحتاجين؛ والغرضُ في ذلك مَتاعٌ لهم الى حين. والغرضُ في تمتُّعِهم الى حين هو أن تُتمِّم النفس بالمعارف الحقيقية والأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكيّة، والغرضُ في تَتميم النفسِ والتَمكينُ لها من الصعودِ الى ملكوت السماء، والغرضُ في صعودها الى ملكوت السماء هو النجاةُ من بحرِ الهَيُولي وأسْر الطبيعة، والخروجُ من هاوية عالم الكَون والفساد الى فُسحة عالِم الأرواح، والمكثُ هناكَ فرِحاً مسروراً مُلتذاً مخلّداً أبداً.

فصل في أن كل صناعة تحتاج إلى الفكر والتعقل

واعلم يا أخي أنا إنما ذكرنا هذه الصنائع والمِهَن، ونسبنا هذه الرسالة الى رسائل العقل والمعقول، لأن هذه الصنائع يعمَلها الإنسان بعقله وتمييزه ورويّته وفِكرته التي

كلُّها قوىً روحانية عقلية. وأيضاً ان كل عاقل إذا فكر في هذه الصنائع والأفعال التي تظهر على أيدي البشر، فيعلم أن مع هذا الجسد جوهراً آخر هو مظهرُ هذ الأفعال المُحكَمة، وهذه الصنائع المُتقنَة من هذا الجسد، لأن الجسد قد يوجد بعد المات برُمّته تاماً لم ينقُص منه شيء، وقد فُقِدت منه هذه كلُّها، فيعلم ان معه جوهراً آخر فارقه، فمن أجل ذلك فُقِدت هذه الفضائلُ كلُّها، لأنه هو الذي كان يُحرك هذا الجسد وينقُله من موضعٍ الى موضعٍ في الجهات السّتّ، وكان يحرّك أيضاً بتوسُّطه أشياء خارجةً من ذاته، وكان أيضاً يحمِل معه حِملاً على ظهره وكتفه، فلما فارقه احتاج هذا الجسد الى أربعة نَفَرٍ يحملونه على لوحٍ مطروحاً عليه لا يُطيق قياماً ولا قُعوداً ولا حركة، ولا يُحِس بوجوده، ولا ما يُفعل به من غسلٍ ودَفن. وقد زعم كثيرٌ من أهل العلم ممن ليست له خُبرة بأمر النفس، ولا معرفة بجوهرها أن هذه الصنائع المُحكَمة والأفعال المتقنة التي تظهر على أيدي البشر، الفاعِلُ لها هو هذا الجسدُ المؤلف من اللحم والدم والشّحم والعِظام والعصب بأعراض تحلّه مثلِ الحياة والقُدرة والعلم وما شاكلها، ولم يعرفوا ان هذه الأعراضَ ليس حلولِها في الجسم، وإنما هي أعراضٌ نفسانية تحلُّ جوهر النفس، وذلك ان الإنسان لما كان مجموعاً من جسمٍ ميتٍ ونفسٍ حيّة، وُجدت هذه الأعراض في حال حياته، وفُقدت في حال مماته، وليست الحياة شيئاً سوى استعمال النفسِ الجَسَدَ، ولا المماتُ شيئاً سوى تركِها استعماله، كما انه ليست اليقظة سوى استعمالها الحواسّ الخمس، ولا النومُ شيئاً سوى تركها استعمالها.

فصل في شرف الصنائع

اعلم يا أخي بأن الصنائع يتفاضلُ بعضُها على بعضٍ من عِدّة وجوه: إحداها من جهة الهيولي التي هي الموضوعُ فيها، ومنها من جهة مصنوعاتها، ومنها من جِهة الحاجة الضرورية الداعية الى اتخاذها، ومنها من جهة منفعة العموم، ومنها من جهة الصناعة نفسها. فأما التي شرفها من جهة الحاجة الضرورية إليها فهي ثلاثة أجناسٍ، وهي

الحِياكة والحِراثة والبِناء كما ذكرنا قبلُ. وأما التي شرفُها من جهة الهَيولي الموضوعُ فيها فمثلُ صناعة الصاغة والعطّارين وما شاكلها. وأما التي من جهة مصنوعاتها فمِثلُ صناعة الذين يعمَلون آلات الرَّصْد مثل الأسطرْلاب وذوات الحلَق والأُكَر المُمثَّلة بصورة الأفلاك وما شاكلها. فإن قطعة من الصُّفْر قيمتُها خمسة دراهم، إذا عُمِل منها أسطرلاب يساوي مائة درهم، فإن تلك القيمة ليست للهيولي ولكن لتلك الصُّورة التي جُعلت فيها. وأما الذهب والفضَّة اللذان هما الهيولي الموضوع في صِناعة الصوّاغين أو الضَّرابين، إذا ضُرب منها دراهم ودنانير أو صياغة ما، فليس مَبلغُ تَفاوت القيمة ما بين الموضوع والمصنوع مثلَ ما يَبلغ في صناعة أسطرلاب وغيرها. وأما التي شَرفها من جهة النفع منها للعموم فهي مثلُ صناعة الحمَّامين والسمَّادين[1] والكنَّاسين وغيرهم، وذلك ان الحمَّام المنفعة منه للصغير والكبير والشريف والوضيع والمدني والغريب والقريب والبعيد كلّهم بالسوية لا يتفاضلون في الانتفاع به.

وأما أكثر الصنائع فأهلها متفاوتون في منافعها كاختلافهم في الملبوسات والمأكولات والمشروبات والمسكونات وأمثالها من الأمتعة المصنوعة، حالُ الغنيّ فيها خِلافُ حال الفقير، إلا الحمَّام والمزيِّن وأمثالها. وأما صناعة السَّمادين والزبَّالين فإن الضرر في تركها عظيمٌ عامٌ على أهل المدينة، وذلك أن العطارين الذين الموضوع في صِناعاتهم مُضادّ للموضوع في صِناعة السمَّادين، لو أنهم أغلقوا دكاكينهم وأسواقهم شهراً واحداً لم يلحَق من ذلك من الضرر لأهل المدينة مثل ما يلحَق من الضَّرر من تركِ السَّمادين صِناعتهم أسبوعاً واحداً، فإن المدينة تمتلىء من السماد والسَّرقين[2] والجيفِ والقاذورات، ما يتنغَّص عيشُ أهلها من أجله.

وأما التي شرفها من الصناعة نفسها فهي مثلُ صِناعة المُشعبذين[3] والمصورين

---

١ السمادين: الذين ينظفون الشوارع والأسواق من السماد، أي السرقين، برماد.

٢ السرقن: الزبل.

٣ المشعبذين: المشعوذين، وصناعتهم تقوم على خفة اليد، واعمال كالسحر، يرى الشيء بغير ما عليه اصله في رأي العين.

والموسيقيّين وأمثالهم، وذلك ان الشَّعْبذة ليست شيئاً سوى سُرعة الحركة وإخفاء الأسباب التي يعملها الصَّانع فيها؛ حتى انه مع ضحك السُّفهاء منها، يتعجَّب العقلاء أيضاً من حِذْق صانعها. وأما صناعة المصوِّرين فليست شيئاً سوى محاكاتهم صُوَر الموجودات المصنوعات الطبيعية أو البشرية أو النفسانية، حتى إنه يبلغ من حِذقهم فيها ان تصرِف أبصارَ الناظرين إليها عن النظر الى الموجودات أنفُسها، بالتعجُّب من حسنها ورونق منظرها، ويبلغ أيضاً التفاوُت بين صنَّاعها تفاوُتاً بعيداً، فإنه يحكى ان رجلاً في بعض المواضع عمِلَ صُوَراً وتماثيل مُصوَّرة بأصباغٍ صافية وألوانٍ حسنة برّاقة، وكان الناظرون إليها يتعجَّبون من حُسنها ورونقها، ولكن كان في الصَّنعة نَقصٌ حتى مرَّ بها صانعٌ فارهٌ[1] حاذق، فتأمَّلها فاستزرى بها وأخذ فحمة من الطريق ومثَّل بجانب تلك التصاوير صورة رجل زَنجيّ كأنه يشير بيديه الى الناظرين. فانصرفت أبصارُ الناظرين بعد ذلك عن النظر الى تلك التصاوير والاصباغ، بالنظر إليه والتعجُّب من عجيب صنعته وحسن إشارته وهيئة حركته.

وأما شرفُ صِناعة الموسيقى فمن وجهين اثنين: أحدُهما من جهة الصَّناعة نفسها، والآخر من جهة تأثيراتها في النفوس، وأيضاً من جهة تفاوتُ ما بين صُنَّاعها، وذلك ان الواحدمنهم يَضرِب لحناً فيُطرب بعض المستمعين، وآخر يضرِب لحناً فيُطرب كل المستمعين. وقد يحكى ان جماعة من أهل هذه الصناعة كانوا مجتمعين في دعوة رجل كبيرٍ رئيسٍ، إذ دخل عليهم انسان رَثُّ الحال، عليه ثياب النُّساك، فرفعه صاحب المجلس عليهم كلِّهم، فتبيَّن الإنكارُ في وجوههم، فأراد ان يبيِّن فضله، فسأله ان يُسمعهم شيئاً من صَنعته، فأخرج خشبات وركّبها تركيباً، ومدَّ عليها أوتاراً كانت معه، وحرَّكها تحريكاً، فأضحك كل من كان في المجلس، من اللَّذَّة والفرح، ثم قَلَب وحرَّك تحريكاً آخر، فأبكى كل من كان في المجلس، من الحزن ورقة القلب، ثم قَلَب وحرَّك تحريكاً، فنوَّم كلَّ من كان في المجلس، وقام وخرج فلم يُعرف له خبر.

---

١ فارة: حاذق.

واعلم يا أخي بأن الحذق في كل صنعة هو التشبُّه بالصانع الحكيم الذي هو الباري، جلَّ ثناؤه، ويقال ان الله تعالى يُحِب الصانع الفارِه الحاذق. وروي عن النبي، ﷺ، أنه قال: إن الله تعالى يُحب الصانع المُتقِن في صَنعته. ومن أجل هذا قيل في حدّ الفلسفة إنها التشبُّه بالإله بحسب طاقة الإنسان. وإنما أردنا بالتَّشبُّه التشبُّه في العلوم والصنائع وإفاضة الخير، وذلك ان الباري، جلَّ ثناؤه، أعلمُ العلماء وأحكمُ الحكماء وأصنعُ الصُنَّاع وأفضلُ الأخيار؛ فكلُّ من زاد في هذه الأشياء درجةً، ازداد من الله قُربُه، كما ذكر الله سبحانه في وصف الملائكة الذين هم خالِصُ عِباده فقال: «يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيّهُم أقربُ، ويرجونَ رَحمته».

واعلم يا أخي ان الوسيلة لا تكون إلاّ بعملٍ أو علمٍ أو عبادةٍ، لأن العباد لا يملكون شيئاً سوى سعيهم كما ذكر الله عزَّ وجلّ، فقال: «وأنَّ ليس للإنسان إلا ما سعى، وأنَّ سعيهَ سوف يُرى».

فصل في قابلية الإنسان الصَّنعة

واعلم أنَّ قَبُول الصِّبيان تَعلُّم الصَّنائع يختلف بحسب طِباعهم المختلفة؛ واختلافُ طباعهم بحسَب مواليدهم، وقد شرحنا ذلك في رسالة تأثيرات النجوم في المواليد، ولكن نريد أن نذكر هاهُنا من ذلك طرفاً، فاعلم ان من الناس من هو مطبوع على تعلُّم صِناعةٍ واحدة أو عِدَّة صنائع بسهولة في قَبُولها، حتى ان كثيراً من الناس من يتعلَّم صِناعةً بجودة قريحته، إذا رأى أهل تلك الصَّناعة في أعمالهم بأدنى تأمُّلٍ، كأنه قد وقف عليها. ومنهم من يحتاج الى توقيفٍ[1] شديد وحَثّ دائم وترغيب، وربما لا يُفلِح فيها إذا لم يكن فيها موافقاً للطبيعة، وما أوجبه له مولده؛ ومن النَّاس من لا يتعلَّم الصَّناعة البتة، ويكون فارغاً خِلواً منها جميعاً. والسببُ في ذلك ان الصناعة لا

١ توقيف: تعليم.

تأتي للمولود إلاَّ بدلالة كوكب مُتَولٍ لبُرج العاشر من طالعه، وذلك انه إذا استولى عليه من أحل الكواكب الثلاثة واحدٌ، فلا بد من صنعةٍ يتعلمها، وهي المِرّيخ والزُّهرة وعُطارد، وذلك ان كل صنعة فلا بدّ لها من حركة ونشاط وحِذق، فالحركة للمِريخ، والنشاطُ للزُّهرة، والحِذق لعُطارد.

وأربعة منها إذا انفرد أحدها بالدلالة فلا يُعطي الصنعة ولكن يدل على ما يشاكله من الأعمال، وهي الشمس وزُحَل والمشتري والقمر، وذلك من استولى عليه في مولده، على الدرجة العاشرة، الشمسُ، فهو لا يتعلَّم الصناعة لكِبر نفسه مثل أولاد الملوك؛ وأما من استولى عليه المشتري، فهو لا يتعلّم ولا يعمل لزُهده وورعه ورضاه بقليلٍ من أُمور الدُّنيا، وإقباله على طلب الآخرة، مثلُ الأنبياء، عليهم السلام، ومن يقتدي بهم؛ وأما من استولى عليه زُحَل، فإنه لا يعمَل ولا يتعلَّم لكَسَلِه وثِقل طبيعته عن الحركة، ويرضى بالذُّلّ والهوان في طلب معاشه كالمكدّين والسُّؤّال؛ وأما من استولى عليه القمر، فإنه لا يعمل من أجل مَهانَته، واسترخاء طبيعته، وقلة فهمه، مثلُ النساء وأمثالهن من الرجال.

ومن أجل هذا كان اليونانيون الذين كانوا في قديم الزمان، إذا أرادوا تسليم الصبي إلى صناعة من الصنائع، اختاروا له يوماً من الأيام، وأدخلوه الى هيكل الصنائع وصُوَر سائر الكواكب، وقرَّبوا قرباناً لصنم ذلك الكوكب الذي دلَّ على صناعته، وسلَّموه الى تلك الصّناعة بعدما عرفوا ذلك من مولده، وإن لم يكونوا عرفوه من مَولِده عرضوا عليه الصنائع المصوَّرة في ذلك الهيكل، فإن رغب في واحدة منها بعد تَوقيفهم له على أحوال تلك الصّنعة، سلَّموه إليها.

واعلم يا أخي بأن صناعة الآباء والأجداد أنجعُ في الأولاد من صناعة الغرباء، وخاصَّة من دلّ مَولِده عليها، ويكونون فيها أحذق وأنجب، ومن أجل هذا أوجبوا في سياسة أردشير بن بابكان على أهل كل طبقةٍ من الناس لُزومَ صناعة آبائهم واجدادهم قَطْعاً، وان لا يتجاوزوها، وزعموا ان ذلك فرضٌ من الله، عزَّ وجلَّ، في كتاب زرادَشْت.

واعلم بأن هذا كلّه صيانةٌ للمُلك ان لا يرغب فيه من ليس من أهلهِ، لأنه إذا كثُر الطالبون للمُلك، كَثُـر التنـازع بينهـم، وإذا كَثُـر التنـازع، كَثُـر الشَّغَـب، واضطربت الأمور، وانفسد النّظام، وفسادُ النظام يتبعه البَوار والبُطْلان[1].

فصل في الغرض من الـمُلك

واعلم بأن الغرض من الـمُلك هو حِفظُ الناموس على أهله أن لا يندرس بتركهم القيام بموجِباته، لأن أكثر أهل الشرائع النبويّة والفلسفية، لولا خَوف السلطان، لتركوا الدخول تحت أحكام الناموس وحدوده وتـأديـة فـرائضـه، واتبـاع سُنَّتـه، واجتناب محارمه، واتباع أوامره ونواهيه.

واعلم بأن الغرض من حِفظ الناموس هو طلب صلاح الدين والدنيا جميعاً، فمتى تُرك القيام بواجباته، انفسدا جميعاً، وبَطَلَت الحكمة، ولكن السياسة الإلهية والعِناية الرّبانية لا تتركها ينفدان، لأنها هي العِلّة الموجبة لوجودها وبقائها ونِظامها وتمامها وكمالها، وكل صورةٍ في المصنوع فإنها أولاً تكون في فكر الصانع وعلمه.

فصل في ماهيَّة الأخلاق

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، أن الأخلاق المركوزة في الجِبِلّة هي تهيُّؤُ ما في عُضو من أعضاء الجسد يَسهُل به على النفس اظهارُ فعلٍ من الأفعال، أو عملٍ من الأعمال، أو صناعةٍ من الصنائع، أو تعلُّم علمٍ من العلوم، أو أدبٍ من الآداب، أو سياسة من غير فكر ولا رويّة، مثالُ ذلك أنه متى كان الإنسان مطبوعاً على الشجاعة فإنه يَسهُل عليه الإقدام على الأمور المخوفة من غير فكرٍ ولا رويّة،

---

[1] البطلان: الخسران والضياع.

وهكذا متى كان مطبوعاً على السَّخاء يَسهُل عليه بذلُ العطيّةِ من غير فكر ولا رويّة، وهكذا متى كان الإنسان مطبوعاً على العِفّة، سهُل عليه اجتنابُ المحظورات المحرَّمات من غير فكر ولا رويّة؛ وهكذا من كان مطبوعاً على الاعتِدال، سهُل عليه الحكومة في الخصومات، والعدلُ والنَّصفةُ في المعاملات، وعلى هذا المثال والقياس سائرُ الأخلاق والسجايا المطبوعة في الجِبْلَةِ المركوزة فيها، إنما جعلت لكيما يسهُل على النفس إظهارُ أفعالها وعلومها وصنائعها وسياساتها وتدبيرها بلا فكر ولا رويّة.

وأما من كان مطبوعاً على الضِّدّ من ذلك فهو يحتاج عند استعمال هذه الخِصال، وإظهار هذه الأفعال، إلى فكرٍ ورويّة واجتهاد شديد، وكُلفةٍ، ولا يفعل الإنسان هذه الأمور إلاّ بعد أمرٍ ونهيٍ، ووعدٍ ووعيد، ومدحٍ وذمٍّ، وترغيبٍ وترهيب. وعلى هذا المِثال يكون كلُّ حُكمٍ في الطبع خِلافه، يحتاج صاحبه إلى أمر ونهيٍ وفكر واجتهادٍ ورغبةٍ. وبهذه العِلّة وردت اكثرُ أوامر الناموس ونواهيه؛ ولهذا السبب كان وعدُه ووعيده وترغيبه وترهيبه. ولو كان الإنسان الواحد مطبوعاً على جميع الأخلاق، لما كان عليه كلفةٌ في إظهار كل الأفعال وجميع الصنائع، ولكن الإنسان المُطلق الكلّيَّ هو المطبوعُ على قَبول جميع الأخلاق، وإظهارِ جميع الصنائع والأعمال، لا الإنسان الجزئيّ.

واعلم بأن كلَّ الناس أشخاصٌ لهذا الإنسان المُطلَق، وهو الذي أشرنا اليه انه خليفة الله في أرضه مُنذُ يومَ خُلِقَ آدمُ أبو البشر إلى يوم القيامة الكبرى، وهي النفسُ الكليّة الإنسانية الموجودةُ في كل أشخاص الناس، كما ذكر جلَّ ثناؤه، بقوله: ﴿ما خَلقكم ولا بَعثكم إلاَّ كنفسٍ واحدة﴾ كما بيَّنا في رسالة البعث.

واعلم يا أخي، أيّدك الله بروحٍ منه، بأن هذا الإنسان المُطلق الذي قلنا هو خليفة الله في أرضه، وهو مطبوعٌ على قَبول جميع الأخلاق البشريّة، وجميع العلوم الانسانيّة والصنائع الحِكميّة، هو موجودٌ في كل وقتٍ وزمان، ومع كل شخصٍ من أشخاص البشر، تظهرُ منه أفعاله وعلومه وأخلاقه وصنائعه، ولكن من الأشخاص من هو أشدُّ تهيؤاً لقَبول علمٍ من العلوم، أو صناعة من الصنائع، أو خُلُقٍ من الأخلاق، أو عملٍ من الأعمال؛ والإظهار بحسب ذلك يكون.

مطلب في التربية

واعلم بأن العادات الجارية بالمداوَمة على البحث عنها، والدرس لها، والـمُذاكرة فيها، يُقوّي الحِذق بها والرسوخ فيها؛ وهكذا المداومة على استعمال الصنائع، والدُؤوبُ فيها يُقوّي الحِذقَ والأستاديّة فيها؛ وهكذا جميع الأخلاق والسجايا. والمِثالُ في ذلك أن كثيراً من الصِّبيان إذا نشأوا مع الشجعان والفرسان وأصحاب السلاح، وتربّوا معهم، تطبّعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم؛ وهكذا أيضاً كثيرٌ من الصِّبيان إذا نشأوا مع النّساء والمخانيث والمعيوبين، وتربّوا معهم، تطبّعوا بأخلاقهم، وصاروا مثلهم، إن لم يكن في كلّ الخلقِ ففي بعضٍ. وعلى هذا القياس يجري حُكم سائر الأخلاق والسجايا التي يتطبّع عليها الصِّبيان منذ الصغر، إما بأخلاق الآباء والأمهات، أو الإخوة والأخوات والأتراب والأصدقاء والمعلمين والأستاذين المخالطين لهم في تصاريف أحوالهم. وعلى هذا القياس حُكم الآراء والمذاهب والديانات جميعاً.

فصل في المعتقد والأخلاق

واعلم يا أخي بأن من الناس من يكون اعتقادُه تابعاً لأخلاقه، ومنهم من تكون أخلاقه تابعةً لاعتقاده، وذلك أن من يكون مطبوعاً على طبيعة مِرّيخيّةٍ فإنه تميلُ نفسه إلى الآراء والمذاهب التي يكون في التعصُّبُ والجِدال والخصومات أكثرَ، وهكذا أيضاً من يكون مطبوعاً على طبيعة مشتريّة، فإنه تكون نفسه مائلةً إلى الآراء والمذاهب التي يكون فيها الزُهد والوَرع واللين أكثر. وعلى هذا القياس توجَد آراء الناس ومذاهبهم تابعة لأخلاقهم، وأما الذي تكون أخلاقه تابعةً لاعتقاده فهو الذي إذا اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوّره وتحقّق به، صارت أخلاقه وسجاياه مُشاكِلةً لمذهبه واعتقاده، لأنه يَصرِف أكثرَ همّه وعِنايته إلى نُصرة مذهبه، وتحقيق اعتقاده في جميع مُتصرّفاته، فيصيرُ ذلك خُلقاً له وسجيّةً وعادةً يصعُب إقلاعُه عنها وتركُه لها.

وعلى هذا الجنس من الأخلاق تقع الـمُجازاة من المدح والذّم والثّواب والعِقاب والوعد والوعيد والترغيب والترهيب، لأنه اكتسابٌ من صاحبه وفِعلٌ له، والمثال في ذلك ما جاء في الخبر أن رجلين اصطحبا في بعض الأسفار، أحدُهما مجوسيّ من أهل كَرْمانَ، والآخرُ يهوديٌ من أهل أصْفهان، وكان المجوسيُّ راكباً على بغلة عليها كلُّ ما يحتاج إليه المسافرُ في سفره من الزّاد والنفقة والأثاث، فهو يسير مُرَفَّهاً، واليهودي كان ماشياً ليس معه زاد ولا نفقة. فبينا هما يتحدثان، إذ قال المجوسي لليهودي: ما مذهبُك واعتقادُك، يا خوشاك؟ قال اليهودي: اعتقادي أن في هذه السماء إلهاً هو إلهُ بني إسرائيل وأنا أعبُده، وأسأله وأطلب إليه ومنه سَعة الرزق، وطول العُمر، وصِحة البدن، والسلامة من الآفات، والنُصرة على الأعداء؛ أُريد منه الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي، ولا أُفكر فيمن يخالفني في ديني ومذهبي، بل أرى وأعتقد أن من يخالفني في ديني ومذهبي، فحلالٌ لي دمُه وماله، وحرامٌ علي نُصرتُه أو نصيحته أو معاونتُه أو الرحمةُ أو الشفقة عليه. ثم قال للمَجوسي: قد أخبرتك عن مذهبي واعتقادي لمَّا سألتني عنه، فأخبرني، يا مغا، أنت أيضاً عن مَذهبك واعتقادك. قال المجوسي: أما اعتقادي ورأيي فهو اني أريد الخير لنفسي ولأبناء جنسي كلّهم؛ ولا أريد لأحد من الخلق سوءاً، لا لمن كان على ديني ويوافقني، ولا لمن يخالفني ويُضادُّني في مذهبي. فقال اليهودي له: وان ظلمك وتعدَّى عليك؟ قال: نعم، لأني أعلم أن في هذه السماء إلهاً خبيراً فاضِلاً عادلاً حكيماً عليماً لا تخفى عليه خافيةٌ في أمر خلقه، وهو يجازي المحسنين بإحسانهم، ويكافىء المسيئين على اساءتهم. فقال اليهودي للمجوسي: فلست أراك تنصرُ مذهَبك وتُحقّق اعتقادك. فقال المجوسي: وكيف ذلك؟ قال: لأني من أبناء جنسك، وأنت تراني أمشي متعوباً جائعاً، وأنت راكبٌ شَبعانٌ مُترفّه. قال: صدقت، وماذا تريد؟ قال: أطعمني واحمِلني ساعة لأستريح فقد أعيَيت. فنزل المجوسي عن بغلته، وفتح له سُفْرته، فأطعمه حتى أشبعه، ثم أركبه ومشى معه ساعة يتحدثان. فلما تمكن اليهودي من الركوب، وعلم ان المجوسيَّ قد أعيا، حرَّك البغلة وسَبقه، وجعل المجوسيُّ يمشي فلا يلحقه، فناداه: يا خُوشاك، قِفْ لي وانزِل فقد أعييت. فقال له اليهودي: أليس قد

أخبرتك عن مذهبي يا مغا، وخبَّرتني عن مذهبك، ونصرته وحقَّقته، وأنا أُريد أيضاً أن أنصرَ مذهبي وأُحقق اعتقادي، وجعل يُجري البغلة والمجوسيُّ في أثره يعدو، ويقول: ويحك، يا خوشاك، قِفْ لي قليلاً واحمِلني معك، ولا تتركني في هذه البريّة تأكُلُني السّباعُ وأموتُ جوعاً وعطشاً، وارحمني كما رحِمتُك. وجعل اليهودي لا يُفكِّر في نِدائه، ولا يلوي عليه، حتى مضى وغاب عن بصره.

فلما يئِس المجوسيُّ منه وأشرف على الهلاك، تذكَّر تمامَ اعتقاده، وما وُصف له بأن في السماء إلهاً خبيراً فاضلاً عالماً عادلاً لا يخفى عليه من أمر خَلقه خافيةٌ، فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا إلهي، قد علمت اني قد اعتقدتُ مذهباً ونَصرتُه وحقَّقتُه ووصفتُك بما سمِعت وعلِمت وتحقَّقتُ، فحقِّق عند اليهوديّ خُوشاك ما وصفتُك به ليعلم حقيقة ما قلتُ. فما مشى المجوسيُّ إلاَّ قليلاً حتى رأى اليهوديَّ وقد رمت به البغلةُ فاندقَّت عُنقه، وهي واقفةٌ بالبُعد منه تنتظر صاحبها. فلما لحِق المجوسيُّ بغلَته ركبها ومضى لسبيله، وترك اليهوديَّ يقاسي الجَهدَ ويُعالج كَرْب الموت. فناداه اليهوديّ: يا مغا، ارحمني واحملني ولا تتركني في هذه البريَّة تأكُلُني السّباعُ وأموتُ جوعاً وعطشاً، وحقق مذهبك، وانصُر اعتقادك. قال المجوسيّ: قد فعلتُ مرة، ولكن بَعدُ لم تفهم ما قلتُ لك، ولم تَعقِل ما وصفتُ لك. فقال اليهودي: وكيف ذلك؟ فقال: لأني وصفتُ لك مذهبي فلم تصدقني بقولي حتى حقَّقتُه بفعلي، وأنت بَعدُ لم تعقِل ما قلتُ لك، وذلك اني قلت لك ان في هذه السماء إلهاً خبيراً فاضلاً عالماً عادلاً لا يخفى عليه خافيةٌ، وهو يجازي المحسنين بإحسانهم، ويكافىء المسيئين بإساءتهم. قال اليهودي: قد فهمتُ ما قلتَ وعلمتُ ما وصفتَ. فقال له المجوسي: فما الذي منعك أن تتعظ بما قلتُ لك يا خوشاك؟ فقال اليهودي: اعتقادٌ قد نشأتُ عليه ومذهبٌ قد ألِفتُه وصار عادة وجَبلة بطول الدُّؤوب فيه، وكثرة الاستعمال له، اقتداء بالآباء والأُمهات والأُستاذين والمعلّمين من أهل ديني ومذهبي، فقد صار جَبلة وطبيعة ثابتة، يصعُب عليَّ تركُها والاقلاعُ عنها. فرحمه المجوسيُّ وحمله معه حتى جاء به إلى المدينة وسلَّمه إلى أهله مكسوراً. وحدَّثَ الناسَ بقِصته وحديثه معه، فجعلوا يتعجبون. فقال بعض الناس للمجوسيّ: كيف حملته بعد شدة جفائه بك وقبيح

مكافأته إحسانك إليه؟ قال المجوسي: اعتذَر إلي وقال: مذهبي كيتَ وكيتَ، وقد صار جَبلة وطبيعة ثابتة لطُول الدُّؤوب فيه وجرَيان العادة به، يصعبُ الإقلاعُ عنها والتركُ لها، وأنا أيضاً قد اعتقـدت رأياً وسلكت مذهباً صار لي عادةً وجُبلة، فيصعبُ الاقلاعُ عنها والتركُ لها.

وإذ قد تبيَّن بما ذكرنا أن العِلَلَ الـمُوجبة لاختلاف أخلاق النفوس، والأسباب المؤدية إليها أربعة أنواع حسبُ، كما قلنا في أول الرسالة فنقول الآن ان الأخلاق كلّها نوعان، إما مطبوعة في جبلة النفوس مركوزةٌ فيها، وإما مكتسبة معتادة من جرَيان العادة وكثرة استعمالها؛ ومن وجه آخر أيضاً ان الأخلاق نوعان، منها ما هي أصولٌ وقوانين، ومنها ما هي فروعٌ وتابعة، فنحتاج ان نبيّنها ونفصّلها ليُعرف بعضُها من بعض، إذ كان هذا الفنُّ من المعرفة من العلوم الشريفة النافعة جداً، وخاصّةً لمن له عنايةٌ برياضة النفس وتهذيبها وإصلاح أخلاقها، إذ كانت أخلاق النفوس هي أحَدَ الأسباب المنجية لها من الـهَلكة، المفصّلةِ بعضها من بعضٍ، كما بيّنّا في رسالة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

* * *

فصل في مراتب الأنفس

اعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأن الباري، جلَّ ثناؤه، لما أبدع النفوس واخترعها وأبرز المستكِنَّ والمستجِنَّ من الكائنات، رتَّبها ونظمها كمراتب الأعداد المفردات، كما ذكر تعالى بقوله حكاية عن الملائكة قوله: ﴿وما منّا إلا له مقامٌ معلوم، وإنّا لنحن الصّافّون، وإنّا لنحن المسبّحون﴾

واعلم يا أخي بأن أعداد النفوس كثيرة لا يحصيها إلا الله جلَّ ثناؤه، كما قال: ﴿وما يعلمُ جنودَ ربّك إلا هو﴾ ولكن نحتاج أن نذكر طرفاً من مراتبها ومقاماتها الجنسية، إذ كانت الأنواع والأشخاص لا يمكن تعديدها ولا يعلمها إلا هو.

واعلم يا أخي بأن مراتب النفوس ثلاثة أنواع، فمنها مرتبة الأنفسُ الإنسانيّة،

ومنها ما هي فوقها، ومنها ما هي دونها؛ فالتي هي دونها سبعُ مراتب، والتي فوقها سبعٌ أيضاً، وجملتها خمس عشرة مرتبة. والمعلوم من هذه المراتب التي ذكرناها عند العلماء، ويمكن لكل عاقلٍ أن يعرفها ويحسَّ بها، خمسٌ، منها اثنتان فوق رتبة الإنسانية وهي رتبة الملكية والقدسيّة، ورتبة الملكيّة هي رُتبة الحِكميّة، ورتبة القدسيّة هي رتبة النبوّة والناموسية، واثنتان دونها وهي مَرتبة النفس النباتيّة والحيوانية، ويعلمُ صِحّةَ ما قُلنا وحقيقة ما وصفنا، الناظِرون في علم النفس من الحكماء والفلاسفة وكثير من الأطباء.

وأما الرتبتان اللتان فوق رُتبة الإنسانيّة فهي مَرتبة الحِكمة وفوقها الناموسيّة؛ وأما مرتبة الإنسانية فهي التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿لقد خلقنا الإنسانَ في أحسن تقويمٍ﴾، وأما التي فوق هذه فما أشار اليه بقوله: ﴿ولما بلغ أشُدّه واستوى﴾ يعني الإنسانَ ﴿آتيناه حُكْماً[1] وعلماً﴾. وقال أيضاً: ﴿أو من كان مَيتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمَن مَثَلُه في الظُلُمات ليس بخارجٍ منها﴾ يعني الإنسان أحيينا نفسه بنور الهِداية، وهذه هي مَرتبةُ نفوس المؤْمنين العارفين والعلماء الراسخين.

فأما التي فوقها فمرتبةُ النفوس النَّبَويّة الواضعين النواميس الالهيّة، وإليها أشار بقوله جلَّ ثناؤه: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجات﴾ وهذه المرتبة تلي مرتبة القُدسية الملكيّة. فقد تبيَّن، بما ذكرنا، المراتبُ الخمسُ التي يمكن الإنسانَ أن يعلمها ويحسّ بها. فأما المراتب التي دون النباتيّة وفوق القُدسية فبعيدةٌ معرفتها على المرتاضين بالعلوم الالهيّة، فكيف على غيرهم. وإذ قد فرغنا من ذكر ما أردنا ان نقدّمه فنقول الآن ونخبر بكل ما يخصّ كل نوع من هذه النفوس الخمس من المعونة والتأييد.

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، أن الله، جلَّ ثناؤه، لما ربَط الأنفس الجزئية بالأجسام الـجُزئية للعِلّة التي ذكرناها في رسالة «الإنسانُ عالَمٌ صغيرٌ» أيّدها

---

١ حكماً: أي حكمة.

وأعانها بضروب من المعاوَنة وفنونٍ من التأييدات: كلُّ ذلك جودٌ منه ولُطفٌ لها، وانعامٌ منه عليها، وإفضال وإحسان إليها، وإكرام لها، وذلك أنه كلما بلغت نفسٌ منها رُتبةً ما، أمدّها بزيادةٍ فضلاً منه وجوداً، أو نقلها إلى ما فوقها وأرفع منها وأعزَّ وأشرفَ وأجلَّ وأكرمَ: كلُّ ذلك ليُبلِّغها إلى أقصى مدى غاياتها وتمام نِهاياتها، وإذ قد تبين بما ذكرنا، مراتبُ النفوس الخمس، وما الفائدة والحكمة في رباطها بالأجسام، فنزيد أن نذكُر ما يخصُّ كلَّ نوع منها من المعاونة والتأييد، وهي القوى الطبيعية، والأخلاقُ المركوزة، والهياكل الجسمانيـة، والأدوات الجسـدانيـة، والشُّعوراتُ الحِسيّة، والأوهامُ الفكرية، والحركات المكانية، والأفعال الإراديّة، والأعمال الاختياريّة، والصنائعُ الحكميّة والأوضاعُ الناموسيّة، والسياسات الملَكوتيّة؛ ونبدأ أولاً بذكر الشهوات المركوزة في الجِبْلة والقوى الطبيعيةِ المُعينة لها، إذ كانت هي الأصلَ والقانونَ في جميع القوى والأخلاق والخِصال والأفعال والحركات والحِسّ والشعور بها ومن أجلها كما سنبيّن بَعدُ.

فصل

واعلم يا أخي بأن من الأخلاق والقوى ما هي منسوبةٌ إلى النفس النباتية الشَّهوانيّة، ومنها ما هي منسوبةٌ إلى الحيوانية الغَضَبيّة، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الإنسانية الناطقة، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس العاقلة الحِكميّة، ومنها ما هي منسوبة إلى النفس الناموسيّة الـمَلَكيّة. فأما المنسوبة إلى النفس الشَّهوانية من الخِصال والقوى التي تخصُّها، فأولها شَهوة الغِذاء، وهي النزوع والشوق نحو المأكولات والمشروبات والمشتَهَياتِ، والرغبةُ فيها، والحِرصُ في طلبها، واحتمالُ المشقّة والذل من أجلها، والفرحُ والسرور بوجدانها، والراحةُ واللّذة في تناولها، والمللُ والشّبَع عند الاستكفاء منها، والنفورُ من الضارّ منها والبغضُ له، ومن القُوى المختصّة بها أيضاً القوة الجاذبة والماسِكة والهاضِمة والدافعة والغاذية والنامية والمصوِّرة؛ ومن الشعور والتمييز معرفةُ الجهات الست، ومن الأفعال إرسالُ العروق نحو الجِهات النَّديّة والترابِ الليّن، وتوجيهُ الفروع والقُضبان إلى الجهات المتَّسِعةِ، والميلُ والانحرافُ عن

الأمكنة الضيّقة والأجسام المؤذية.

كل هذه الخِصال مركوزة في الجِبْلة من غير فكر ولا رويّة، وكلُّ ذلك معاونةٌ من الطبيعة لنفوسها وتأييدٌ لها بإذن باريها، جلّ ثناؤه، على طَلَب مُشتَهياتِها والوصول إلى منافعها، والفرار من الـمُضِرّة منها.

فصل في فضل طلب العلم

واعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأن الله، جلّ ثناؤه، قد فرضَ على المؤمنين أشياءَ كثيرةً يفعلونها، ونهاهم عن أشياءَ كثيرةٍ يتركونها، كما قلنا آنفاً. ولكن ليس من فريضة من جميعِ مفروضاتِ الشريعة وأحكامِ الناموس أوجبُ ولا أفضلُ ولا أجلُّ ولا أشرفُ ولا أنفعُ لعبدٍ، ولا أقربُ له إلى ربّه بعد الإقرار به، والتصديق لأنبيائه ورسله فيما جاؤوا به وخبّروا عنه، من العلم وطلبِهِ وتعليمه. وبيانُ ذِكر شرَفِ العلم، على ما ذكرناه من فضيلته وجلالته وفضلِ طلبِهِ وتَعلّمه، ما رُويَ عن النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: تعلّموا العلم فإن في تَعلّمه لله خشيةً، وطلبُه عبادةٌ، ومذاكَرتُه تسبيحٌ، والبحثُ عنه جهادٌ، وتعليمُه لمن لا يَعلَمونه صدَقةٌ، وبذله لأهله قُربة، لأنه معالِمُ الحلال والحرام، ومنارُ سبيل الجنّة، والمؤنسُ في الوَحْدة والوحشة، والصاحبُ في الغُربة، والدليلُ على السَّرّاء والضَّرّاء، والسلاحُ على الأعداء، والـمُقرّب عند الغرباء، والزَّيْنُ عند الأخِلاء، يرفعُ اللهُ به أقواماً فيَجعلُهم في الخير قادةً يُهتَدى بهم، وأئمّةً في الخير تُقتَفى آثارهم، ويوثَق بأعمالهم، ويُنتَهى إلى آرائهم، وترغب الملائكة في خُلّتِهم[1]، وبأجنحتها تمسَحهم، وفي صلاتها تستغفر لهم، ويستغفِر لهم كلُّ رطبٍ ويابس، حتى الحيتانُ في البحر وهوامُّه، وسِباعُ البرّ وأنعامه، والسماءُ ونجومُها، لأن العلم حياةُ القلب من الجهل، ومصابيحُ

---

[1] الخلّة بالضم: الصداقة.

الأبصار من الظُّلَم، وقوّةُ الأبدان من الضَّعف، يبلُغ به العبد منازلَ الأحرار ومجالسَ الملوك، والدَّرجاتِ العُلى في الدنيا والآخرة، والفِكرُ فيه يُعَدَّلُ بالصيام، ومُدارَستهُ بالقِيام[1]؛ به يطاعُ الله، وبه يُعبَدُ، وبه يُعلم الخيرُ، وبه يُتورَّع، وبه يُؤْجر، وبه تُوصَل الأرحام، وبه يُعرف الحلال والحرام. واعلمْ أن العِلمَ إمامُ العمل، والعملُ تابِعُه، ويُلهِمه الله السعداء، ويَحرِمُه الأشقياء.

فصل

واعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأن طالب العلم يحتاج إلى سبع خِصالٍ، أولُها السؤال والصمت، ثم الاستماع، ثم التفكُّر، ثم العمل به، ثم طلب الصدق من نفسه، ثم كَثرة الذِّكر أنه من نِعم الله، ثم تركُ الاعجاب بما يُحسِنه. والعِلمُ يكسب صاحبَه عشرَ خِصال محمودة، أولها الشرفُ وإن كان دنياً، والعزُّ وإن كانَ مَهيناً، والغِنى وإن كان فقيراً، والقوةُ وإن كان ضعيفاً، والنُّبلُ وإن كان حقيراً، والقربُ وإن كان بعيداً، والقَدْرُ وإن كان ناقصاً، والجُودُ وإن كان بخيلاً، والحياءُ وإن كان صَلِفاً، والمهابة وإن كان وضيعاً، والسلامةُ وإن كان سقيماً. وقال الله، جلَّ ذِكرُه: ﴿هل يستوي الذين يَعلمون والذين لا يَعلمون إنما يتذكّر أُولو الألباب﴾ وقال سبحانه: ﴿إنما يخشى اللهَ من عِبادهِ العلماءُ﴾ وقال: ﴿ومن يُؤْتَ الحِكمَة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً﴾ وآياتٌ كثيرة في القرآن في مَدحِ العلماء وفضائلهم، وحُسن الثناء عليهم في مثل ذلك.

واعلم يا أخي بأن للعلماء، مع كثرة فضائل العلم، آفات وعيوباً وأخلاقاً ردّيةً تحتاج أن تتجنَّبها وتتحذَّرها، فمنها الكِبْرُ والعُجب والافتخار. وقد رُوي عن رسول الله أنه قال: من ازداد عِلماً ولم يزدَدْ لله تواضُعاً، وللجُهّال رحمةً، وللعلماء مودّةً، لم يَزدَدْ من الله إلاّ بُعداً، ومنها كثرة الخلافِ والمنازِعة فيه، وطلبُ الرياسة به،

[1] القيامك أي القيام للصلاة.

والتعصّبُ والعداوة والبغضاء فيما بينهم. وقال لُقمانُ الحكيم لابنه: يا بُنيَّ جالِسِ العلماء وزاحِمْهُم بركبتيك، فإن الله يُحيي القلوبَ الميْتَةَ بنور العِلم، كما تحيا الأرضُ الميتةُ بوابل المطر؛ وإياك ومنازعة العلماء، فإن الحِكمة نزلت من السماء صافيةً، فلما تعلّمها الرجالُ صرّفوها إلى أهواء أنفُسِهم. ومن آفاتِ العلماء الخوضُ في المشكِلات، والترخيص[1] في الشُّبُهاتِ، وتركُ العمل بموجبات العِلم. ومن آفاتِ العلماء أيضاً كثرةُ الرّغبة في الدنيا وشِدّةُ الحِرص في طلبها. وقد قيل في المثل: إن حُبَّ الدنيا رأسُ كل خطيئة، والحِرصَ في طلبها مرضٌ للنفوسِ وسقامٌ لها؛ وعلماءُ أحكامِ الناموس هم أطبّاء النفوس ومُداوُوها، فمَثَلُ العالم الراغب في الدنيا، الحريصِ على طلب شهواتها، كمثَل الطبيب المُداوي غيره وهو مريضٌ لا يُرجى صلاحُه، فكيف يشفي المريضَ بعلاجه؟ وقد قيل إن عالماً زاهِداً في الدنيا، يكون عالِماً بدين الله، وبصيراً بطريق الآخِرة، خيرٌ من ألفِ عالم راغبٍ فيها. وقال المسيح، عليه السلام: أيها العلماءُ والفقهاء قعَدتم على طريق الآخِرة، فلا أنتم تسيرون إليها فتَدخلون الجنة، ولا تتركون أحَداً يجوزكم فيصلُ إليها، وان الجاهل أعذَرُ من العالِم، وليس لواحدٍ منها عُذر.

واعلم يا أخي بأن كل علمٍ وأدب لا يؤدي صاحبه الى طلب الآخِرة، ولا يُعينه على الوصول إليها، فهو وبالٌ على صاحبه وحُجَّةٌ عليه يوم القيامة، وذلك أن الملوك والجبابرةَ والفراعنة والقرونَ الماضيةَ كانت لهم عقولٌ رضيَّةٌ، وآدابٌ بارعة، وسياسةٌ وحكمةٌ وصنائعُ عجيبة، وهكذا من كان يعاشرهم وينادمهم ويَقرُب إليه، من وزرائهم وكتّابهم وعُمّالهم وقوّادهم وعلمائهم وأدبائهم، ولكن هلكوا من أجل انهم صرّفوا تلك القُوى والعقولَ والافهام وأكثر أفكارهم وتمييزهم ورويّتهم في طَلَب شهوات الدنيا والتمتع بلذّاتها ونعيمها، بالرغبة الشديدة والحِرْص والتمني للخلود فيها، وجعلوا أكثرَ كدّهم وسعيهم في صَلاح أمور الدنيا، حتى عَمّروها وأهملوا الآخِرة وذِكْرَ المَعاد، ولم يستعِدّوا له، وذكَروا الدنيا وغَفَلوا عن الآخرة ولم

---

١ الترخيص: التساهل.

يتزوّدوا من الدنيا، وتركوها لغيرهم، ورحلوا عنها كارِهين، فصارت تلك النّعمُ وبالاً عليهم، إذ لم ينالوا بها الآخِرة، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخُسرانُ المُبين.

وانما أكثرَ اللهُ سبحانه في القرآن ذمَّ هؤلاء وسُوءَ الثناء عليهم، لكيما يَعتبرُ بهم المُعتبرون ممن يجيء بعدَهم، ويتَّعِظون بحالهم، ولا يغتَرُّون بالدنيا كاغترارهم، كما قال الله، جلَّ ذكره: ﴿فلا تَغُرنَّكُم الحياةُ الدنيا، ولا يَغُرنَّكُم بالله الغَرورُ﴾ وقال: ﴿إنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولَهوٌ وزينة﴾ إلى آخر الآية. وقال تعالى ذِكرُه: ﴿زُيّن للناس حُبُّ الشَّهوات من النّساء والبَنِينَ والقناطيرِ المُقَنطَرةِ﴾ الآية. وقال: ﴿إنما مَثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء، فاختَلط به نباتُ الأرض، فأصبح هَشِيماً تَذره الرياح، وكان الله على كلِّ شيءٍ مُقتدراً * المالُ والبَنون زينةُ الحياة الدنيا، والباقياتُ الصالحات خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ وآيات كثيرة في القرآن في ذمّ الراغبين في الدنيا، والتحذير منها ومن غُرورها وأمانيها، كلُّ ذلك نُصحٌ من الله، سبحانه، لعباده المؤمنين، ولُطفٌ بهم ونَظَرٌ ورحمة، لئلا تفوتهم الآخرةُ كما فاتت أولئك، ولئلا يكون للناس على الله حُجةٌ بعد الرسُل، ليَهلك من هَلَك عن بيّنةٍ، ويحيا من يحيا عن بيّنة، قال الله تعالى: ﴿تلك الدارُ الآخِرةُ نجعلها للذين لا يُريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً، والعاقِبةُ للـمُتّقِين﴾.

فصل في نسبة الأخلاق

واعلم يا أخي، أيّدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأن من الأخلاق الـمُكتسَبة ما هي محمودة منسوبة إلى الملائكة، كما سنبينها بعدُ، ومنها ما هي مذمومة منسوبة إلى الشيطان، وهي كثيرة نحتاج أن نبينها ونشرَحَها، ليَظهر الفرقُ بينهما، ويعرِفَها إخوانُنا الكرام، فيتجنبوا أخلاق الشياطين ويتركوها، ويتخلّقوا بأخلاق الملائكة الكرام ويُؤثِروها، ويجتهدوا في اكتسابها، إذ كانت أخلاق النفوس هي أحد الأربعة الأشياء التي لا تُفارِق النَّفسَ بعد مُفارقتها الأجسادَ، وعليها أيضاً تُجازى النُّفوس

إن خيراً فخيراً، وإن شراً فشراً. وهذه الأربعة الأشياء التي ذكرنا ان النفس تُجازى عليها بعد الفراق، أوّلها الأخلاق المكتَسَبةُ المعتادةُ، والثاني العلومُ التعليمية، والثالث الآراء المُعتَقَدةُ، والرّابع الأعمالُ المكتَسَبة بالاختيارِ والإرادةِ. فمن اخلاقِ الشياطين أوّلها كِبْرُ إبليسَ، وحِرصُ آدمَ، وحسَدُ قابيلَ[1].

واعلم يا أخي بأن هذه الخِصال الثلاث هي أمهات المعاصي وأصول الشُرور، ولها اخوات مُشاكِلات لها، وفروع وأغصان مُتفنّنات منها نحتاج أن نذكُر طرَفاً منها ليُعلَم صحةُ ما قلنا، ويُعرَف حقيقة ما وصفنا.

فمن أخوات الكِبْر وأشكاله عُجْبُ المرء برأي نفسه، والأنَفةُ عن قَبُول الحق، وتركُ الإقرار به، والانقيادِ لأمر الآمر والناهي الواجبِ الطاعة، والتعدّي والخروج عن الحد الواجب والحق اللازم، والظلمُ والجور عند القدرة في الحكومات، وترك الإنصاف في المعاملة، والتهاون في الواجبات، والإعراض عن اللوازم من الحقوق، والقِحَة والصلابة في الوجه في دَفعِ الحقّ والعِيان والضرورات والفُحش والسفاهة في الخِطاب، والجِدال، واللّجاجُ في الخصومات، والخُرق[2] والنَّزَقُ في العِشرة، والحِدَّة والطيش في التصرُّف، والغشُّ والمكر في المعاملة، والاستصغار والاحتقار لأبناء الجنس، والاستطالة عليهم والافتخار في الأمور بما خُصَّ من المواهِب، والإنكارُ لفضل من فضُلَ عليه، والبغيُ والعدوان وما شاكلها من الخِصال المذمومة والأخلاق الرديئةِ والأفعال السيئة والأعمال القبيحة.

ومن أخوات الحِرصِ وأشكاله الطمعُ الكاذب، وشدّة الرغبة، والطلب الحثيث، والعجَلةُ في السعي، وتعبُ البدن، وعناء النفس، وكدُّ الروح في الجمع والادخار، والاستكثار والاحتكار من خوف الفقر، والبخلُ والمنعُ والشّحُّ واللؤمُ والنَّكَدُ[3] وما يتبعها من الشُؤم والخذلان، وقلّة الانتفاع بالموجود، والحِرمان من المذخور، والمضايقة

---

١ قابيل: أخو هابيل.

٢ الخرق: الحمق.

٣ النكد: الاشتداد والمنع.

في المعاملة، والمناقشة في المحاسبة، وسوء الظنّ بالأمين، والتهمة للثقات والمؤتَمَنين، والخيانةِ في الأمانة...

فصل في العلم والتعلُّم والتعليم

واعلم أن العلم ليس بشيء سوى صورةِ المعلوم في نفس العالِم، وأن الصَّنعة ليست شيئاً سوى إخراج تلك الصورة التي في نفس الصَّانع العالِم ووَضعها في الهَيُولى.

واعلم يا أخي أن أنفُس العلماء علاَّمةٌ بالفعل، وأنفُس المتعلمين علاَّمة بالقُوَّة، والتعليمُ ليس شيئاً سوى إخراج ما في القُوَّة إلى الفعل، والتعلُّم هو الخروج من القُوَّة إليه، وأن كلّ شيء بالقوة لا يخرج إلى الفعل إلاَّ لشيء هو بالفعل يُخرجُه إليه، وأن النَّفس الكُلِّيّة الفلكية هي علاَّمةٌ بالفعل، والأنفُسَ الـجُزئية علاَّمةٌ بالقُوَّة. فكل نفس جُزئية تكون أكثر معلوماتٍ وأحكمَ مصنوعات، فهي أقربُ إلى النَّفس الكُلِّيّة، لقُرب نسبتِها إليها وشِدَّةِ شَبَهِها بها، كما قيل في حَدّ الفلسفة إنها التشبُّه بالإله بحسَب الطاقة الإنسانيَّة. فاجتهد أن تكتسب معلوماتٍ كثيرةً تكُنْ أفعالك كلُّها حِكمية زكيَّة، فإنها القِنْيةُ الروحانيَّة، كما يجتهد أبناءُ الدنيا في اكتساب المال الذي هو القِنْيةُ الجسديَّة.

واعلم أنه كما أن المال يتمكَّنُ الإنسانُ به مما يريده من اللَّذات في الدنيا وطيبِ العيش، فهكذا بالعلم تتمكن النَّفس من اللَّذات في الدَّار الآخِرة، وبالعلم يتقرَّبُ إلى الله أبناءُ الآخِرة، وبه يتفاضل بعضُهم على بعض، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟﴾ الآية.

واعلم أن بالعلم تحيا النُّفوس من مَوت الـجَهالة، وبه تنتبه من نَوم الغفلة كما قال الله: ﴿أوَ مَن كانَ مَيْتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به﴾ الآية. فالعلم يهديـك إلى طريق ملكوت السماء، ويُعينك على الصُّعود إلى هناك، كقوله تعالى: ﴿إليه يَصعدُ

الكَلِمُ الطيّبُ والعملُ الصالح يرفَعهُ﴾. وأخبَرَ عن أهل الـجَهالة فقال تعالى: ﴿لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماء، ولا يدخُلون الجنَّة حتى يَلِجَ الـجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾. وهذا وعيدٌ لهم بالإياسِ عن الصُّعود إلى ملكوت السماء، فأُعيذك أيها الأخ أن ترضى بأن تكون منهم أو معهم، وقيل إن المرء مع من أحبَّ، بل كُنْ من الذين أمرهم رسول الله فقال: كُنْ عالماً أو متعلماً، أو تجالس العلماء أو تحب العلماء، وإيَّاكَ والخامِسَ، إلاَّ أن تكون من الطوائف.

الفصل الثاني ❁ نصوص مختارة من المجلد الثاني

من الرسالة التاسعة

تركيب الجسد

* * *

فصل في كيفية تركيب الجسد
وكيفية أخلاط البدن ومزاج الطبائع

فنقول: اعلم، وفقك الله، أن الباري تعالى لما خلق الجسد وسوّاه ونفخ فيه من روحه وأحياه، ثم أسكن فيه النفس وأولاه، وكان مثْل أساسِ بنية الجسد وتركيب أجزائه وتأليف أعضائه كمثَلِ أساس بناء مدينة بُنيت من أشياء مختلفة كالحجارة والطين والآجُرّ والنُّورة والرمال والخشب والأجذاع والحديد وما شاكلها، فأحكم بِنيتها، وشِيد بُنيانها، وحصَّن سورها، وخطّطت شوارعها، وقُسمت محالُّها، وزيّنت مجالسها، ورتبت منازلها، وملئت خزائنها، وأُسكنت دورها، وسُلِكت طرقاتها، وأُجريت أنهارها، وفُتحت أسواقها، واستعمل صناعها، وأُقعِد فيها تجارها، ودبُر مِلكها وخدمَ أهلها.

وذلك أن الله تعالى لما أراد تركيب الجسد ابتدأ أولاً فاخترع اربع طبائع منفردات، متعاديات القوى بسلطانها بعضِها على بعض، ثم ألّف بين كل اثنين منها

وأربعة أركان مزدوجاتِ مؤتلفاتِ الطبائع متناسبات القوى من أركانها ثم أسس بِنية هذا الجسد من هذه الأربعة الأركان التي هي أساس لِبْناتهـا ثم ابتدأ بنيانها من أربعة أخلاط متعاديات طباعُها، متناسباتٍ قوُاها التي هي مجموعات من أثل اركانها.

ثم جمع هذه الأربعة الأخلاط، فخلق منها تسعة جواهر مختلفةٍ أشكالها، هي ملاك بنيانها. ثم ألَّفها وركّب بعضها فوق بعض عشر طبقات متصلات بهندامها. ثم أسندها وأقامها بمائتين وثمانية وأربعين عموداً مستويات الفذ أقراناً. ثم سمرها ومد حبالها وشدَّ أوصالها بسبعمائة وخمسين رباطاً ممدودات، محتويات، ملتفات عليها كالحبال، وفصلها حذراً من نقضها ونقصانها. ثم قدَّر بيوتها وقسم خزائنها. وأودع إحدى عشرة خزانة معمورة مملوءة من الجواهر مختلفةً أنواعها وألوانها. وخط شوارعها، وأنفذ طرقاتها، وفتح أبوابها، وجعل لها ثلثمائة وستين مَسلَكاً لسكّانها، واستخرج منها عيوناً، وشقَّ فيها أنهاراً هي ثلثمائة وتسعون جدولاً مختلفات في الجهات لجريانها. وفتح على سروها اثني عشر رَوزناً[1] مزدوجات المسالك لجريانها. وأحكم بناء هذه المدينة على أيدي سبعة صنَّاع متعاونين، هم خدامُها، ووكَّل بحفظها خمسة حراس حرَّاساً على حفظ أركانها.

ثم رفع هذه المدينة في الهواء على رأس عمودين، وحرَّكها على ست جهات بجناحين، ثم أسكن فيها ثلاث قبائل من الإنس والجنّ والملائكة، وجعلهم سكانها، ثم رأس عليهم ملكاً واحداً، وعلّمه اسماء من فيها، وأمره بحفظها، وأوصاه بسياستهم فقال: « أنبئهم بأسمائهم، وأمرهم بطاعته، فقال تعالى: « اسجدوا لآدم، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلاّ إبليس أبَى واستكبر ».

فأما تفصيل تلك الطبائع المفردات الأربع: « فالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة. والأركان الأربعة المزدوجات الطباع، المتناسباتُ القوى، هي النار والهواء والماء والأرض، والاخلاط الأربعة المتعاديات الطباع هي الصفراء والدم والبلغم

---

[1] الروزن او الروزنة: الكوة.

والسوداء. والجواهر التسعة هي العظام والمُخ والعصب والعروق والدم واللحم والجلد والظُفر والشعر. والطبقات العشر هي الرأس والرقبة والصدر والبطن والجوف والحَقْو والوركان والفَخذان والسَّاقين والقَدمان.

وأما الأعمدة فهي العظام. والرّباطات هي الأعصاب.

وأما الخزائن الإحدى عشرة فهي الدماغ والنخاع والرئة والقلب والكَبد والطّحال والمرارة والمِعدة والأمعاء والكَليتان والأنثيان والشوارع والطرقات هي العروق الضواربُ. والأنهارُ هي الأوردة.

وأما الأبواب الأثنا عشر فهي العينان، والأذنان، والمنخِران، والسبيلان والثّديان، والفم، والسُّرة.

وأما الصُنَّاع السبعة فهي القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمُصوِّرة.

وأما الحواس الخمس فهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

وأما العمودان فهما الرَّجلان، وأما الجَناحان فهما اليدان.

وأما الجهات الست فهي قدام وخلف ويَمنة ويَسرة وفوق وتحت.

وأما القبائل الثلاث فهي النفوس الثلاث وقواهنّ وأفعالهن، فالنفس الشهوانية، وأخلاقها وأفعالها هي كالجِن، والنفس الحيوانية وأخلاقها واحوالها هي كالانس، والنفس الناطقة وتمييزها ومعارفها هي كالملائكة، والرئيس الواحد هو العقل.

فصل في أنَّ الجسد كالدار وأنَّ النفس كالساكن في الدار

اعلم أن النظر في ماهية النفس مجردة من الجسد، والتصوُّر بذاتها خلو منه، عسر جداً على المرتاضين بالرياضيات الحِكمية، فكيف على غيرهم؟ ولكنه إذا نظر الى ما يظهر من أفعالها من الجسد، واعتبر تصرف أحوالها مع الجسد، يسهل عليه ذلك،

ويقرب من فهم المتعلمين، والتصوُّر في أفكار المتفكرين، وجودها وتبيُّنُ شرف جوهرها. ونريد أن نبيّن من ذلك طرفاً ونضرب أمثالاً كما يكون أوضح للبيان وأقرب من فهم المبتدئين، وأبلغ للتصوُّر في أفكار المفكرين.

فنقول: اعلم أن هذا الجسد لهذه النفس هو بمنزلة دار لساكنها كما بُنِيت وأُحكم بناؤها، وقُسمت بيوتها، وملئت خزائنها، وسُقفت سطوحها، وفُتحت أبوابها، وعُلقت ستورها، وأعد فيها كلّ ما يحتاج إليه صاحب المنزل في منزلة من الفُرُش والأواني والأثاث والمتاع على أتم ما يكون وأكمله وأتقنه. فرجلاه وقيام الجسد عليهما كأساس الدار. ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة في أعلى الدار. وظهره من خلفه كظهر الدار. ووجهه أمامه كصدر الدار. ورقبته وطولها كرواق الدار. وفتح حُلقومه وجريان الصوت فيه كدِهليز الدار. وصدره في وسط بدنه كصحن الدار. والأوعية التي في صدره كالبيوت والخزائن في الدار. ورئته وبَردها كالبيت الصيفي. والخيشوم وجريان النفس في الحُلقوم كالباداهج. وقلبه مع الحرارة الغريزية كالبيت الشَّتويّ. ومَعدته ونَضج الغذاء فيها كالمطبخ. وكبدِه وحصول الدم فيه كبيت الشراب. ومجاري عروقه وجريان الدم والنَّبض الى سائر أطراف البدن كمسالك الدار. وطِحاله وحُصول عكَرِ على الدم فيه كخزانة الأثاث.

مثال ذلك إذا رأى الإنسان السَّراب، فظنَّ انه الماء، فليست الباصرة هي المخطئة، ولكن المفكّرة حكمت بأن ذلك المتلوّن يناله اللمس والذوق، وهو جسم سيّال رطب، فلما جاءه لم يجده بهذا الوصف، فإن خطؤها. فسبيل المفكّرة إذا أدَّت إليها المتخيّلة أثر حاسة واحدة، ألاَّ تحكم أو تستخبر حاسة أُخرى. فإن شهدت لها، حكمت عند ذلك بأنها كَيت وكيت، مثال ذلك إذا رأت الباصرة تفاحة معمولة من الكافور، مصبوغة كلون التفاح، فأوردت خبرها الى المتخيّلة، فأوردتها هي إلى المفكّرة، فليس سبيلها أن تحكم أن طعمها ورائحتها ومَلمَسها مثلُ التفاحة التي هي الثمرة، أو تستخبر قوَّة الذائقة والشامّة واللامسة. فإذا أخبرت كل واحدة منها بما لها أن تُخبِر به، حكمت عند ذلك المفكّرة بأنها كَيت وكَيت، حتى يكون حكمها

صواباً لا خطأ فيه.

ثم اعلم أن من أجل هذه العلّة مُنعت القوّة الناطقة أن تعبر عن ألسنة الأطفال حُكم شيء من معاني المحسوسات، لأن المفكّرة بعدُ لم تُحكم معانيها، ولم تميزها تمييزاً صحيحاً. فإذا مضت سنون التربية ودفع القمر التدبيرَ إلى عُطارد المنطق والتمييز، أُطلق لسان المولود بالعبارة والبيان عن معاني المحسوسات التي أدّت الحاسّة إلى المفكّرة.

فصل في ماهية اللذة والألم والتعب والراحة وكيفية إدراك الحواس

فنقول: اعلم أن الحيوانات في دائم الأوقات لا تخلو من اللذة والألم والتعب والراحة، لأن أبدان الحيوانات مركّبة من مِزاج الأمهات الأربع، وهي الإخلاط الأربعة، وهي متضادّات الطباع من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، وهي كلها في التغيير والاستحالة بين الزيادة والنقصان، وهما يُخرجان المِزاج تارة من الاعتدال إلى الزيادة في أحد الأخلاط والطباع، أو إلى النقصان في واحد منها، واللذة هي رجوع المِزاج إلى الإعتدال بعدما كانت خارجة عنه. فمن أجل هذا لا يُحس الحيوان باللذة إلاّ بعدما يتقدمها ألم.

واعلم أن كل محسوس يُخرج المِزاج من الاعتدال، فإن الحاسة تكرهه وتتألم منه. وكل محسوس يردّ المِزاج إلى الاعتدال، فإن الحاسة تحبه وتلتذ به.

ثم اعلم أن الراحة هي الثبات على الصحة والاعتدال، وأن التعب هو التردد بين الألم واللذة.

ثم اعلم أن من نظر في هذه الرسالة وتفكر فيما وصفنا من كيفية أحوال هذه الحواس والمحسوسات، تبين له أن المحسوسات كلها أعراض جسمانية، وهي صور في الهيُولي، وأن إدراك النفس لها بقواها الخمس الحساسة بطريق الحواس؛ وأن الحواس

هي آلات جسدانية، وأن الحس إنما هو تغيير مزاج تلك الحواس عن مباشرة المحسوسات لها، وأن الإحساس إنما هو شُعور القوى الحسَّاسة بتغييرات تلك الأمزجة.

فصل في ذكر القوى الخمس الروحانية

فنقول: اعلم، وفقك الله، أن للنفس الإنسانية خمس قوى أُخر روحانية سِيرتُها غير سيرة الخمس الحساسة الجسمانية، وهي القوة المتخيّلة والمفكّرة والحافظة والناطقة والصانعة، وذلك بإدراكها رسوم المعلومات إدراكاً روحانياً من غير هَيُولاها. فأما الحسَّاسة فلا تُدرك محسوساتها إلا في الهَيُولي كما بينا قبل. وأيضاً فإن هذه القوى الروحانية تتناول رسوم المعلومات بعضها من بعض على غير سيرة الحسَّاسة، وذلك ان القوى الحساسة كلٌ واحدة منها مختصة بإدراك جنس من المحسوسات، كما بيّنا، وذلك ان الباصرة لا تُدرك الأصوات ولا الطعوم ولا الروائح ولا الملموسات إلا الألوان. وكذلك السامعة لا تدرك الألوان ولا الطعوم ولا الروائح ولا الملموسات ولا الأصوات. وهكذا الشامة والذائقة واللامسة كل واحدة لا تشارك غيرها في محسوساتها.

وأما القوى الخمس الروحانية فإنها كالمتعاونات في إدراكها رسومَ المعلومات، وذلك ان القوة المتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات كلها، وقَبِلتها في ذاتها كما يقبل الشمع نقشَ الفَصّ، فإن من شأنها ان تناولها كلها إلى القوة المفكّرة من ساعتها، فإذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها، بقيت تلك الرسوم مصوَّراً بصور روحانية مجرَّدةٍ عن هَيُولاها، فيكون عند ذلك لها كالهَيُولي، وهي فيها كالصورة.

ثم إن من شأن القوة المفكّرة ان تنظر إلى ذاتها وتراها معايَنةً وتتروى فيها وتميّزها، وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها، ثم تؤديها إلى القوة الحافظة لتحفظها إلى وقت التذكار. ثم إن من شأن القوة الناطقة التي مجراها على اللسان، إذا أرادت الإخبار عنها والإنباء عن معانيها والجواب للسائلين عن معلوماتها، ألقت لها

ألفاظاً من حروف المُعجم، وجعلتها كالسِّماتِ لتلك المعاني التي في ذاتها، وعبّرت عنها للقوة السامعة من الحاضرين.

ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلاّ ريثما تأخذ المسامعُ حظَّها، ثم تضمحل، احتالت الحكمة الإلهية بأن قيّدت معاني تلك الألفاظ بصناعة الكتابة. ثم إن من شأن القوة الصانعة ان تصوغ لها من الخطوط الأشكالَ بالأقلام، وتودعها وجوه الألواح وبطون الطوامير، ليبقى العلم مفيداً فائدة من الماضين للغابرين، وأثراً من الأولين للآخرين، وخطاباً من الحاضرين للغائبين. وهذه من جسيم نعم الله، عز وجل، على الإنسان كما ذكر، جل ثناؤه، فقال:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

فصل في العلة التي من أجلها صار علم الإنسان بالمعلومات من ثلاثة طرق

فنقول: إنه لما كان الإنسان من جملة مجموعة بدنٍ جسماني ونفس روحانية، صار بنفسه الروحانية يُدرِك العلم، كما أنه بجسده الجسماني يعلم الصانع.

ولما كانت النفس في الرتبة الوسطى من الموجودات، كما بيّنا في رسالة المبادي، وذلك أن من الأشياء ما هو أعلى وأشرف من جوهر النفس كالباري تعالى والعقل والصور المجرّدة من الهيولي الذين هم ملائكة الله المقربون.

ومنها ما هو أدوَن من جوهر النفس كالهيولي والطبيعة والأجسام أجمع، فصارت معرفة النفس بالأشياء التي دونها في الشرف بطريق الحواس التي هي المباشَرة والمماسّة والمخالطة والإحاطة.

وأما ما كان أشرف منها وأعلى، فصارت معرفتها لها بطريق البرهان الذي يضطر العقول إلى الإقرار به من غير إحاطة ولا مباشرة. وصارت معرفتها بذاتها وجوهرها

بطريق العقل. لأن نسبة العقل إلى النفس كنسبة الضوء من البصر، وكنسبة المرآة إلى الناظر فيها، فكما ان البصر لا يرى شيئاً من الأشياء إلاّ بالضوء، كالإنسان لا يرى وجهه إلا بالمرآة والنظر فيها، كذلك النفس لا تنظر ذاتها إلا بنور العقل، ولا تعرف حقائق الموجودات إلاّ بالنظر إلى العقل.

وإنما يتسنى للنفس النظر إلى العقل بعين البصيرة، إذا هي انفتحت، وإنما تنفتح لها عين البصيرة، إذا هي انتبهت من نوع الغفلة ورقدة الجهالة، ونظرت بعين الرأس إلى هذه المحسوسات، وفكّرت في معانيها، واعتبرت أحوالها حتى تعرفها حق معرفتها.

فمن أجل هذا قدّمنا رسالة الحاس والمحسوس على رسالة العقل والمعقول، فاعتبر يا أخي هذه الأمور التي وصفنا، وتفكر في معانيها وحقائقها، تنتبّه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتنفتح عين البصيرة، فتعاين في ذاتها صور الأشياء، وتبين في جوهرها معاني الموجودات، لأنها معادن العلوم كلها، ومأوى الحكمة، كما قال الحكيم الفاضل: إن العلوم كلها في النفس بالقوة، فإذا فكّرت في ذاتها وعرفتها، صارت العلوم كلها فيها بالفعل.

تمت رسالة الحاس والمحسوس، ويتلوها رسالة مَسقِط النُّطفة، والحمد لله
على جزيل عطائه وصلواته على خير أنبيائه محمد سيد المرسلين،
وخاتم النبيين والعِترة الطاهرة من أبنائه وسلم تسليماً.

* * *

من الرسالة الحادية عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

* * *

فصل في كيفية حال الجنين في الشهر الرابع

واعلم يا أخي بأنه إذا دخل الشهر الرابع من مَسقَط النُّطفة وصار التدبير للشمس، واستولت على المُضغة قوى روحانياتها، نفخت فيها روح الحياة، وسرت فيها النفس الحيوانية، وذلك لأن الشمس هي رئيسة الكواكب في الفلك، ونفسها هي روح العالم بأسره، وهي المستولية على الكائنات التي دون فلك القمر، وخاصة على مواليد الحيوانات ذوي الرَّحم، وأشدّ اختصاصاً بمواليد الإنس، وذلك ان جِرمها في العالم بمنزلة جِرم القلب في البدن، وسائر أجرام الكواكب والأفلاك بمنزلة أعضاء البدن ومفاصل الجسد. وسريانُ قوى روحانياتها في العالم كسريان الحرارة الغريزية المنبّثة من القلب السارية في أعضاء البدن.

وأما سائر قوى روحانيات الكواكب، فهي لها كالجنود والأعوان والخدم، كلٌّ ذلك بإذن الباري جل ثناؤه، وذلك تقدير العزيز العليم، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم اعلم يا أخي أنها بمسيرها في حدود الكواكب في البروج، وشدة إشراق نورها، وسريان قوى روحانياتها، تُحطُّ من الفلك إلى عالم الكون والفساد، الذي تحت فلك القمر، من قوى روحانيات الكواكب والأفلاك والبروج، في كل يوم ساعة في درجة ودقيقة، ألواناً من التدبير والتأثير غير ما في يوم آخر وساعة اخرى، لا يبلغ فهمُ البشر كنُه معرفته، ولكن نذكر من ذلك طرفاً ليكون قياساً على ما قلناه، ودليلاً على ما أوضحناه ووصفناه. وذلك انه إذا سقطت نُطفة في الرحِم، فلا بد ان تكون الشمس في درجة من برج من الأبراج، فإذا بلغت بمسيرها أربعة أشهر من مسقط النُطفة إلى آخر البرج الرابع، وقد قطعت من الفلك ثُلثَ الدور، وهو من المسافة بمقدار ما بين شَرفها إلى بيتها، تكون قد استوفت طبائع البروج النارية والترابية

والهوائية والمائية. وعند ذلك تكون قد اختلطت الطبائع من الأركان الأربعة في تركيب بنية الجنين، واعتدل المِزاج وانتَقشت الصورة، وأُنشئت الخِلقة، وظهرت أشكال العظام، ورُكبت المفاصل، وتهندم التركيب، والتفَّت الأعصاب على المفاصل، وامتدت العروق في خَلَل اللحم، وظهرت البنية محلَّقة[1] غير مُخلَّقة[2].

فصل في كيفية الجنين في الشهر الخامس

اعلم يا أخي بأنه إذا دخل الشهر الخامس، وسارت الشمس إلى البرج الخامس المسمى بيت الولد، الموافق طبيعتُه للبرج الذي كان فيه يوم مَسقَط النطفة، وصار التدبير للزُّهرة الساعد الأصغر، وصاحبة النقش والتصاوير، واستولى على المُخلَّقة قوى روحانياتها، ارتسمت الخلقة، واستكملت البنية، وظهرت صورة الأعضاء، واستبان رسم العينين، وانشق المَنخران، وانفتح الفم، وثُقب الأذنين، ومجرى السبيلين، وتميزت المفاصل، ولكن الجنين يكون مجموعاً منظماً، منقبضاً كأنه مصرور في صُرَّة، ركبتاه مجموعتان الى صدره، ومَرفقاه منضمان الى حَقْويه، وهو مُنكَّسٌ رأسه على دفَّته[3] وعلى ركبتيه، وكفاه على خديه، وهو شبه نائم محزون.

فلو رأيته يا أخي رحمته لضيق مكانه، وضعف أحواله، ولكنه لا يحس بما هو فيه، رِفقاً من الله تعالى بخلقه، ولطفاً بهم. وتكون سُرَّته متصلة بسُرَّة أمه، تمتص الغِذاء منها إلى يوم الولادة، ويكون وجهه إن كان ذكراً مما يلي ظهر أمه، وإن كان أنثى فعكس ذلك.

فانظر يا أخي في هذا الفعل، وتفكَّر فيما ذكرنا، فلعل نفسك تنبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، فترى بعين قلبك هذا الصانع الحكيم، كما رأيت بعيني رأسك مصنوعاته، ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون.

---

١ محلقة: مرتفعة، مستديرة كالحلقة.

٢ مخلقة: مسوّاة تامة الخلق.

٣ دفته: جنبه.

واعلم يا أخي بأن كثيراً من الحيوانات تتوالد في هذه المدة المذكورة، مثل الغنم والظباء وبعض السباع، وكل حيوان لا يحتمل الحمل والكد. ومنها ما تتأخر ولادتها إلى تمام ستة أشهر وتسعة أو عشرة أو اثني عشر، لأغراض أخرى قد بيّناها في رسالة الحيوان. ونحن نذكر في فصل آخر من هذه الرسالة ما الغرض في تأخير ولادة الإنسان إلى تمام ثمانية أشهر، ومكثِ الجنين في الرحم إلى الشهر التاسع.

فصل في كيفية حال الجنين في الشهر السادس

ثم اعلم أنه عند دخول الشهر السادس، يصير التدبير لعُطارد، وتستولي عليه قوى روحانياته، فيتحرك عند ذلك الجنين في الرحم، ويركض برجليه[1]، ويمد يديه، ويبسّط جوارحه، ويضطرب ويحس بمكانه، ويفتح فاه، ويحرك شفتيه، ويتنفس من مَنخريه، ويدير لسانه في فيه، فيكون تارة متحركاً، وتارة يسكن، وتارة ينام، وتارة يستيقظ، فلا يزال ذلك دأبه إلى أن يتم الشهر السادس، ويدخل الشهر السابع، ويصير التدبير للقمر، وتستولي عليه قوى روحانياته، فيربو لحم الجنين حينئذ، وتسمن جثته، وتنتصب قامته، وتشتد أعضاؤه، وتصلب مفاصله، وتقوى حركته، ويُحس بضيق مكانه، ويطلب التنقل والخروج. فإن قُدِّر له ذلك بما يوجب أحكام النجوم بأسباب يطول شرحها وخروجها على المجرى الطبيعي. وكان الجنين كاملاً عاش وتربى وعُمِّر. وإن بقي هناك إلى أن يدخل الشهر الثامن، وتدخل الشمس بيت الموت، ويرجع التدبير إلى زُحَل من الرأس، فتستولي عليه قوى روحانياته، عرض للجنين ثِقَل وسكونٌ، وغلب عليه البردُ والنومُ وقلة الحركة. فإن وُلد في هذا الشهر كان بطيء النشوء، ثقيل الحركة، قليل العمر، وربما كان ميتاً، وإذا دخل الشهر التاسع وانتقلت الشمس الى البرج التاسع بيت النُّقلة والأسفار، ورجع التدبير الى المشتري السعد الأكبر، واستولت عليه قوى روحانياته، واعتدل المِزاج وقويت روح الحياة، ظهرت افعال النفس الحيوانية في الجسد، لأن الشمس تكون قد استوفت

---

[1] يركض: يضرب برجليه.

طبائعَ البروج المثلّثات: النارية والمائية والهوائية والترابية مرتين في الثمانية الأشهر. وقد سارت الشمس في فلك البروج مائتين وأربعين درجة، وهذه المسافة مقدار ما بين بيتها إلى شَرفها التاسع من بينها المتفقَين في طبيعة واحدة، وتكون أيضاً في هذه المدة قد قبلت طبيعة الجنين قوى روحانيات الكواكب المنحطة من الفلك مرتين بمسير الشمس في البروج المثلثات، مرةً إلى البرج الخامس، ومرةً إلى البرج التاسع، كما تقدم ذكرها، ويبقى مرة أخرى، كما نبين بعد هذا الفصل. ويكون الذي يبقى للشمس، إلى أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها وقت مَسقط النُطفة، أربعة أبراج ومائة وعشرين درجة الى تمام الدور.

فإذا خرج الجنين بعد ثمانية أشهر، استأنف العمر في الدنيا لكل درجة سنة، الذي هو العمر الطبيعي، وهو المقدار الذي بقي للشمس إلى أن تعود الى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النُطفة، ليستوفي الإنسان طبائع البروج مرةً ثالثة حتى يتمّ ويكمل.

وأما الذي يزيد وينقص عن هذا المقدار فلأسباب وعِلل يطول شرحها، وهي مذكورة في كتاب أحكام النجوم ومكثِ الأجنَّة وأعمار المواليد، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في رسالة العِلل والمعلومات، ولكن نذكر من ذلك طرفاً ليكون دليلاً على ما وصفنا.

واعلم يا أخي بأن الكائنات التي تحت فلك القمر تبتدىء من أنقص الحالات وأدْوَنِها مترقيةً إلى أتمها وأفضلها، ويكون ذلك في مرّ الزمان والأوقات، لأن طبيعتها لا تقبل فيض أشخاص فلكية دفعة واحدة، ولكن شيئاً بعد شيء على التدريج، كما يقبل المتعلم الذكي من الأستاذ الحاذق.

واعلم بأن فيضات الكواكب من مُحيط الأفلاك متصلةٌ نحو مركز الأرض في دائم الأوقات، ولكنها مقنَّنة الألوان، متغايرة الأشكال، وذلك بحسب مواضعها من أفلاكها، وموازاتها من فلك البروج، وحدودها كما نبين بعد هذا الفصل.

واعلم يا أخي بأن الحكمة الإلهية والعناية الربَّانية قد جعلت لكل كائن من

الموجودات، تحت فلك القمر، مقداراً من الوجود والبقاء معلوماً، مقدَّراً، أو يكون ذلك بمقدار دور شخص من الأشخاص الفلكية، كما بيَّنا طرفاً منه في رسالة ماهيَّة الطبيعة. ولكن نذكر من ذلك أيضاً هاهنا مثالاً واحداً من الأشخاص الإنسانية. وذلك ان نُطفة الإنسان إذا سقطت في الرحِم، فإن مكثها الطبيعي، إلى أن تقبل صورة الإنسانية، أربعةُ أشهر بمقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفي بمسيرها طبائع البروج المثلثات مرة واحدةً فعند ذلك يبقى الجنين إلى يوم الولادة أربعة أشهر أُخر، وهو مقدار ما تسير الشمس أربعة أبراج مائة وعشرين درجة، وتستوفي بمسيرها طبائع البروج المثلثات مرة أُخرى. وبذلك يبقى لها أن تعود إلى الدرجة التي كانت فيها يوم مسقط النُطفة مائة وعشرين درجة، فيستوفي المولود العمر الطبيعي في الدنيا، مائة وعشرون سنة لكل درجة، بقيت للشمس سنة.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن أفعال الكواكب وتأثيرات قوى روحانياتها في الأربعة الأشهر الأول تكون مصروفة الى تأسيس بنية الجسد، وتكوين أعضائه المختلفة، وسريان قُوى النفس النباتية. وذلك ان لكل عضو من الجسد مثل القلب والكبد والدماغ والمِعدة والرئة والطحال والأمعاء والعروق والأعصاب والعِظام والعضَلات والمُخ والجلد وما شاكلها خِلقةً خلاف ما لعضو آخر، ولكل خلقة تركيب، ولتركيبه أخلاط، ولتلك الأخلاط أمزجة، ولتلك الأمزجة طبائع مختلفة في الكميَّة وفي الكيفية من الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة خلافُ ما للآخر كما ذكرنا ذلك في كتاب طبائع الأغذية ودرجات قواها، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في رسالة النبات. وللنفس النباتية في كل عضو فعل طبيعي خلاف ما في عضو آخر، كما بيَّنا في رسالة نشوء الأنفس الجزئية.

فصل

اعلم يا أخي أن بنية الجسد وتركيب اعضائه يتمّ في هذه الأربعة الأشهر، لأن الشمس التي هي روح العالم، في هذه المدَّة بمسيرها في أربعة أبراج المثلثات، تكون قد حطَّت طبائع تلك الأبراج من محيط الأفلاك إلى عالم الكون والفساد الذي دون فلك

القمر، وتكون قد سرت قوى روحانيات الكواكب التي فوق الأرض في بنية الجسد، وركزت في مراكزها، كما بيّنا في رسالة أفعال الروحانيات. وعلّة أخرى ايضاً أن في هذه الأربعة الأشهر تكون قد اجتمعت من مادة بنية الجسد ما تحتاج إليه الطبيعة الفاعلة، وذلك يوم مَسقط النطفة إذ تكون تلك المادة هناك مجتمعة، لأن الطبيعة كانت تدفعها الى خارج البدن في أيام الحيض. فإذا استقرت النطفة في الرحم، جذبت عند ذلك تلك المادة إلى نفسها، كما تجذب نارُ السراج الدُّهن بالفتيلة إلى نفسها، وكما يجذب حجر المغناطيس الحديد الى نفسه. فإذا حصل ذلك الدم حفّ حول النطفة كما يحفّ بياض البيضة حول مُحّها. ثم إن حرارة النطفة تسخّن ذلك الدم وتجمّده، كما تفعل الإنفحة[1] باللبن الحليب، وهو أول فعل يكون من قوى روحانيات زُحَل في النُّطفة، لأن من خاصة أفعاله إمساك الصورة في الهَيُولي، والسكون والثبات.

وأما تأثيرات الكواكب من البروج في الأربعة الأشهر الثانية، فتكون مصروفة الى تتميم بنية الجسد وإحكام خِلقة الأعضاء، لكيما تسري فيها قوى النفس الحيوانية، ويمكنها إظهار افعالها. وذلك ان الشمس في هذه المدّة بمسيرها في الأبراج المثلثات الأُخر تحطّ تلك القوى مرة أُخرى. فإذا تمت البنية، واستحكمت الخِلقة، سرت فيها قوى النفس الحيوانية، ونقلت تلك الجملة من الرحِم الى فُسحة هذا العالم، واستوفت به تدبيراً آخر اربع سنين، لكيما تكمل البنية وتستحكم الصورة، ويمكن أن تسري فيها القوى الناطقة، وتظهر أفعالها فيها. وذلك ان تلك القوات الروحانية تصرف تأثيراتها وأفعالها إلى تربية المولود وإحكام إدراك الحواسّ محسوساتها. ثم تردُ النفس الناطقة، وينطلق لسان المولود بالعبارة عن معاني تلك المحسوسات وتمييزها.

---

١ الإنفحة: شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع أصفر فيعصر في صوفه: فيغلظ كالجبن.

فصل

واعلم يا أخي أنه لا يمكن أن تفعل هذه الكواكب هذه الأفعال والتأثيرات في شهرين ولا ثلاثة الى ما هي عليه الآن، كما بيّنا، ونضرب لذلك مثلاً محسوساً من مصنوعات البشر، كما يُتصوّر مصنوعات الطبيعة. ذلك ان البنّاء إذا أراد بناء دار، فإنه يصرف أولاً هِمته وأفعاله مدّة ما، في تأسيس البناء، ورفع الحيطان، وإقامة الأعمدة، وعقد الأبراج، وتسقيف البيوت.

فصل في حاجة الإنسان الى التعاون

اعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروح منه، بأن الإنسان الواحد لا يقدر ان يعيش وحده إلا عيشاً نَكداً، لأنه محتاجٌ إلى طيب العيش من إحكام صنائع شتى، ولا يمكن الإنسان الواحد ان يبلغها كلها، لإن العُمُر قصيرٌ، والصنائع كثيرةٌ، فمن أجلِ هذا اجتمع في كل مدينةٍ او قريةٍ أناس كثيرون لمعاونة بعضِهم بعضاً، وقد اوجبت الحكمةُ الإلٰهيّة والعناية الرّبانية بأن يشتغل جماعةٌ منهم بإحكام الصنائع، وجماعةٌ في التجارات، وجماعةٌ بإحكام البُنيان، وجماعةٌ بتدبير السياسات، وجماعةٌ بإحكام العلوم وتعليمها، وجماعةٌ بالخدمة للجميع والسعي في حوائجهم، لأن مَثَلهم في ذلك كَمَثَل اخوةٍ من أبٍ واحدٍ في منزلٍ واحدٍ، متعاونين في أمر معيشتهم، كلٌ منهم في وجه منها. فأما ما اصطلحوا عليه من الكيل والوزن والثمن والأجرة، فإن ذلك حِكمةٌ وسياسةٌ ليكون حثاً لهم على الاجتهاد في أعمالهم وصنائعهم ومعاوناتهم، حتى يستحق كلُّ إنسانٍ من الأجرة بحسب اجتهاده في العمل ونشاطه في الصنائع.

واعلم يا أخي، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، أنه ينبغي لك ان تتيقن بأنك لا تقدر ان تنجو وحدك مما وقعت فيه من محنة هذه الدنيا وآفاتها بالجناية التي كانت من أبينا آدم، عليه السلام، لأنك محتاجٌ في نجاتك وتخلّصك من هذه الدنيا التي هي عالم الكون والفساد، ومن عذاب جهنمَ وجِوارِ الشياطين وجُنود إبليس أجمعين والصُعود إلى عالم الأفلاك وسَعةِ السمٰوات ومسكن العِليّين وجوار ملائكة الرحمٰن المقربّين، إلى

معاونة إخوان لك نُصحاء وأصدقاء لك فُضَلاء متبصِّرين بأمر الدين عُلَماء بحقائق الأمور ليُعرِّفوا طرائق الآخرة وكيفية الوصول إليها، والنجاةَ من الورطةِ التي وقعنا فيها كلُّنا بجناية أبينا آدم، عليه السلام، فاعتبرْ بحديثِ الحمامةِ المطوّقةِ المذكورة في كتاب «كليلة ودمنة»، وكيف نجت من الشَّبَكة لتعلم حقيقة ما قُلنا.

واعلمْ أن الحُكماء إذا ضربوا مثلاً لأمور الدنيا، فإنما غَرضيهم منه أمورُ الآخِرة والإشارة إليها بضُروب الأمثالِ بحسَبِ ما تحتملِ عقولُ الناس في كلِّ مكانٍ وزمان.

الفصل الثالث ❁ نصوص مختارة من المجلد الثالث

الرسالة الرابعة عشرة

من الجسمانيات الطبيعيات

* * *

في بيان طاقة الانسان في المعارف
وإلى أي حد هو ومبلغه من العلوم
وإلى أي غاية ينتهي وأي شرف يرتقي

(وهي الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل إخوان الصفاء)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهُ خيرٌ أمّا يشركون؟

فصل

اعلم أيها الأخ، أيدك الله وإيانا بروحٍ منه، بأنّا قد فرغنا من بيان كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة طاقة الإنسان في المعارف، وإلى أي حد ينتهي، فنقول:

اعلم أن الله تعالى لما خلق جسد آدم، عليه السلام، أبي البشر من التراب، وصوَّره في أحسن تقويم، وأحسن صورتَه، وأحكم بِنيته، ثم نفخ فيه من روحه، صار ذلك الجسد التُّرابي بتلك الروح الشريفة حيّاً عالماً قادراً. ثم فضَّله بما علَّمه من الأسماء على بعض الملائكة لا عليهم كلهم، وأمرهم بالسجود له من أجل تلك الروح الشريفة التي نفخ فيه، لا من أجل الجسد الترابي. وإبليس اللعين لما نظر إلى الجسد الترابي، وعرف ورأى تلك الروح الشريفة الفاضلة العالمة قال: «أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين» إذ النار خير من التراب، لأن النار جسم مُضيء متحرك يطلب العلو، والترابُ جسم مظلم ساكن يطلب السُّفْل. وكان هذا منه قياساً خطأً، لأن السجود لم يكن للجسد الترابي، بل لتلك الروح الشريفة، لأن الإنسان إنما يأكل ويشرب وينام من أجل الجسد، ويتحرك ويُحس ويتكلم ويعلم بالنفس الشريفة التي من أمر الله.

ثم اعلم أن العلم غِذاء للنفس وحياة لها، كما أن الطعام وجميع المتناوَلات غذاء وشراب للجسد وحياة له.

ثم اعلم أن العلم بالأشياء، بعضُه طبيعي غريزي مثلُ ما يُدرَك بالحواس، ومثل ما في أوائل العقول، وبعضُه تعليمي مكتسَب مثل الرياضات والآداب، وما يأتي به الناموس فمن الناس من لا يرغب في التعلم والتأدب، بل يتكل على ما تدركه الحواس أو ما في قرائح العقول. ومنهم من يرغب في التعلم والتأدب، لكن من الناس من لا يقبل من العلم إلاَّ ما يتصوّر في نفسه أو يقوم عليه بُرهان هندسي أو مَنطِقي. ومنهم طائفة لا تقبل إلاَّ ما يَدُل عليه قول الشاعر، وطائفة لا تقبل إلا برواية وخبر. ومنهم طائفة لا تقبل إلاَّ بالاحتجاج والجدل ومنهم من يرضى بالتقليد ويقنع بذلك.

وينبغي لنا أن نبين مبلغ قوة الإنسان في إدراك المعلومات والمحسوسات إلى أي نهاية، وهي جُهده وطاقته في معرفة حقائق الأشياء، وإلى أي حد ينتهي لأن في الناس طائفة من العقلاء لما تفكروا في حدوث العالم، وبحثوا عن العلة المُوجبة لكونه، بعد أن لم يكن، لم يعرفوها ولم يتصوروا في عقولهم بَدء كون العالم، فدعاهم جهلهم عند ذلك إلى القول بقِدَم العالم. ومنهم من لاح له شيء غير ما لاح للآخر،

فاختلفت أقاويلهم في حدوث العالم والعلة الموجبة لكونه، بحسب ما لاح لواحد واحد. ولحن قد بيّنا في رسالة لنا في المبادىء ما تلك العلة، فاعرِفْها من هناك.

فصل

ثم اعلم أن من تفكر في كيفية حدوث العالم وعلة حدوثه بعد أن لم يكن، ويريد أن يعرفها أو يتصور كيف كان ذلك، وهو جاهل لا يعرف كيفية تركيب جسده، ولا يتفكر في بِنية هيكله، ولا يدري كيف كان بدء كون ذاته، ولا يعلم ماهيّة جوهر نفسه، ولا كيفية ارتباطها بجسده، ولا لأي علة رُبِطت به بعد أن لم تكن مربوطة، ولا لأي علة تفارق الجسد في آخر العمر عند انقضاء الأجل، ولا تدري أين تذهب إذا فارقت الجسد، ولا من أين جاءت قبل ذلك؛ هو يريد أن يعرف بدء كون العالم وكيفية حدوثه، وما تلك العلة الموجبة لكونه مع جهله بما ذكرنا من هذه الأشياء التي هي أقرب إلى فهمه، وأسهل لتعليمه، وأمكن لتصوّره، فمثَله كمثَل رجل لا يُطيق حمل مائة رطل، فهو يتكلف حمل ألف رطل، أو كمثل من لا يقدر على المشي، وهو يريد أن يعدو، أو من لا يُبصر يده إذا أخرجها، وهو يريد أن يرى ما وراء الحُجُب.

ثم اعلم أنه إذا اعتُبر أحوالُ الإنسان ومجاري أموره من ذلك، وحالُ جُثته، فإنه متوسط بين الصِّغَر والكِبَر، فلا صغير جداً ولا كبير مفرطاً، فهكذا حال بقائه فهو لا طويل العمر في الدنيا، ولا قصير المدة فيها وهكذا حال وجوده، فلا هو متقدم الوجود على الأشياء، ولا متأخر عنها، لأن من الموجودات ما هو أقدم وجوداً منه كالأركان والأفلاك، ومنها ما هو متأخر الوجود عنه كالموجودات الصناعية.

وهكذا حال مكانه متوسِّط، فلا هو من الطرَف الأقصى من العالم، ولا هو في المركز سَواء.

وهكذا حال رُتبته في الشرف والدَّمانة متوسّط، لأن من الموجودات ما هو أشرف منه كالملائكة المقرَّبين، ومنها ما هو أدون منه كالبهائم.

وهكذا حاله في القوة والضعف متوسط، فلا هو قوي متين، ولا ضعيف مَهين، لأن من الحيوانات ما هو أقوى منه كالأسد، ومنها ما هو أضعف منه كالحيوانات الصغار.

وهكذا حاله في الجهل والعلم متوسط، فلا هو راسخ في العلم كالملائكة ولا هو جاهل مُهمَل كالبهائم.

وهكذا حال معلوماته متوسط المقدار بين الطَّرفين. وذلك ان الانسان غير مُحيط بالأشياء المُفرِطة الكثيرة كتَضاعُف العدد الكثير، وهو مُدرك للأشياء القليلة كالجزء الذي لا يتجزأ الذي هو في جِذر العَشرة وما شاكله.

وهكذا حال قدرته على الموزونات، فإنه لا يمكنه وزنها إلا المتوسّطَ منها بين الثقيل المفرط الثّقَل كالجبال، وبين الخفيف النزر الخفة كالذرة.

وهكذا حال قدرته على مساحة الأبعاد والمقادير، لا يقدر على مساحة إلاّ المتوسّطَ منها بين الواسع المفرط السَّعة كالبراري والبحار، وبين الضيق اللطيف كخزم الإبرة وجِرم الخردلة.

وهكذا حال قوة حواسّه على إدراك المحسوسات، فلا يُحس منها إلاّ المتوسطات بين الطرَفين. وذلك أن القوة الباصرة لا تقوى على إدراك الألوان في الظلمة الظّلماء، ولا على إدراكها في النور الباهر كالنَّظر إلى عين الشمس في نصف النهار في يوم الصيف.

وهكذا قوة السمع لا تُطيق استماع الصاعقة لشدتها وجلالتها، ولا تقوى أيضاً على إدراك دبيب النملة لخفائها وخفوها.

وهكذا القوّة الذائقة والقوة الشامّة والقوة اللامسة لا تقوى على إدراك محسوساتها إلاّ المتوسطات منها، وذلك أن الحرَّ المفرط والبرد المفرط يُفسدان المِزاج ويخرجانه عن الاعتدال.

وهكذا الطَّعم المفرط، وهكذا الرائحة المفرطة يفسدان آلات الحواس، ويغيران

المِزاج والاحساس، وهذا يكون من اعتدال المِزاج. وقد بيناً في رسالة لنا كيفية إدراك الحواس لمحسوساتها واحداً واحداً، فاعرفه من هناك.

وهكذا قوة علم الإنسان ومعرفته بالأمور الماضية وأخبار الماضين مع الزمان البعيد، لا يمكنه علمها إلاّ ما قَرُب كَونه من زمانه، مثل معرفتنا بآبائنا وأجدادنا القريبين منا، ومثل علمنا بأخبار بني إسرائيل، وما كان بعد الطوفان أو قبل ذلك إلى آدم، عليه السلام. فأما ما كان قبل آدم، عليه السلام، من أخبار الملائكة وقصة الجان الذين كانوا يُفسدون في الأرض قبل خلق آدم، عليه السلام، فليس للبشر علم بها ولا لهم ميل إلى معرفتها، إلاّ من طريق الوحي عن الملائكة تسلماً.

وهكذا علم الإنسان بالأمور الآتية في الزمان المستقبل، لا يمكنه معرفتها والاستدلال على كونها بدلائل النجوم، إلاّ ما يكون قريب الكون مثل استدلال المنجّمين بالقرانات التي تكون في كل عشرين سنة مرةً، وفي كل مائتين وأربعين سنة مرة، وفي كل تسعمائة وستين سنة مرة. وأما القِرانات التي تكون في كل ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعين سنة مرةً، وفي كل سبعة آلاف سنة، فليس على معرفة الاستدلال بها على الكائنات سبيل لبعدها من الزمان المستقبل.

وهكذا قوة عقل الإنسان متوسطة لا يقوى على تصور الأشياء المعقولة، إلاّ ما كان متوسطاً بين الطرفين من الجلالة والخفاء. وذلك أن من الأشياء المعقولة ما لا يمكن عقل الإنسان إدراكه وإحاطة العلم به لجلالته وشدة ظهوره وبيانه ووضوحه، مثل جلالة الباري، عز وجل، فإنه لا يقوى عقلُ الإنسان على إدراكه وإحاطة العلم بماهيّة ذات جلالته، وشدة ظهوره، ووضوح بيانه، لا لخفاء ذاته وشدة كتمانه. ومثل عجز الإنسان عن تصوّر صورة العالم بكليته، لشدة كِبَره وظهوره، لا لصِغَره وخفائه. ومثل عجزه أيضاً عن إدراك الصُوَر المجرّدة عن الهَيُولي لشدة صفائها ولطافتها ونفوذها في الأشياء.

ومن الأشياء ما لا يمكن إدراكها وتصورّها لخفائها ودِقّتها وصِغَرها مثل الجُزء الذي لا يتجزأ، ومثل الهَيُولي الأولى المجرَّدة من الصُوَرِ والكيفيات، ومثل عجزه

أيضاً عن معرفة كيفية تصوير الجنين في الرحم، وخلقة الفرخ في جوف البيضة، والحب في الغُلُف، والثمر في الأكمام.

ثم اعلم أن هذه الأشياء التي تُدرَك حسّاً مفروغٌ من صَنعتها، فأما في وقت تكوينها فالحِس لا يدركها والوهم لا يتصوّرها. فمن يريد أن يعلم كيفية حدوث العالم وعِلّةَ كونه، فينبغي أن يتفكر أولاً في هذه الأشياء، فيعلمها ويتصوّر كيفية حدوثها، ثم بعد ذلك يتفكر في كيفية حدوث العالم وعلة كونه. فمن ادعى أنه يعرف ذلك، فليخبرنا عن صورة العالم كيف هي على ما هي عليه الآن، لأن حواسه هي تُباشِرها وتشاهدها، ودع ما كان مضى مع الزمان الماضي لنسيانه عن ذلك، أو الذي يكون في الزمان المستقبل كيف يكون. أو فليُخبِرنا عن عِلة كثرة الكواكب، وعلة أبعادها ومقاديرها وأعظامها وحركاتها، وما هي عليه الآن، وما العلّةُ في ذلك. أو فليُخبِرنا عن المجَرّة وما هي، فإنا لم نجد إلى وقتنا هذا أحداً من الحكماء قد قال فيها قولاً مَرضِيّاً، أو فليُخبِرنا عن شيء واحد وهو الأثر الذي نراه في وجه القمر ما هو، والناس يشاهدونه دائماً، ودع ما لا يشاهدونه من كون العالم. أو فليُخبرنا عن عِلة اختلاف أجناس المعادن، وأشكال الناس، وهياكل الحيوان بما هي عليه الآن، وما العِلةُ في ذلك.

فصل

ثم اعلم أنه ليس إلى معرفة عِلل هذه الأشياء وصولٌ إلاّ أن تؤخذ من الأنبياء، عليهم السلام، تقليداً كما أخذوها عن الملائكة تسلماً.

ثم اعلم أن نِسبة علم البشر إلى علم الملائكة ومعرفتهم، كنسبة علم حيوان البحر إلى حيوان البر ومعرفتها بأمورها، وكعلم حيوان البر إلى علم البشر ومعرفته بأمورها. وذلك أن حيوان الماء لها حس وحركة وتمييز تتصرف فيها من طلب غذائها ومصالحها ومنافعها والهرب من عدوها وعِرفانها ذُكرانها وإناثها وأبناء جنسها. فأما احساسها بأحوال حيوان البر ومعرفتها بأمورها، فليس لها إلى معرفة ذلك إلاّ شيء يسير.

وهكذا علم حيوان البر بأحوال البشر ومعرفتها بأمور الناس، فليس لها إلاّ شيء يسير.

وهكذا علم البشر بأحوال الملائكة، ومعرفتهم بأمور الذين في قضاء الأفلاك وطبقات السموات، فليس لهم بها علم إلاّ شيء يسير.

وهكذا أحوال الملائكة في مراتبها ومقاماتها متفاوتة متباينة، الأوّلُ فالأوّلُ، والأشرفُ فالأشرفُ، وفوق كل ذي علم عليم، وإلى ربك المنتهى كما أخبر، عزّ وجل، عن أحوال الملائكة في مراتبها ومَقاماتها فقال تعالى: «قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون» وقال في حكاية عن الملائكة: «وما منا إلاّ له مقام معلوم وإنا لنحن الصافّون وإنا لنحن المسبّحون» وقال: «لا يعلم جنود ربك إلاّ هو ما هي إلاّ ذكرى للبشر» يعني أجناس الملائكة وقبائل الجن والإنس والحيوانات أجمع.

ثم اعلم أن علم جميع الخلائق بالنسبة إلى علم الله تعالى ليس إلاّ كالجزء اليسير، كما قال تعالى: «ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» يعني علم الله، قال: «ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء». ونحن قد جعلنا هذه الرسالة تنبيهاً لإخواننا على نهاية مبلغ طاقة الإنسان في العلوم والمعارف، وتوبيخاً لأقوام جُهّال يعارضون العلماء بالكلام والجدال، ويسألونهم عن عِلل أشياء ليس في طاقة الإنسان معرفتُها، وهم تركوا البحث عن أشياء واجبٌ عليهم تعلُّمها والبحثُ عنها، ثم لا يسألون عنها ولا يتفكرون فيها لجهلهم.

فصل

اعلم أنه ليس من علمولا عمل ولا تجارة إلاّ وبين أهلها فيها منازعةٌ وخُلف. فمن ذلك الخُلفُ الذي بين العلماء في حدوث العالم وقدمه، وهما طائفتان: الفلسفية والشريعة. فالأنبياء، عليهم السلام، كلهم يرون ويعتقدون أن عالم الأجسام مُحدَث لا شك فيه. وهكذا يرى بعضُ الفلاسفة الفضلاء الراسخون في العلم. فأما المتفلسفة

الناقصون فشاكّون فيما يقولون، متحيرون فيما يزعُمون من قِدَم العالم.

وهكذا حكم كثير من أتباع الأنبياء، عليهم السلام، والمقرّين بما خبرت به، فإنهم شاكّون أيضاً فيما يقلّدون، ومتحيّرون فيما يعتقدون. وأعيذُك، أيها الأخ الفاضل، بالله أن تكون منهم، لأن ما مثَلهم في هذه الرسالة وما يختلفون فيها إلاّ كمثل أولئك الصبيان الأغبياء البُله الجُهلاء. وذلك أنه كان رجل حكيم له أولاد صغار، وكان فيهم جماعة أذكياء فُهماء نُجَباء، وكان فيهم جماعة أغبياء بُله جهلاء، فنظر أولئك الأخوة يوماً في بعض خزائن أبيهم، فوجدوها مملوءة بالحلاوة، مختلفة الطعام والألوان والروائح والأشكال، فتأمّلوها وفكروا فيها، فوقع في أفكارهم أن قالوا: ألا تُرى من عَمِل هذه العجائب، وصَوّر هذه الأشكال، ومن صنع هذه الألوان؟

فمن كان منهم ذكيّاً فهماً مُدركاً نجيباً، علم أنه عمل صانع حكيم. ومن كان منهم غبيّاً أبله ساهياً، خفي عليه ذلك وانغلق.

ثم تفكر الذين علموا أنه صَنعة الحكيم: أتُرى من أي شيء عملها، وبأي شيء صوّرها؟

فمن كان منهم أذكى وأفهم، علم انه من شيء آخر عملها. ومن كان دونهم في الفهم والذكاء خفي عليه ذلك.

ثم تفكر الذين علموا أنه من أي شيء عملها: تُرى كيف عملها، ولِـمَ صوَّرها بهذه الأشكال؟

فمن كان منهم أذكى وأفهم وأنجب، عقَلَ ذلك وتصوَّرها، وتحقق واستغنى عن سؤال لِمَ وكيف. ومن كان منهم دون ذلك في المرتبة خفي عليه وقَصَّر فهمه عنه وتوقف يتفكر ويتروَّى في ذلك.

ثم عند ذلك سألوا أخوة لهم بالِغين عاقلين عن هذه الحلاوة، فأجابوا أنها عملها الحلواني. فقالوا: من الحلواني؟

فقالوا: صانع حكيم. فمنهم من فهم وعقل وصدّقهم. ومنهم من خفي عليه لغباوته، فكذَّب وأنكر، إذ لم يرَ الحلواني قبل ذلك، ولا سمع بذكره.

ثم سأل أولئك الأخوة الصغار إخوانهم الكبار البالغين العقلاء: أترى من أي شيء عمِل الحلواني هذه العجائب؟ فأجابوهم أنه عمِلها من السُّكَّر والدُّهن والنَّشاء.

فمنهم من صدَّقهم إذ كان موفّقاً هادئاً مؤيداً رشيداً. ومنهم من كذَّب وأنكر، إذ لم يروا هذه الأشياء عياناً، ولم يعرفوها عقلاً.

ثم قالوا: أرونا منها شيئاً.

فقالوا لهم: لم يُبقِ الصانعُ منها شيئاً بل استعملها كلها.

فمنهم من كان موفقاً فصدقهم، ومنهم من كذَّب وأنكر ولم يُرشَد.

ثم إنهم سألوهم: كيف عمِل الحلواني هذه؟ قالوا: بنى الدبكدان، وأوقد النار، ونصب الطّنجير[1]، وصبَّ فيه الدُّهن، وطرح فيه السكر، وحرَّكها بإسطام[2]، وعقَّدها بالنَّشاء.

فمن كان منهم أذكى فهماً تصوَّره بجودة ذكائه وحسن رويَّته، وقريحة قلبه، وصفاء جوهر نفسه، وضياء نور عقله. ومنهم من عَميت عليه الأنباء، إذ لم يكن له ذكاء، ولا لقلبه صفاء، ولا لنور عقله ضياء.

ثم إن أولئك الأخوة اختلفوا فيما بينهم، وصاروا فِرَقاً يتجادلون فيما بينهم في هذه المسألة، ويتنازعون ويتخاصمون وشبَّت بينهم نيران الفتنة والبغضاء.

ثم إن والدهم الشفيق رثى لهم ورحمهم لما رأى ما وقعوا فيه من المحنة والبَلوى، وأمر بعض إخوانهم العقلاء المُستبصِرين أن يكونوا قضاة وعُدولاً بينهم، ويقضوا الحُكم بأرفق ما يقدرون عليه. فقال لهم: إذا سألكم أخوتكم وتحاكموا إليكم فيما

---

١ الطنجير: وعاء يعمل فيه الحلواء كالخبيص.

٢ الاسطام: المسعار، وهو حديدة تحرك بها النار.

يختلفون فيه، فأرشدوهم ودلّوهم على ذلك. فكان من جواب أولئك الأخوة القضاة، إذا سئلوا عن عمل هذه الحلاوات، أجابوا أخوتهم بأنها من عمل أبيهم، فسكنت نفوس أولئك الأخوة الصغار إلى قولهم، لأن معرفتهم بأبيهم أقربُ إلى فهمهم من معرفتهم بالحلواني.

وإذا سألوهم: من أي شيء عُمِل؟ قالوا: لا من شيء تعرفونه، فسكنت نفوسهم إلى قولهم أكثر من سكونهم إلى قول من أجاب أنه عُمِل من السُّكَّر والسيرج والنشاء، لأن الصبيان قد تبيّن لهم بأن أشياء كثيرة ما رأوها بعد ولا عرفوها.

وإذا سألوهم: كيف عملها وكيف صوّرها؟ قالوا: كما شاء وكيف شاء.

وكانت هذه الجوابات أسكن لنفوسهم من قول من يُطوّل فيه الخَطبَ، وقال كيت وكيف وفعلَ وصنَع.

فهذا مثل اختلاف العلماء في حدوث العالم وقِدَمه، والسائلين لهم واخوتهم المجيبين عنه. فمثل العالم بما فيه من العجائب وطِرق أجناس الموجودات وغرائبه وصنوف صنائع المصنوعات، كمثل تلك الخزانة المملوءة من الحلاوة. ومثل السائلين عن حدوث العالم وكيفية صنعته وعن هَيُولاه وصنائعها، كمثل سؤال أولئك الأخوة الصغار الضعفاء العقول القليلي الفهم. ومثلُ أولئك الأخوة العقلاء الذين سُئِلوا فأجابوا بشرح طويل، فأوقعوا الخُلف بين الأخوة، كمثل الفلاسفة في أجوبتهم عن كيفية حدوث العالم والهيُولي والصورة والعنصر والطبيعة وما شاكلها من الألفاظ الغريبة المعاني البعيدة التصور. ومثل أولئك الأخوة القضاة والعُدول في أجوبتهم، كمثل الأنبياء، عليهم السلام، وخلفائهم. ومثل ذلك الأب الشفوق الرحيم هو الباري تعالى باعث الأنبياء، عليهم السلام، ليكونوا قضاة بين خلقه في ما يختلفون فيه من هذه المسائل ويجيبوهم بحسب ما يليق بعقولهم ومَبلغ فهمهم.

فصل

ثم اعلم أنّا قد أخبرنا عن علة حدوث العالم، وبيّنا كيفية صنعته وماهيّة هَيُولاه

وصورته في المبادىء العقلية مثل ما ذكر القُدماء الفضلاء الموحّدون منهم القائلون بحدوث العالم. ولكن يحتاج الناظر فيها والسائل عن هذه المسائل أن تكون له نفس زكية، وفهم دقيق، وقوَّةُ رويّة، وجودة تصوُّر روحانية كي يفهمها. فمن لم يفهم ما وصفنا، فينبغي له أن يقنع بما قالت الفلاسفة إن العالم معلول وعلته الباري. وربما قالت الأنبياء بأجمعها، عليهم السلام، إن العالم بأسره مخلوق وإن الله، عزَّ وجلّ، هو خالقه ومبدعه ومخترعه.

فإن لم يعقل ما قالت الفلاسفة وما أخبرت عنه الأنبياء، عليهم السلام، ولم يثق بقولهم، ولم تسكن نفسه إلى حُكمهم، ولم يطمئن إلى قولهم، ويتكل على ما تخيّلهُ القوّة الوهميَّة، فلا ينبغي له أيضاً أن يثق بحكمها، ولا أن يسكن إلى تخيُّلها، لأنه تخيّلٌ ما له حقيقة، وما لا حقيقة له فلا يوثق به ولا يُحكم بصحته، كما لا يوثق ولا يُحكَم على حقيقته إلاّ بعد أن تستعين بالقوَّة الشامّة. فإن عرفتَ حقيقته، وإلاّ استعنت بالقوّة الذائقة.

فهكذا ينبغي لك يا أخي إذا شككتَ في مسألة مُشكلة أن لا تثق بنفسك دون أن تستشير فيها إخوانك الكرام الفضلاء، كما تستعين في أمور الدنيا، إذا لم تنهض بشيء منها، بإخوانك وجيرانك وأصدقائك الفضلاء الكرام. فهكذا يجب أن تكون سِيرتك في أمر الدين وطلب الآخرة. وفّقكَ الله أيها الأخ للسداد، وهداك إلى سبيل الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد.

فصل

ثم اعلم أن الحكماء الأولين قد تكلمت في فنون من العلوم، وضُروب من الآداب، وغرائِبَ من الحِكَم كثيرة لا يحصي عددها إلاّ الله الواحد القهار. فمنها من تكلم في تركيب الأفلاك وأحكام النجوم. وتكلّموا أيضاً في الطب والطبائع والكائنات التي تحت فلك القمر. وقومٌ من العلماء الشرعيين ينكرون أكثره، إما لقصور فهمهم عما وصَف القوم، أو لتركهم النظر فيها، واشتغالهم بعلم الشرع وأحكامه أو لعناد بينهما.

وكذلك أيضاً ان أكثر من ينظر في العلوم الحِكمية، من المبتدئين فيها والمتوسطين من بينهم، يتهاونون بأمر الناموس وأحكام الشريعة ويُزرُون بأهله، ويأنفون من الدخول تحت أحكامه، إلا خوفاً وكرهاً من قوة الملك الذي هو أخو النبوَّة. كل ذلك لقصور فهم الفريقين جميعاً عن معرفة حقائق هذه الأشياء المذكورة، ولقلة علمهم أيضاً بماهيَّات الكائنات.

ولما كان مذهب إخواننا الفُضلاء الكرام النظر فيها جميعاً، والكشف عن حقائق أشيائها، أعني العلوم الحكمية والنبوية جميعاً، وكان هذا العلم بحراً واسعاً ومَيداناً طويلاً، احتجنا أن نتكم في ما دعت الضَّرورة إلى عمل هذه الرسائل التي هي إحدى وخمسون[1] رسالة، والكلامِ فيها بأوجز ما يمكن، وإيراد النكَت التي هي اللُّب، ولا يُفهم ذلك إلا بأمثال تُضرَب، ليَقرُب من فهم المبتدي النظرُ في العلوم، ويَسهُلَ تصوُّر الحقائق للمتأملين.

ثم اعلم أن العلوم الحكميَّة والشريعة النبوية كلاهما أمران إلهيَّان يتفقان، في الغرض المقصود منهما الذي هو الأصل، ويختلفان في الفروع. وذلك أن الغرض الأقصى من الفلسفة هو ما قيل إنها التشبه بالإله بحسب طاقة البشر، كما بيَّنا في رسائلنا أجمع. وعِمدتها أربع خصال: أولاها معرفة حقائق الموجودات، والثانية اعتقاد الآراء الصحيحة، والثالثة التخلُّق بالأخلاق الجميلة والسجايا الحميدة، والرابعة الأعمال الزكية والأفعال الحسنة.

والغرض من هذه الخصال هو تهذيب النفس والترقِّي من حال النَّقص إلى التمام، والخروج من حدّ القوة إلى الفعل بالظهور، لتَنال بذلك البقاء والدوام والخلود في النِّعَم مع أبناء جنسها مع الملائكة.

وهكذا الغرض من النُّبوة والناموس هو تهذيب النفس الإنسانية وإصلاحُها وتخليصها من جَهنم عالم الكون والفساد، وإيصالها إلى الجنة ونعيم أهلها في فُسحة عالم الأفلاك وسَعة السموات، والتَّنسُّم من ذلك الرَّوْح والريحان المذكور في القرآن. فهذا

[1] في مكان آخر يذكرون اثنتي وخمسين رسالة.

هو المقصود من العلوم الحكمية والشريعة النبوية جميعاً.

وأما اختلافهما في الطرق المؤدّية إليها فمن أجل الطبائع والأعراض المتغايرة التي عرضت للنفوس، وبذلك اختلفت موضوعات النواميس، وسُنن الديانات، ومفروضات الشرائع، كما اختلفت عقاقير الأطباء وعلاجاتها، بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأجساد من الآلام والأوجاع، وبحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ومثال آخر في اختلاف سُنن الديانات النبوية والفلسفية جميعاً، وفنون مفروضات النواميس، والمقصدُ واحد، كاختلاف طُرُقات القاصِدين نحو بيت الله الحرام، وتوجُّهِهم شَطرَه بحسب مواضع بُلدانهم ومَراحلهم ومَرافِقهم من البيت شرقاً وغرباً وجَنوباً وشمالاً كما بيّنّا في رسالة جغرافيا.

فصل

ثم أعلم أن الموجودات كلّها نوعان: كلية وجزئية. فالموجوداتُ الكليةُ الدائمةُ الوجودِ والبقاء، لأنها ابتدأت في الترتيب من أشرفها وأتمها إلى أدْوَنها وأنقصها كما بيّنا في رسالة المبادىء العقلية.

والموجوداتُ الجُزْوِيات دائمة في الكون، متوجهةٌ نحو التمام، لأنها تبتدىء بالكون من أنقص الوجود متوجّهة إلى أتمّ الوجود، ومن أدون الأحوال مترقيةً إلى أشرفها وأتمها.

ثم اعلم أن الإنسان هو من الأمور الجُزويّة، وهو مجموع من جوهرين، أحدهُما هذا الجسد الجسماني، والآخر هو النفس الروحانية. فأنقص حالات جسده ابتداؤه من النُّطفة متوجّهاً إلى أن يصير رجلاً جَلْداً. وأنقص حالات نفسه وأدْونُها أن تكون ساذجة لا تعلم شيئاً كما قال الله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾. وأتمّ حالاتها أن تُخرج كل ما في قوتها من الفضائل إلى الفعل، وهو أن يصير الإنسان مؤمناً حقّاً عالماً ربّانيّاً حكيماً فيلسوفاً مُحقّقاً كما قال تعالى: ﴿وعلمتم

ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ وقال: ﴿علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾ وقال: ﴿كونوا ربانيين﴾.

ثم اعلم أن كل عمل مُتقَن فمن صانع حكيم في أوّلية العقل. وكل فاعل حكيم فله في فعله غرض ما. والغرضُ هو غاية يَسبُق إليها وَهُم النفس. وإذا بلغ الفاعل إلى الغاية قطع الفعل.

ثم اعلم أن دوران الأفلاك فعل مُتقَنٌ، ففاعله إذاً حكيم، فله إذاً في إدارة الأفلاك غَرَضٌ ما. فإن كان قد بلغ إلى غرضه، فسبيله أن يقطع الفعل ليقف الفلك عن الدوران.

فأما الأجسام فإن أفضلها ما كان يظهر عنه أفضل فعلٍ، وأجلُّ النفوسِ ما بدا منها العلم وزال عنها الجهل.

ثم اعلم أن ألذّ ما يأكل الإنسان هو العسل، وأنعمُ ما يَلبَس هو الإبرِيسَم. فإن كان الفاعل لهما هي الدودة والزَّنابير، فإذاً أصغرُ الأجسام أكرمُها فعلاً. وقد قام البرهان بأن الجسم لا فعلَ له البتَّةَ.

ولا يخفى عليك بأن الزرع والشجر في إخراج الحَبّ والثمر، وغايتها الحَصادُ، وتمام الغرض منها بعد ذلك تمامُ الحيوان في الإدراك، وغايته النتاجُ، وحَصادُه وصَرامُه الموت.

فالغرض من الحيوان إذاً بعد الموت كذلك الحَبّ إذا لم يتمّ ولم يستحكم قبل حَصاد الزرع، ولا يُنتفع به بعد الحصاد. كذلك الثمر إذا لم ينضَج وينعقد قبل إخراجه، لم يُنتفَع فيما يراد منه.

وهكذا حكم النفس الإنسانية، إذا هي لم تتمّ بالمعارف الحقيقية صُورتها، ولم تستتمّ بالأخلاق الجميلة جوهرَها، ولا بالآراء الصحيحة عقلها، ولا بالأعمال الزكية ذاتها في الدنيا، لا تنتفع بعد مفارقة الجسد بحياتها، ولا تستقلّ بذاتها، ولا تلتذ بالنعيم في الآخرة على التمام والكمال، كما أن الجنين إذا لم تَستتمّ في الرَّحِم خلقته، ولم

تُستكمل هناك صورته، لا يَنتفع بالحياة في الدنيا.

فهكذا حَكم النفس لأن موت الجسد ولادةُ النفس، كما أن الطَّلْق ولادة الجنين؛ فانتبه أيها الأخ من نوع الغَفلة ورقدة الجهالة، فإنا الغرض في ذلـك أن تصير مَلَكـاً بالفعل، فاجتهد غاية الجَهد، وقَوِّ ظهرك بالحبل المتين، واعتصم بحبل الله ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾. واجتهد أن تتوجه نحو الصِّراط المستقيم، إذ ذلك أقربُ طرُق من الخط المعوجّ إلى الغرض الأقصى، لتنال بذلك السعادة وبقاء الأبد، وتتلذذ بلذات النعيم من الرَّوح والريحان، والـحُور والغلمان. وفقك الله وإيانا وجميع إخواننا للسَّداد، إنه رؤوف بالعباد، وبحق محمد وآله الأمجاد، صلواتُ الله عليهم إلى يوم التَّنادِ.

تمت الرسالة في بيان طاقة الإنسان، ويتلوها رسالة حكمة الموت والحياة.

فصل في اعتبار الموت والحياة

فاعلم أنه إذا فكر العاقل العالِم في تركيب هذا الجسد وما هو عليه من إتقان البنية وإحكام الصنعة، كما ذُكر في كتاب التشريح وكتاب منافع الأعضاء بشرح طويل من عجائب تأليف أعضائه، وغرائب تركيبه، وحسن هندام مفاصله، وكيفية تشعُّب الأعصاب الممتدة على أعضائه وعظامه المؤتلفة عليها، المتمكنة بمفاصلها، المنتشرة إلى أطراف بدنه، المنشأة منها الأوتاد اللينة الرقيقة للحس وللشعور، وكيفيةِ تشعُّبِ العروق الواردة التي منشأها من عُمق الكبِد المنتشرة في خلل اللحم، الموردة للدم إلى أطراف البدن، وكيفية تشعب العروق الضاربة التي منشأها من القلب، المنتشرة في عمق البدن، الموصلة للنَّبْض إلى أطراف الجسد؛ وكيفية طبقات بِنية بدنه بعضها فوق بعض، كما بيَّنَّا في رسالة تركيب الجسد والأوْعية المعَدَّة للأغراض المختلفة، لجر المنفعة أو لدفع المضرة؛ وكيفية ابتدائه من النُّطفة وتتميمه في الرحم ونشوئه في أيام الصبا، وتكميله في أيام الشباب، وتنضيجه في أيام الكهولة، فيرى أنه

غاية الكمال والحكمة والصواب والإتقان.

ثم إذا تفكر في أيام الشيخوخة وفي ذهاب قوته وتغييرات رونقه وإدباره ونقصانه ثم هدمه بالموت وتغيّره بعد ذلك بالانتفاخ والنَّتن وفساده، ثم كيف يبلى في التراب ويضمحلُ ولا يعرف ما وجه الحكمة فيه، فيتحير ويتشكك ويضلّ عن الصواب. فمن أجل هذا احتجنا أن نذكر في هذه الرسالة الموت والحياة، ونبين ما الحكمة في خلقهما وكونهما.

واعلم أنه إذا فكر العاقل اللبيب في خِلقه الرَّحِم وحال المَشيمة[1] وكونِ الجنين من النُّطفة، وكيفية ذلك المكان، وما قد أُعِدَّ هناك من المَرافِق والمَرافِل لتتميم الخلقة وتكميل الصورة، فيراها في غاية الحكمة وإتقان الصنعة من الصواب، وما يتعجب منه أولو الألباب.

ثم إذا فكر في حال الولادة، وكيف ينقلب في الرحم، وتنخرق المشيمة، وتنقطع تلك الأوتار، وتسترخي تلك الرِّباطات التي كانت تُمسك الجنين هناك، وكيف يسيل الدم والرُّطوبات المُعَدَّة التي كانت هناك لمرافِقه، وما تلقاه الوالدة من الجهد والشدة، فإنه يرى شيئاً يُدهش العقل ويحيِّر أُولي الأبصار والألباب.

ولكن لما كان من حال ما يُنقَل إليه الجنين من فُسحة هذا العالم وطيب نسيمه وإشراق أنواره، وما يستأنف الطفل من العمل في مستقبل العمر من لذة العيش والتمتع بنعيم الدنيا، وإذا قدَّر ونجاه الله من ذلك المكان الضيق المُظلم الناقص الحال بالإضافة إلى أحوال هذه الدار من التصرب والتقلب، فيرى أن الحكمة والصواب كان في الخروج من هناك.

فهكذا ينبغي لك يا أخي أن تعتبر لتعلم أن حال النفس مع الجسد كحال الجنين في الرحم، وأن حالها بعد الموت كحال الطفل بعد الولادة، أن موت الجسد ولادة النفس، وكذلك ولادة الطفل ليست شيئاً سوى خروجه من الرحم، وكذلك ولادة

---

[1] المشيمة: محل الولد تخرج معه عند الولادة.

النفس ليست هي شيئاً سوى مفارقة النفس إياه.

فصل في ماهية الحياة

فنقول: اعلم أن الموت والحياة نوعان: جسداني ونفساني، والحياة الجسدانية ليست شيئاً سوى استعمال النفس الجسد، والموتُ الجسداني ليس شيئاً سوى تركها استعماله، كما أن اليَقَظة ليست شيئاً سوى استعمال النفس الحواسَّ، وليس النوم شيئاً سوى تركه استعمالها.

فأما النفس فحياتها ذاتية لها، وذلك أنها بجوهرها حيّة بالفعل، علاّمة بالقوّة، فعّالة في الأجسام والأشكال والنقوش والصور طبعاً، وان موتها هو جَهالتُها بجوهرها، وغفلتها عن معرفة ذاتها، وان ذلك عارضٌ لها من شدة استغراقها في بحر الهَيُولى ولبعد ذهابها في هاوية الأجسام، ولشدة غرورها في الشهوات الجسمانية. والناسُ أكثرهم لجهالاتهم بجوهر نفوسهم، وغفلتهم عن حياتها الأبدية، لا يعرفون إلاّ هذه الحياة الدنيا الجسدانية الدنيّة المتقطعة «وما الحياة الدنيا إلاّ متاع الغرور» «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد» فصاروا يريدون البقاء في الدنيا ويتمنون الخلود فيها كما قال تعالى ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ وقال: يريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وقال: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ وقال: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ وآياتٌ كثيرة في ذم الذين يريدون الحياة الدنيا، هي حياةُ الجسد، ويغفلون عن الحياة الآخرة التي هي حياة النفس بالحقيقة، وتلك حياة أبداً دائماً. فأما ماهيّة حياة الجسم فنقول لك:

اعلم أن الجسد ميّت بجوهره، وأن حياته عرَضية لمجاورة النفس إياه، كما أن الهواء مظلم بجوهره، وإنما ضياؤه بإشراق نور الشمس عليه والقمر والكواكب. والدليل على أن الجسد ميّت بجوهره ما يُرى من حاله بعد مفارقة النفس له كيف

يتغير ويفسد ويتلاشى ويرجع إلى التراب، كما كان بديئاً ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾.

فصل في غرض رباط النفس الجزئية بالجسد الجزئي

فنقول: اعلم انما رُبطت الأنفس الجزئيّة كيما تكمل بالرياضة وتُخرج ما في جوهرها من الحكمة والصنائع والفضائل من حد القوة إلى حد الفعل لِتتمّ الـهَيُولى الجزئية، وتكمل هي أيضاً، ويتشبه ذلك الجزء بالكل، وهو أن تتعلم النفس الـجُزئية السياسة والتدبير والتهذيب بالأخلاق الجميلة والآراء الصحيحة والأعمال الزكية والمعارف الحقيقية. وهكذا تَشبُّه الجُزء بالكل كما قيل في حد الحكمة إنها التشبُّه بالإله بحسب الطاقة الإنسانية.

وإذا بلغت النفس الإنسانية إلى أقصى مدى غاياتها، وكملت بما أظهرت من الفضائل وهَدم الجسد، نُقِلت هذه الأنفس بعد مفارقة الجسد إلى حالة أخرى ونشوء آخر أعلى وأشرف من هذا الجسد المؤلّف من اللحم والدم والأخلاط الأربعة القابلة للكون والفساد كما قال الله تعالى: ﴿وننشئكم فيما لا تعلمون﴾.

ثم إن الله يُنشيء النشأة الآخرة، فتكون نِسبة تلك الحال التي تُنقَل إليها النفس بعد مفارقة الجسد بالإضافة إلى هذه الحال كنِسبة حال الجسد في الرَّحِم إلى الحال التي نُقِل إليها بعد الولادة من فُسحة هذا العالم وطيب نسيمه وإشراق نوره بالإضافة إلى ظُلمة الأحشاء والمَشِيمة والرَّحم التي هي ثلاث ظلمات.

ثم اعلم أن النفس لا تُحس تلك الحال التي تُنقل إليها إلا بعد مفارقة الجسد، كما أن الجنين لا يُحس بأحوال هذه الدنيا إلاّ بعد الولادة. فمن أجل هذا قال النبي، ﷺ: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، وإنما نومهم غفلتُهم عما بعد الموت.

فإذا جاءت سكرة الموت بالحق التي هي مفارقة النفسِ الجسدَ، وعاينت الحقيقة التي كانوا بها يوعَدون كما قال الله تعالى: ﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾. وقال لنبيه، عليه السلام: ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ واستَعدَّيتَ

وتزودت بالأعمال الصالحة والآراء الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم الحقيقية، رجوتُ لك أن تنجو من نيران الهاوية التي هي عالم الكون والفساد، وتصل إلى الجنة بالصعود إلى عالم الأفلاك وفُسحة السموات عالَم الدوام والبقاء والخلود في النعيم والسرور مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسُنَ أولئك رفيقاً، ذلك الفضلُ من الله!

فصل في غرض السياسات

اعلم أن الجسد مَسُوسٌ، والنفسَ سائسٌ، فأيّ نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب، أمكنها سياسةُ الأهل والخدام والغلمان. ومن ساس أهله بسيرة عادلة، أمكنه أن يسوس قبيلة، ومن ساس قبيلة كما يجب، أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلهم؛ ومن ساس أهل المدينة كما يجب، أمكنه أن يسوس الناموس الإلهي؛ ومن ساس الناموس الإلهي، أمكنه الصعود إلى عالم الأفلاك وسَعة السموات عالم الدوام ليُجازي هناك بما عمل من خير، فإذاً الموتُ حكمة.

فإن لم يستَوِ لك يا أخي سياسةُ الناموس الإلهي، فكن حاذقاً فيه فلعلك تنجو من جهنم بشفاعة أهلها[1]، وتصعَد إلى ملكوت السماء بمعاونتهم، وتدخل الجنة برحمة الله وفضله وسَعة رحمته، وفقك الله يا أخي للصواب، وهداك الرشاد وجميعَ إخواننا حيث كانوا في البلاد إنه رحيم جواد.

فصل في عيوب الجسد ومثالبه

فاعلم يا أخي أنّا قد بيّنا في رسالة تركيب الجسد، ورسالة الإنسان عالَم صغير، ورسالة الحاسّ والمحسوس ما تستفيد النفس بكونها معه من الحكمة والعلوم والفوائد، وما ترتاض من اتخاذ الصنائع والسياسات والتدبير والربوبية والتشبّه بالإله

---

١ شفاعة أهلها: أي شفاعة أهل سياسة الناموس الإلهي.

بحسب الطاقة الانسانية، إذا أخذت النفس طريق ذات اليمين، لأن هذا الجسد لهذه النفس صِراط ممدود بين الدنيا والآخرة. فإذا عبرت النفس على هذا الصّراط وسَلمت من آفاته، سَهُل عليها سائرُ ما بعد ذلك.

فمن عيوب هذا الجسد كونُ النفس كمحبوسٍ في كَنِيف، أن الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد، فهو يَنبوع لكلّ قاذورات من وسخ وبول وغائط ومُخاط وبُصاق ودمٍ وصَديدٍ ولُعاب وعَرق نَتْن وبخَر وصُنان. وإن كل ما يكون في الكنيف من القاذورات فمنه يخرج وفيه يتكون، فأوله نُطفة قَذِرة، وآخره جيفة منتنة، وما بين الحالتين مملوء عَذِرة[1]، والنفسُ على دوام الأوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته وستَر عوراته وحفظه من آفات الحر والبرد والجوع والعطش والصدمة والضربة والآفاتِ العارضة التي لا يُحصى عددها.

وبالجملة، فليس في العالم نَتن ولا نجاسة ولا قاذورة ولا جيفة إلاّ منه. ومن وجهٍ آخر، فنقول مَثلُ النفس مع الجسد كعابد صنم يعبُده بالليل والنهار، وذلك أن النفس إذا تركت تعلُّم العِلم وعبادةَ الله، عز وجل، والنظرَ في أمور مَعادها بعد فراق الجسد، والاستعداد له والتزوّد للرحلة من الدنيا إلى الآخرة، واشتغلت بما يكون فيه صلاحُ الجسد من الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركب وما شاكلها من أنواع زينة الدنيا، النفس، كما بيّنا في رسالة حكمة الموت. ولو لم تعرِض للنفوس الآلامُ من الأشياء المُفسدة لأجسادها، لتهاونت بها وتركتها مُتعرّضة للآفات، وكانت تُفسد أكثرَها قبل تمامها وكمالِ نفوسها.

وذلك أن النفس الإنسانية لم يكن نشوؤها ولا تتميمها ولا تكميلها إلاّ بتوسّط هذا الجسد المملوء من آثار الحكمة، كما بيّنا في رسالة تركيب الجسد، ورسالة الحاسّ والمحسوس، وقد بيّنا ذلك في رسالة الإنسان عالم صغير. فبواجب الحكمة الإلهية رُبطت بالأجساد البشرية، وذلك أن النفس الإنسانية لا تعرِف حقائق المحسوسات،

---

[1] العَذِرة: الغائط.

ولا تتصور معاني المعقولات، ولا تقدر على عمل الصنائع، ولا تتخلق بالأخلاق والأعمال الحميدة إلا بتوسّط هذا الجسد طولَ حياته إلى آخر العمر، كما قال تعالى ﴿أخرجكم من بطون أُمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ وقال: ﴿فلما بلغ أشُدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً.﴾ فلو لم يَعرض للنفس الألم من الأشياء المُفسدة للجسد، لكان الإنسانُ مثلاً إذا نام فاستغرق في نومه، ثم مد يده ورجله فدخلتا في نار إلى جنبه فاحترقتا، ولم يكن يُحسّ به حتى ينتبه من نومه، فإذا هو بلا يدين ولا رجلين، وكان يبقى طولَ عمره بلا آلة للمشي ولا أداة لاتخاذ الصنائع. وعلى هذا القياس حُكم نفوس سائر الحيوانات، لو لم يكن يعرض لنفوسها الألم من الأشياء المُفسدة لأجسادها، لتهاونت بها وتركتها متعرضةً للآفات والهلاك، كما أنه لو لم يكن يجعل لها شفقةٌ على صغارِ أولادها وتحنّناً عليها، لتركتها وتهاونت بها، ولم تحتمل المشقة في تربيتها، وكانت تهلِك كلّها قبل التمام، وكان مصير ذلك سبباً لانقطاع النسل ودُثور الصورة من المادة. وقيل لبعض الحكماء: أيُّ أولادك أحب إليك؟ فقال: صغيرُهم حتى يكبَر، وعليلهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يرجع. فإذاً بواجب الحكمة جعلت تُحس ما يلحقها من الآلام لحفظ أجسادها من التلف، وتحثها على صيانتها من عوارض الآفات والآلام.

فصل في ماهية الألم واللذة وكيفيتها

فنقول: ان اللذات والآلام التي تحفظ أجسادها من التلف، وتحثّها على صيانتها نوعان: جسماني وروحاني. فاللذات الجسمانية هي التي تجدها النفسُ عند الخروج من الألم، والآلامُ التي تُحسّها النفس عند خروجِ مزاجِ الأجساد عن الاعتدال الطبيعي إلى حد الطَّرفين من الزيادة والنُّقصان بسبب من الأسباب هي كثيرةٌ لا يُحصَى عددُها، مثالُ ذلك الجوعُ أحد الآلام تُحسّ به النفسُ عند خلو المَعِدة من الطعام، وذلك أن الحرارة الغريزية التي تُنضج الطعام في المَعِدة إذا لم تجد هناك طعاماً تكون مشتغلةً، فإذا اشتغلت في جِرم المعدة فنيت رطوباتها المعدَّة لمَصالحها، فإذا فنيت تلك الرطوبات انفسد جِرمُ المعِدة، فإذا أحسّت النفس بالآلام، انتهض الجسدُ في

طلب القوت ليزيلَ عنه الفساد وعن ذاتها الألم، فإذا وصل ذلك إلى المعِدة رَجعت تلك النارُ عن جِرم الجسد، واشتغلت عن ذلك الطعام، وسكن الالتهابُ عن جرم المعِدة، فتجد النفسُ لذلك راحةً، فتسمّى تلك الراحة لذّةً. وهكذا العطش فإنه حرارةٌ تلتهب في جِرم الكبد، ولا تسكُن إلاّ بشرب الماء. فتُحسّ النفس عند التهاب تلك الحرارة ألماً، وعند سكونها راحة، فهاتان الخَلّتان تحُثّان النفس الحيوانية على طلب مادّة أجسادها، لتَخلُف عليها بدَلَ ما يتحلل منها إذ كانت ذاتُ الجسد دائماً في الذوبان والسَّيلان من أسباب خارجة وأسباب داخلة، ولو لم تعرض لنفوسها الآلامُ والأوجاع عند الجوع والعطش، لما نهضت أجسادُها في طلب غِذائها وفي مادة بقائها، وكان يُبطِلُ أجسادَها الذوبانُ قبل تمامها وكمالها. فإذاً قد بان من الألم واللذّة أنما هي حَثُّ النفوس على ما يُصلح الأجساد، لأن في صلاح الأجساد صلاحَ النفوس، كما بيّنا قبلُ. وهذه اللذة التي تجدها النفوس الحيوانية عند تناول الغِذاء هي أيضاً تجدها النفوسُ النباتية، وهي التي تحثُّها على جَذب الرطوبات إلى أُصول النبات وإلى أعلى فروعها، فإذا لم تجد ذلك جَفّت أجسامها وهو موتها، ولكن لا يَعرض لنفوسها الألم عند فقدان الغِذاء كما يعرض للنفوس الحيوانية، فمن أجل هذا لم تَجعَل لها حِيلةُ التنقل من مكان إلى مكان في طلب الغِذاء كما للحيوان، ولا فراراً من المؤذيات، لأنه لا يليق بالحكمة الإلهية أن تجعل لها ألماً وتمنعها حيلة الدفع.

وأما النفوس الحيوانية لما جُعلت لها حيلةُ الدفع عن أجسادها الأشياء المفسِدة لها، جُعِل لها ألمٌ يحثُّها على ذلك إما بالطلب، وإما بالهرب، وإما بالتحرُّز، كما بيّنا في رسالة الحيوان.

وأما لذة الانتقام فهي أيضاً خروج من الألم. وذلك أن الغضب نار وحرارة تشتعل في جِرم القلب وهو شهوة الانتقام من المؤذي الذي أثار الغضب، فإن وصل إلى الانتقام، سكنت تلك الحرارة وخمدت نارها. وإن لم يقدر على ذلك ولم يصل إليه، صار الغضبُ حُزناً ومصيبة، مثال ذلك، إذا قُتِل لأحد قتيلٌ أوقدت نارُ غضبه على القاتل شهوةَ القوّة، فإن قتَلَ القاتلَ سكنت تلك الحرارة، وإن قتله الموت

صار حزناً ومصيبة، لأنه لا يمكن أن يؤخذ من الميت القوة. وعلى هذا القياس سائر الشهوات نيرانٌ تشتعل في الأجساد وتحسّ النفوس آلامها.

ثم اعلم أن الأجساد كلها نيرانٌ بالقوة جامدة، فإذا أصابتها نار بالفعل، صارت نيراناً بالفعل. والدليل على ذلك أنها كلها يمكن أن تُحرَق بالنار. فلو لم تكن من النار لما أمكن إحراقها بها. وهكذا حُكم مأكولاتها وملبوساتها كلها نيران جامدة كُوِّنت من النار والهواء والماء والأرض، وإليها تستحيل بعد مفارقة النفوس لها. ومن أجل هذا قال رسول الله، ﷺ: «أهل النار خُلقوا ومن النار يأكلون، وعلى النار يتقلبون»، وهذه حال الأجساد ومرافِقها ومادّتها كلها نيران جامدة، إذا اشتعلت التهبت على الأفئدة كما قال الله، عز وجل: ﴿نار الله الموقَدة التي تطّلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة﴾ وهي آمالٌ طِوال وآجال قصار ﴿لابثين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلاّ حمياً وغسّاقاً﴾ إشارة إلى ما ذكرنا، كلما نَضِجت جلودهم، يعني أجسادهم، بالبِلى بدّلنا لهم جلوداً غيرَها، بُدّلوا بالكون ثانياً.

فصل في الكفر

اعلم يا أخي بأن الله، عزّ وجل، قد أكثر في القرآن مدح المؤمنين وذمَّ الكافرين، لأنهما خَلّتان بينهما بُعدٌ بعيد: إحداهما مجمع الخير كله، وفضيلة الإنسانية فيها كلها، وهي الإيمان، والأخرى ضدها وهي الكفر، وهو مجمع الشرور كلها. وقد بيَّنا في رسالة الناموس ورسالة المؤمنين معنى قولنا ما الإيمان ومن المؤمن؟ ونذكر في هذا الفصل ما الكفر، ليُعلم من الكافرون بالحقيقة، فنقول:

اعلم أن الكفر في لغة العرب الغِطاء، وهو شيء يَعرض للنفس من جهة الجسد، وذلك أنه إذا استقرت النفس في الجهالة تغطّى عليها أمرُ ذاتها، وذهل عليها معرفةُ جوهرها، وتنسى مبدأها، ولا تذكر من أمر مَعادها، حتى تَبلُغ من جَهالتها ألاّ تعلم بأن لها وجوداً خِلواً من الجسد، حتى تظن أنها جسمٌ، كما يَظُن ويقول كثيرٌ ممن

يتعاطى النَّظَر في العلوم، وهو قولهم: ان الإنسان هو هذا الجسد الطويل العريض العميق، المؤلّف من اللحم والدم. ولا يدرون أن مع هذا الجسد جوهر آخر وهو المُحرّك له، وهي النفس المُطَّهرةُ به، ومنه أفعالها.

فمن لا يعرف جوهر النفس فهو لا يعرف شيئاً من الأمور الروحانية ولا يتصورها، وإذا سُمِع ذكرها أنكرها لشدة استغراقه في بحر الهَيُولى وظُلُمات الجهالات. فهؤلاء إذا سمعوا بذكر جهنم، لا يتصورونها إلاّ أمراً صِناعياً، وهو أنهم يظنون أن جهنم هي خندق محفور، كبير واسع، مملوء من نيران تشتعل وتلتهب، وأن الله تعالى يأمر الملائكة قصداً منه وغَيظاً على الكُفّار أن يأخذوهم ويرموا بهم في ذلك الخندق. ثم إنه كلما أُحرِقت أجسادُهم وصارت فحماً ورماداً، أعاد فيها الرطوبة والدم حتى يشتعل من الرأس ثانياً كما اشتعل أول مرة. وهكذا يكون دأبهم أبداً، ويحتجون بقوله تعالى: ﴿كلما نضِجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.﴾ ولا يدرون معنى قوله تعالى ولا تأويل كتابه، انهم إذا سمعوا أن الله غفور رحيم حنَّان مَنَّان رؤوف وَدود، وما شاكل ذلك من أسمائه الحسنى، وتفكروا فيها أنكرت عليهم عقولهم ما اعتقدوا فيه من الحِقد وقلة الرَّحمة لخلقه، فعند ذلك يتحيرون ويتشكَّكون فيما أخبرت به الأنبياء، عليهم السلام: إذ لا يعرفون شيئاً عن صفة جهنم وعذاب أهلها، ولا يعرفون تأويل كتبهم ولا معاني إشاراتهم ورموزاتهم ودقائق أسرارهم.

فهكذا إذا سمعوا ذكر الجنة ونعيمها وسرور أهلها ولذاتهم، فلا يتصورونها إلاّ أموراً جسمانية شبه بساتين فيها أشجارٌ وعليها ثِمار، وقصورٌ بينها أنهار، وفي تلك القصور حُور وغِلمان ووِلدان سُردان على أمثال أبناء الدنيا ونعيم أهلها. وإذا سمعوا بأن أهل الجنة في جِوار الرحمن حيثُ قال: في مقعد صِدقٍ عند مليكٍ مقتدر، وأنهم يزورون رب العالمين فيرونه وينظرون إليه، كما قال تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، وأن الملائكة يزورونهم بالهدايا والتُّحَف كما قال الله تعالى: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ وما شاكل هذا من وصف أهل الجنة من شرب

الشَّراب أو مباشرةٍ مع الأبكار، وأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرَمون، وأصِحّاء لا يمرضون ولا يجوعون ولا يعطشون، ويأكلون ويشربون ولا يَبُولون ولا يتغوّطون وما شاكل هذه من الصفات التي لا تليق بأجسام الطبيعة الكائنة الفاسدة فضلاً بالأشياء الروحانية.

فإذا فكروا فيها تحيروا أيضاً فيما يعتقدون من أمر الجنة ونعيمها وحالات أهلها، فيشكُّون أيضاً في الجنة وما خبَّرت به الأنبياء، عليهم السلام، من وصف الجِنان ونعيم أهلها وحالاتهم، وما يُقصِّر الوصفُ عنها. فإذا ذهب عليهم معرفتُها وتغطّى عليهم علمُها، أنكروها بقلوبهم، وإن كانوا لا يظهرونها بألسنتهم مخافةَ السيف والصَّلب كما قال الله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾.

فهذا هو حقيقة الكُفر والضَّلال والجَهالة وعمَى البصر، لأن هؤلاء لا يؤمنون بظواهر الآيات والأخبار، ولا يتفحصون عن حقائق أسرار كلام الله، وأسرار الأخبار النبوية، حين قالوا وبيّنوا. فجملة ذلك حقٌّ وصدق لا مردَّ عليه حسَبَ ما اقتضى العقلُ حقيقة ذلك، كما لا يفهم هؤلاء الظَّلَمةُ الكَفَرةُ، أعاذنا الله وإياك، أيها الأخ، من الكُفر والنِّفاق والفِسق والعصيان، ورزقك وإيانا الإيمانَ والغفران، إنه رؤوف رحيم بالعباد.

فصل في الكون والفساد

ثم اعلم وتيقَّنْ ولا تشُكَّ في أن جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر، وأن الجنة هي عالَمُ الأرواح وسَعة السموات، وأن أهل جهنم هي النفوس المَلكيّة التي في عالم الأفلاك وسَعة السموات في رَوْحٍ وريحان، البريئةُ من الأوجاع والآلام. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شعب﴾. إشارة إلى النفوس المتَّحدة بالأجسام ذات الطول والعرض والعُمق التي دون فلك القمر. وذلك أن تلك النفوس لما جَنت هناك الجناية التي ذُكِرت في قصة آدم، عليه السلام: ﴿وقيل اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى

حين﴾ وقال: فيها تحيون، يعني في الأرض، وفيها تموتون، ومنها تخرجون عند النفخ في الصور.

وإنما قيل إن جهنم هي سبعُ طبقات، لأن الأجسام التي دون فلك القمر سبعة أنواع: أربعة منها هي الأمهات المستحيلات التي هي الأركان الأربعة وهي النار والهواء والماء والأرض، وثلاثة هي المولّدات الكائنات الفاسدات التي هي المعادن والنبات والحيوان.

ثم اعلم أن تلك النفوس لما أُخرِجت من الجنة عالم الأفلاك، أهبطت إلى الأرض عالم الكون والفساد الذي دون فلك القمر، وهي ساكنة في عُمق هذه الأجساد، وغريقة في بحر الهَيُولى القابل للكون والفساد، وغائصة في هياكل هذه المتولّدات منقطعةً فيها كما قال تعالى: ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾. وقال: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلاّ أمم أمثالكم﴾.

وإنما قال لها سبعة أبواب لكل باب منها جزء مقسوم، لأن كلَّ ما يجري في عالم الكون والفساد فبدلائل هذه السبعة السيارة، وإنما قال عليها تسعة عشر، لأن دلائلها لا تظهر في عالم الكون والفساد إلاّ بمسيرها في هذه البروج الاثني عشر، فجملتها تكون تسعة عشر، وهي التي بها يكون تقلّب أحوال الدنيا وما تقتضيه موجِبات أحكامها في مواليد هذه الأجساد، وما يدل عليها مما يُصيبهم من الآلام والأوجاع، والأسقام والأمراض والأحزان، من الجوع والعطش، والحر والبرد، والفقر والغنى، والذُّل والعبودية، والغموم والهموم، ونوائب الحدثان، وعداوة الأقران، وحسد الجيران، وجَور السلطان، ووساوس الشيطان، ونكبات الزمان، ومصائب الإخوان، وخوف الموت، ووعيد ما بعد الموت المذكور في القرآن، وما شاكل هذه المصائب التي لا يُحصى عددها التي هي النفوسُ المرهونة بها ما دامت مع هذه الأجساد.

فإذا فكّر العاقل اللبيب في حال النفوس المتجسّدة وما يلحقها من المِحَن والمصائب بتوسط هذه الأجساد، وما يَعرِض لها من الآلام والأوجاع والمناحِس كما بينّا قبلُ، وتفكر أيضاً في حالات النفوس التي هي أهل الجنة وعالم الأفلاك الذين هم

سكان السموات، إذا سمع بأنهم أحياء لا يموتون، وشبان لا يهرَمون، وأغنياء لا يفتقرون، وجيران لا يتحاسدون، وإخوان على سُرُر، متقابلين متنعمين متلذذين، خالدون فيها، آمنون لا يخافون ولا يحزنون، فهم في رَوح وريحان ورضوان، رغبت نفسُه إلى ما هناك، وزهِدت في الكون هاهُنا.

فكلما نظر بعين رأسه إلى جسده في عالم الكون والفساد معذَّباً من أبناء جنسه، استعاذ بالله وسأله الخلاص والنجاة مما هو فيه من مشاركة أبناء الدنيا، وكلما نظر بعين عقله إلى نفسه وأبناء جنسه في عالَمِ الأفلاك، وما هم فيه من الرَّوْح والريحان، تمنى الوصول إلى هناك، وسأل ربَّه اللحاقَ بهم، كما سأل يوسف الصِّدّيق، عليه السلام، وكذلك إبراهيمُ، عليه السلام، وعند ذلك تصير الدنيا عليه سجناً كما قال، عليه الصلاة والسلام: «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر». ويكون عند ذلك من أصحاب الأعرافِ الذين هم أهلُ المعارف، كما وصفهم الله تعالى: ﴿وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون﴾. وإذ صرفت أبصارهم تلقاء «أصحاب النار» يعني أهل الدنيا التي في عالم الكون والفساد: ﴿قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين﴾. وهؤلاء الرجال الذين على الأعراف هم الذين مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ وقال: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ فهؤلاء هم أولياء الله الذين هم يتمنون الموت لما قد تبين لهم ما بعد الموت من الوجود المَحْض والبقاء الدائم والرَّوح والرَّيحان والنجاة من الآلام والأوجاع والأسقام التي كلها جهنم ونيران.

وأما من لا يعرف ما وصفنا له، لا يَعقِلُ ما بيَّن الله تعالى في كتابه على ألسنة أنبيائه إلاَّ هذه الدنيا التي كلُّها آلامٌ جسدانية من الشهوات الجسمانية واللذات الحيوانية، فهو لا يرغب إلاَّ فيها ولا يتمنى إلاَّ الخلود معها، كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿أيود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر﴾ فهؤلاء هم الكفار الذين تَغطَّى عليهم الصفاتُ الحقيقية والأسرارُ الخفيةَ التي كلها

رموز أُخرَويّة ثابتةٌ للنفوس الناجية من نيران الهاوية. نجانا الله وإياك أيها الأخ، ورزَقنا وإياك الدخولَ في زُمَر الملائكة.

فصل في كيفية وجدان اللذة والآلام معاً في وقت واحد

فنقول: اعلم أن الإنسان في دائم الأوقات لا يخلو من ألم ولذة جسمانية وروحانية من عِدَّة وجوه. مثال ذلك العاشق يرى معشوقه وهو على خِيانة، فتسره رؤيته له ويلتذ بها، وتغمُّه خيانته له وتؤلمه كما قال:

قايستُ بين جماله وفِعاله، فإذا الملاحةُ بالقباحة لا تفي

وكمِثلِ من يأكل طعاماً يشتهيه وله رائحةٌ مُنكَرة تؤذيه، مثل الصَّحَنى[1] والمامِيامه[2] لساكن السواحل، فهو يلتذ بأكله وتؤلمه رائحته. ومثل من يسمع لحناً طيباً ونغمة لذيذة كغِناء أبيات من الشعر فيها هجوٌ له، فإنه يلتذ باستماع اللحن اللطيف، ويغمُّه هجوه في وقت واحد. ومثل من يسمع بموت مُورث له تَركَته، فيغتم لخبر موته، ويسرُّه ما وَرِث. ومثل من به جربٌ مؤذ يحكُّه، فيجد له لذةً وغمّاً في وقت واحد، وألمين متضادَّين وراحة بينهما. وكمن هو يعملُ عملاً متعباً أو صناعة شاقة يرجو عليها ثواباً جزيلاً وأجرةً وافرة، فهو يجد ألماً من عمله المتعب، ولذة وفرحاً لما يرجو من ثوابه. وعلى هذا القياس حكم سائر الآلام واللذات الجسمانية كما قال القائل:

ومن نكد الأيام أن صروفَها إذا سَرَّ منها جانب، ساءَ جانبُ

أو كمن سكن عنه وجعُ العين وضربُ ضرسه، فإنه يجد ألماً وراحة في وقت واحد. وكمن له خُلق حسن وخُلق سيِّء فإنه يجد من أحدهما راحة ومن الآخر ألماً في وقت واحد. ومثل من يرى صديقاً قد غاب دهراً، وأخبر بسوء حاله، فيسره

---

[1] الصحنى: ادام من السمك الصغير المملوح.

[2] المامِيامه: الظاهر انه ضرب من السمك، ولعله المارماهي، وهو الأنكليس.

رؤيته ويغمه سوء حاله. أو كمثل من يضع إحدى رجليه في ماء بارد، والأخرى في ماء مَغليّ، وإحدى يديه في ماء فاتر، فإنه يجد لذة وألماً في حالة واحدة. ومثل من عمل عملاً حسناً يرجو جَزاءً عليه، وعملاً سيئاً يخاف عقوبة عليه، فيكون متألماً ملتذاً في وقت واحد. وعلى هذا المثال إذا اعتَبَرَ أحوالَ الناس، فلا يخلو من ألم يؤذيه وراحة من ألم قد زال عنه، فيكون الإنسان الواحد في وقت واحد ملتذاً متألماً، معاقَباً مُثاباً.

وإنما ذكرنا هذه الإشارات وأوردنا هذه الأمثلة من أجل أن كثيراً ممن يتكلم في علم النفس، ويبحث عن ماهيّة جوهرها، وكيفية تشخيصها، يرى ويعتقد أنها أشخاص متباينة كثيرة. فأكثرُ ما يُقوّي رأيَ مَن ظَنَّ أن النفس أشخاص كثيرة ما يظهرُ من اختلاف أحوالها وأفعالها وأخلاقها وآرائها وأعمالها، وأن بعضها ملتذة وبعضها متألمة، فحكَمَ بهذا الاعتبار أنها أشخاص كثيرة منفصلة متباينة كتباين الأشخاص الجِسمانية المركّبة. ثم ناقض رأيه بقوله بأنها جواهر بسيطة، كأنه لا يدري ما معنى البسيطة. ونحن قد أخبرنا بأنها نفس واحدة تجنّست أجناسها وتنوعت أنواعها، وقد تشخّصت بحسب اختصاصها بالأجناس الجسمانية وأنواعها وأشخاصها، لأنها في ذاتها

فصل في بيان ما يخص الإنسان من المعلومات

فنقول: إن الله لما خلق الإنسان الذي هو آدم أبو البشر، عليه السلام، وفضّله على كثير ممن خلق قبله تفضيلاً جعل إحدى فضائله كثرةَ العلوم وغرائب المعارف، وجعل له إليها عِدّة طرقات: فمنها طُرق الحواسّ الخمس التي بها يُدرِك الأمور الحاضرة في المكان والزمان، كما بينّا في رسالة الحاس والمحسوس. ومنها طريق استماع الأخبار التي ينفرد بها الإنسان دون سائر الحيوانات، يفهم بها الأمور الغائبة عنه بالزمان والمكان جميعاً، كما ذكر الله تعالى ومَنّ به عليه فقال: ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾. ومنها طريق الكتابة والقراءة يفهم بها الإنسان معاني الكلام واللغات

والأقاويل، بالنظر فيها عمن لم يره من أبناء جنسه مع الزمان، أو من هو غائب عنه بالمكان كما قال الله ومَنَّ به على الإنسان، فقال لنبيه محمد، عليه الصلاة والسلام: ﴿إقرأ وربك الأكرم الذي علَّم بالقلم علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾. وبهذه الفضيلة شارك الإنسانُ الملائكة الكرام، كما قال الله تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾.

واعلم أن فهم القراءة والكتابة ومعرفتها متأخرة عن فهم الكلام والأقاويل، كما أن فهم الكلام والأقاويل ومعرفتها إنما هي متأخرة عن فهم المحسوسات، كما هو بيّنٌ ظاهرٌ لا يخفى على العقلاء، وذلك أن الطفل إذا خرج من الرَّحِم فإنه في الوقت والساعة تُدرِك حواسُّه محسوساتها، فيحس بالقوَّة اللامسة الخشونةَ واللينَ، وبالقوة الباصرة النور والضياء، وبالقوة الذائقة طعمَ اللبن، وبالقوَّة الشامَّة الروائح، وبالقوَّة السامعة الأصوات، ولكنه لا يعلم معاني الكلام والأصوات إلا بعد حين. فأول شيء يُحس باللمس، فيتألم، لأن حاسَّة اللمس أعمّ الحواس. ثم يُحس بالطعم فيميِّز لبن امه من غيره. ثم يميّز بين الروائح، فيعرف الشَّم. ثم يميِّز بين الضوء الشديد الجهير، وبين الصوت الضعيف الخفيف. ثم يُفرّق بين الصورَ. ثم يميّز على مر الأوقات بين نغمة الأم ونغمة الأب والإخوة والأخوات والأقرباء وغيرهم. ثم شيئاً بعد شيء، على التدريج، وعلى هذا المثال فهمه ومعرفته بسائر الحواسّ ومحسوساتها، إلى ان تتّم سِن التربية، ويُغلَق بابُ الرضاع، ويُفتح الكلام والنُّطق. ثم بعد ذلك تجيء أيام الكتابة والقراءة، والآداب، والصنائع، والرياضيات، وسماع الأخبار والروايات، والفقه في الدين، والنظر في العلوم والمعارف، وطلب حقائق الموجودات، والبحث عن الكائنات، والاستدلال بالحاضرات على الغائبات، والمحسوسات على المعقولات، وبالجسمانيات على الروحانيات، وبالرياضيات على الطبيعات، وبالطبيعيات على الإلهيّات التي هي الغاية القُصوى في العلوم والمعارف، والسعادةُ الأبدية والدوام السرمدي. بَلَّغك الله وإيانا الى هذه الغاية، وشرح صدرك، وفتح قلبك، ونوّر فهمك، وصفَّى نفسك، وحسّن أخلاقك، وأصلح شأنك، وزكّى أعمالك، وأنعم بالك، وأكرمك بما أنعم به على أوليائه وأنبيائه بما علّمهم من البيان والكتاب، كما

قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾.

فصل في بيان القوة المتخيلة

فنقول: إنّا قد ذكرنا طرفاً من أحوال القوّة الحاسّة، وكيفية التفاوتات التي بينها في إدراكها محسوساتها، وما الأسبابُ المُعينة لها على ذلك والمُعوقة لها عنها فيما تقدم، فنريد أن نذكر طرفاً في هذا الفصل من أحوال القوّة المتخيلة التي مسكنها الدماغ، إذ كانت التالية للقوى الحساسة في تناولها رسوم المحسوسات منها. ونذكر أيضاً بعض الأسباب المُعينة على أفعالها، والمعوّقة عن ذلك. ونذكر تفاوت درجات الناس في هذه القوّة، إذ كان ذلك أحد أسباب اختلافهم في العلوم والمعارف والآراء والمذاهب. ولكن من أجل ان هذه القوة أكثرُ القوى الحسّاسة مُتخيّلات، وأعجبُها أفعالاً، احتجنا أن نذكر عِلّة ذلك فنقول: إن لهذه القوى خواصّ عجيبة، وأفعالاً ظريفة، فمنها تناولُها رسوم سائر المحسوسات جميعاً، وتخيُّلها بعد غيبة المحسوسات عن مشاهدة الحواسّ لها. ومنها أيضاً أنها تتخيّل وتتوهم ما له حقيقة، وما لا حقيقة له، بعد أن عُرِف بسائطها بالحسّ، إذ له من القوة ما يقدر أن يوافي الصوَر التي أدّاها الحس الى النفس في هَيُولاه كيف شاء، لأنه كان يجدها مجرّدة عن الهيولي التي هي ماسكة للصور، ومختفية بعضها دون بعض. فإذا أخذها مجرّدة لا إمساك لها ولا ربط، أمكنه أن يؤلّف بينها كما شاء ويركّبها، ويَصِل بعضها ببعض ما لم تكن متصلة بالهَيولي. مثال ذلك أن الإنسان يمكنه ان يتخيّل بهذه القوة جملاً على رأس نخلة، أو نخلة ثابتة على ظهر جمل، أو طائراً له أربع قوائم، أو فرساً له جناحان، أو حماراً له رأس إنسان، وما شاكل هذه مما يعمله المصوّرون والنقّاشون من الصوَر المنسوبة إلى الجن والشياطين وعجائب البحر، مما له حقيقة، ومما لا حقيقة له. وإنما يستوي للإنسان بهذه القوة المتخيّلات والتصوُّر لها لعلتين اثنتين: إحداهما من أجل ان هذه المتخيّلات يجتمع عندها موادٌّ كثيرة من رسوم المحسوسات، مع اختلاف أجناسها، وفنون أنواعها وسائر أشخاصها، فهي يمكنها بهذا السبب أن تُركّب منها ضروب التراكيب مما له حقيقة في الهيولي، ومما لا حقيقة له.

والعلة الأخرى من أجل شرف جوهر النفس ولطافتها، وشدّة روحانيتها، وسهولة قَبُولها رسوم المعلومات في ذاتها وتصوُّرها لها، وذلك ان كل هَيولي تكون ألطف جوهراً. وأشدّ روحانية، فإنها تكون لقَبول الصُّور أسرعَ انفعالاً، وأسهل قَبولاً. مثالُ ذلك الماء العَذْب فإنه لما كان ألطف جوهراً من التراب، صار لَقبول الطُّعوم والأصباغ أسرعَ انفعالاً، وأسهل قَبولاً لنظافته وعذوبته وسيلانه. وهكذا لما كان الهواء ألطف جوهراً من الماء، وأشد سَيَلاناً، صار قَبُوله للأصوات والروائح أسرعَ انفعالاً وأسرع قبولاً. وهكذا لما كان الضياء والنور ألطف من الهواء صار قَبولها للألوان والأشكال أسرعَ وأشدَّ روحانية. فكيف لطافةُ النفس وروحانيتها! ولعل هذا الباب يخفي على كثير ممن ينظر في دقائق العلوم من المحسوسات، فكيف بالنظر في الأمور الروحانية، وذلك أن جوهر النفس ألطفُ وأشدُّ روحانيةً بكثير من جوهر النور والضياء. والدليل على ذلك قَبولها رسومَ سائر المحسوسات والمعقولات جميعاً. فلهاتين العِلتين صار الإنسان بالقوّة المتخيِّلة يَقدِر على أن يتخيّل ويتوهّم ما لا يَقدِر عليه بالقُوى الحسَّاسة، لأن هذه روحانيةٌ وتلك جسمانية، ولأنها تُدرِك محسوساتها في الجواهر الجسمانية من خارج. وأما القوّة المتخيّلة فهي تتخيلها وتتصوّر في ذاتها. والدليل على صحة ما قلنا أفعال الصُّناع البشريِّين: وذلك أن كل صانع يبتدىء أولاً يتفكّر ويتخيّل ويتصوّر في وهمه صورة مصنوعة بلا حاجة إلى شيء من خارج، ثم يَقصِد بعد ذلك إلى هَيُولي مّا، في مكان مّا، في زمان مّا، فيصوّر فيها ما هو مُصور في فكره بأدواتٍ مّا، وبحركاتٍ مّا، كما بيَّنا في رسالة الصنائع العملية.

ومن خاصة هذه القوّة أنها تعجز عن تخيُّل شيء لم تُؤدّ إليه حاسة من الحواس، وذلك ان كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيّل الألوان، وما لا سمع له فلا يتخيّل الأصوات ولا يتوهمها، لأن التخيل أبداً في تصوُّره للأشياء تَبَعٌ للإدراك الحسيّ، والعقلُ في استنباطها تبَع الدليل النفسيّ. فأما الإنسان فإنه لما كان يفهم الكلام، أمكنه أن يتخيّل المعاني إذا وُصِفت له.

فصل في عجائب هذه القوة المتخيّلة وتفاوت الناس فيها

فنقول: اعلم ان الناس في هذه القوة متفاوتو الدرجات تفاوتاً بعيداً جداً، والدليلُ عليه أنك تجد كثيراً من الصبيان يكون أسرع تصوُّراً لما يسمعون، وأجود تخيُّلاً لما يصف لهم كثير من المشايخ والبالغين، وذلك أن كثيراً من العلماء والعقلاء والمُرتاضين في العلوم والآداب تعجِز نفوسهم عن تصوُّر اشياء كثيرة قد قامت الحُجّة والبراهين على صحتها.

ثم اعلم أن العلة في تفاوت درجات الناس في هذه القوّة ليست من اختلاف جواهر نفوسهم، ولكن من أجل اختلاف تركيب أدمغتهم واعتدال أمزِجتها، أو فسادها وسوء مِزاجها - كما ذُكر ذلك في كتب الطب - ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضاً، وما يتأتى للإنسان ان يعمل بها أعمالاً عجيبة، ما يحكى عن قوم من الكهنة من أهل الهند أنهم يُؤثّرون في غيرهم بأوهامهم أشياء عجيبة يُنكرها أكثر الناس. فأما حُكماء بلاد اليونان وفلاسفتها فيرون ذلك يمكن ويتأتى للإنسان في نفسه، فأما في غيره فبعيدٌ جداً، ونحن قد بيَّنا ذلك في رسالة الزَّجْر.

ومن عجائب أفعال هذه القوة أيضاً أنها تُركّب القياسات، وتحكم بها على حقائق الأشياء بلا روية ولا اعتبار، مثل ما يفعل الصبيان والجهّال وكثير من العقلاء أيضاً، مثالُ ذلك ان الصبي الطفل إذا نشأ ورأى والديه، وتأملها، وميز بينهما، ثم رأى صبياً آخر مثله حَكم بتوهُّمه بأن لذلك الصبيّ والدين أيضاً قياساً على نفسه. وإن يكُن له أيضاً أخ أو أُخت، يظن ويتوهم بأن لذلك الصبي مثلَ ما له قياساً على نفسه، من غير فكرة ولا روية ولا تأمّل.

وأنت يا أخي ما تقول في هذا؟ هل هذا قياس صحيح أو خطأ؟ حتى إنه ربما رأى في دار والديه دابّةً أو متاعاً، أو أصابة حر أو برد، أو جوع أو عطش، أو وجع أو غم، فظنَّ وتوهم ان سائر الصبيان قد أصابهم مثلُ ذلك، قياساً على أحوال نفسه، من غير فكر ولا روية في صوابه وخطأه، حتى إذا كبر وتفكّر، وميّز، تبيّن له صوابه من خطأه في قياسه.

ثم اعلم أنك تجد كثيراً من الناس العقلاء ومن يتعاطى العلم هذا حُكمهُم في قياساتهم، وذلك أن كثيراً من الناس من إذا رأى في بلده ليلاً أو نهاراً، أو شتاءً أو صيفاً، أو حرّاً أو برداً، أو ريحاً أو مطراً، ظن وتوهم بأن سائر البلاد مثله في ذلك الوقت، قياساً على ما وجد في بلده. فإذا نظر في علم الرياضيات من الهندسيات والطبيعيات، تبين له أن قياسه كان خطأً أو صواباً. وهكذا نجد كثيراً من المرتاضين بهذه العلوم يتوهمون ويظنون بأن خارج العالم فضاءً بلا نهاية، قياساً على ما يجدون خارجَ بُلدانهم من بلادهم من سَعة الأرض، ومن ورائها سَعةً الهواء ومن ورائها سعةُ الأفلاك.

وهكذا أيضاً إذا فكّروا في كيفية حدوث العالم وخَلْقِ السموات والأرض، ظنوا وتوهموا أن ذلك كان في زمان ومكان، قياساً على أفعال البشريّين. وإذا سمعوا من أهل البصائر قولَهم بأن العالم لا في مكان، لا يتصوَّرون كيفيةَ ذلك، فإذا قيل لا في زمانٍ ظنّوا وتوهموا أنه قديمٌ بلا حُجّة ولا برهان.

فصل في بيان فضيلة هذه القوة

فنقول: اعلم أنّا قد ذكرنا أن لهذه القوة المُتخيّلة عجائبَ كثيرة، ووصفنا خواصّ أحوالها من أجل انها من أعجب القوى الدرّاكة، وأن أكثر العلماء تائهون في بحر هذه القوة وعجائب متخيَّلاتها، وذلك ان الإنسان يمكنه بهذه القوة، في ساعة واحدة، أن يجول في المشرق والمغربِ، والبر والبحر، والسهل والجبل، وفضاء الأفلاك وسعة السموات؛ وينظُرَ إلى خارج العالم، ويتخيَّل هناك فضاء بلا نهاية، وربما يتخيَّل من الزمان الماضي وبَدء كون العالم، ويَتخيَّل فناء العالم، ويرفع من الوجود أصلاً، وما شاكل هذه الأشياء مما له حقيقة، ومما لا حقيقة له.

وهذا الباب أحد الأسباب من جهة اختلاف العلماء في آرائهم ومذاهبهم في المعلومات: وذلك أنك تجد كثيراً من العقلاء، إذا تفكروا وتخيّلوا، بهذه القوة، شيئاً ما، ظنوا ان ذلك حقّ، وحكموا عليه حُكماً حقّاً بلا حجة ولا برهان.

وأيضاً إن كثيراً منهم، إذا سمع شيئاً من العلوم فلم يتصوره ـ لعَجزِ هذه القوة ونُقصان فعلها فيه ـ أنكر وجحد، ولم ينظر إلى الدليل والبرهان البتّة.

فأما العقلاء المنصفون في الحكمة، الطالبون للحق، غيرُ المعجبين بأنفسهم، إذا سمعوا بالأخبار عن شيء مُتوهَم، وتخيّلوا شيئاً غالباً لم يحكموا على صحته وعلى بطلانه، إلاّ بعد الحُجة والبرهان على تحقيقه او بُطلانه كما يفعل المهندسون والمنطِقيُّون.

وإذ قد ذكرنا طرَفاً من خواصّ هذه القوة المتخيّلة وعجيب أفعالها، نريد أن نذكر طرفاً من خواصّ القوة المفكّرة التالية في تناولها رسومَ المحسوسات المُتخيّلات منها التي هي أشرف أفعالاً وأكثرها عجائب.

فصل في بيان أفعال القوة المفكّرة

فنقول: اعلم أن للقوة المُفكِّرة خواصّ كثيرة، وأفعالاً عجيبة تستغرق فيها أفعالَ هذه القوة المتخيِّلة، وأفعالَ سائر القوى الحسّاسة الدرّاكة، وذلك أن أفعال هذه القوة نوعان: فمنها ما يخصُّها بمُجرَّدها، ومنها ما تشترك فيه مع قوة أُخرى من قوى النفس. فمن ذلك الصنائع، فإن أكثرها أفعال مشتركة بين هذه القوة المفكّرة التي آلتُها وسط الدماغ، وبين القوة الصّناعية التي آلتُها اليدان. ومنها الكلام والأقاويل واللغات أجمع، فإنها أفعال مشتركة بين هذه القوة، وبين القوة الناطقة التي آلتُها اللسان. ومنها تناول رسوم المحسوسات المُتخيّلات، فإنها أفعال مشتركة بين هذه وبين المُتخيِّلة التي آلتُها مُقدّم الدماغ. ومنها تناول رسوم المعلومات المحفوظة، فإنها المشتركَة بين هذه وبين القوة الحافظة التي آلتُها مؤخر الدّماغ.

وأما الأفعال التي تخصُّها بمجرَّدها فهي الفكر والرويّة، والتمييز، والتصوُّر، والاعتبار، والتركيب، والتحليل، والجمع، والقياس البرهاني. ولها أيضاً الفِراسة، والزَّجْر، والتَّكهين، والخواطر، والإلهام، والوحي، ورؤية المنامات وتأويلها.

أما بيان ذلك فنقول: إن الإنسان بالتّفكر يستخرج غوامض العلوم بالرويّة، ويمكن له تدبيرُ المُلك والسياسة، وبالاعتبار يعرف الأمور الماضية مع الزمان، وبالتصور يُدرك حقائق الأشياء، وبالتركيب يستخرج الصنائع، وبالتحليل يعرف الجواهر البسيطة والمركبة، وبالجمع يعرف الأنواع والأجناس، وبالقياس يُدرك الأمور الغامضة الغائبة بالزمان والمكان، وبالفراسة يعرف ما في الطبائع، وبالزجر يعرف الحوادث وتصاريف الأحوال، وبالتكهين يعرف الكائنات بمُوجبات الأحكام الفَلكيات، وبالمنامات وتأويلها يعرف الكائنات والبِشارات والإنذارات، وبقَبول الوحي والإلهام يَعرف الوضع للنواميس الإلٰهية وتدوينَ الكتب المنزلة.

فأما فضائل هذه القوة وقضاياها على ما بُيّن ههنا، وذلك أن هذه القوة المفكّرة من بين سائر القوى الحسّاسة والمتخيّلة ومُدْرَكاتها كالقاضي بين الخصماء ودعاويهم، وذلك ان من سُنّة القاضي ان لا يحكُم بين الخصوم إلاّ على سبيل معرفة شرعية، وضعيّة، معروفة بينهم، أو مقاييس عقلية مُتَّفق عليها بين الخصمين، ولا يقبل الدعاوي إلاّ بالشهود والصكوك، وموازينَ ومكاييل معلومة معروفة بين الخصماء.

فهكذا حكومة هذه القوة المفكّرة التي مَسكِنُها وسط الدماغ، وقضاياها بين مُدْركات الحواسّ ومُتخيلات الأوهام، فيما يدعي العقلاء بينهم من المنازعات والخصومات، في الآراء والديانات والمذاهب، فهي لا تحكم لأحد بين الخصمين بالصواب ولا بالخطأ إلاّ بعدما شهد شاهدان من الحواسّ الخمس، أو نتائج مُقدّمات جزئية في أوائل العقول. مثال ذلك في رجلين اختلفا في الحكومة في لون الشراب، يحكم أحدهما بأن ذلك لون الماء، والآخر أبى، ثم تحاكما الى القوة المفكّرة فلم تحكم هي لأحدهما بالصواب ولا بالخطأ، إلاّ بعد شهادة شاهدين من الحواس: وهما القوة الذائقة والباصرة. وهكذا لو أنهما اختلفا في رؤية الماوَرد أو خلّ مُصعّد[1] أو نِفط أبيض، أو ما شاكلها من الأجسام التي يُشبه لونها لون الماء، ولمسها لمس الماء، فإن القوة المُفكّرة لا تحكم لأحدهما إلا بعدما تشهد القوة الذائقة والشامّة بماهيتها.

---

١ مُصعّد: عولج بالنار.

وعلى هذا المثال والقياس ينبغي ان يكون سائر قضايا القوّة المفكرة بين الناس فيما يختلفون فيه من الحكومة على المحسوسات والمتخيّلات في الحكومات والقضايا جيماً.

فتفقد يا أخي هذا الباب واعتبر فإنه أول طريق العلوم، وأول الاختلافات التي وقعت بين الناس في المُدركات من المحسوسات والمُتخيّلات.

وإذ قد ذكرنا طرقاً من أسباب الاختلافات التي وقعت بين الناس في المدركات من المحسوسات والمتخيّلات أجمع، فنريد أن نذكر طرّفاً من أسباب الاختلافات التي وقعت بين العقلاء في الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول، إذ كان هذا الباب تالي المحسوسات في النظام والترتيب، وذلك ان المعقولات التي هي في أوائل العقول ليست شيئاً سوى رسوم المحسوسات الجزئيات المُلتقَطة بطريق الحواسّ من الأشخاص المجتمعة في فكر النفس المسمّى أنواعاً وأجناساً، كما بينّا في رسالة القاطيغورياس.

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في معرفتهم هذه الأشياء، التي تُعلم بأوائل العقول، تفاوتاً بعيداً جداً. والدليل على ذلك بما قلنا انك تجد كل إنسان يكون أكثر تأمّلاً في المحسوسات، وأجود اعتباراً للمتخيلات، فإن الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول تكون في نفسه أكثر عدداً وأشدّ تحقيقاً من غيره من الناس مثل المشايخ والمجرّبين للأمور المحسوسة. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ وقال: ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾ وقال: ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ وقال: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ وقال: ﴿يرفع الله الذي آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات﴾.

فصل في بيان ما يُعلم بأوائل العقول

فنقول: اعلم أن الأشياء التي تُعلم بأوائل العقول، بعضُها ظاهر جليّ لكل العقلاء، وبعضُها غامض خفيّ يحتاج الى تأمل قليل، وبعضها يحتاج الى تدقيق النظر وتأمُّل شديد. مثال ذلك قولهم: الكل أكثر من الجزء. إن هذا عند الحكماء ظاهر في أوائل العقول السليمة، وأما قولهم إن الأشياء المختلفة، إذا زيدت عليها أشياء متساوية،

كانت كلُّها في جميع أوائل العقول السليمة مختلفة، يُحتاج فيها الى تأمّل قليل. وأما قولهم: إذا كانت أربعة مقادير على نسبة واحدة، فإن في الأول من أضعاف الثاني مثل ما في الثالث من أضعاف الرابع. فهذا أيضاً من الأشياء التي تعلمها بأوائل العقول، ولكن يحتاج الى بحث أشد، ونظرٍ أدقّ، وعلى هذا المثال يكون تفاوت المعقولات والأشياء التي تعلم بالعقول الثاقبة.

ثم اعلم أن كثيراً من العقلاء يظنون ان الأشياء التي تُعلَم بأوائل العقول مركوزةٌ، فنسبتها لما تعلقت بالجسم، فهي تحتاج الى التذكار، ويسمون العلم تذكُّراً، ويحتجون بقول أفلاطون: العلم تذكُّر، وليس الأمر كما ظنُّوا وإنما أراد أفلاطون بقوله: العلم تذكر، أن النفس علاَّمة بالقوَّة، فتحتاج إلى التعليم حتى تصير علاَّمة بالفعل، فسمَّى العلم تذكراً، ثم إن أول طريق التعاليم هي الحواسّ، ثم العقل، ثم البرهان، فلو لم يكن للإنسان الحواسّ، لما أمكنه ان يعلم شيئاً، لا المُبرهَنات، ولا المعقولات، ولا المحسوسات البتَّة.

والدليل على صحة ما قلنا أن كل ما لا تُدركه الحواسّ بوجه من الوجوه، لا تتخيله الأوهام، وما لا تتخيله الأوهام، لا تتصوّره العقول.

وإذا لم يكن شيء معقول، فلا يمكن البرهان عليه، لأن البرهان لا يكون إلا من نتائج مقدَّمات ضرورية مأخوذةٍ من أوائل العقول، والأشياء التي هي في أوائل العقول إنما هي كليات أنواع وأجناسٍ مُلتَقطةٍ من أشخاص جُزئيّة بطريق الحواسّ. والدليلُ على ذلك الصبي، لولا أنه قدَّر ان عشر جوزات أكثر من خمس، أو خشبة طولها عشرة أذرع أطول من أُخرى لها ستة أذرع، فمن أين كان يمكنه ان يعلم أن الكل أكثر من الجزء؟

وعلى هذا القياس حكم سائر المعقولات فإنها مأخوذة أوائلها من الحواسّ. والدليل على ذلك أيضاً أنك تجد من كان أكثر محسوسات ولها أكثر تأمُّلاً، وللمتخيلات أجود اعتباراً، فإن الأشياء المعقولة عنده أكثر عدداً، ونفسه لها أكثرُ تحقُّقاً. فقد تبيَّن بما ذكرنا أن الأشياء المعقولة ليست بشيء سوى رسوم المحسوسات

الجُزئيات المُلتقَطة بطريق الحواسّ من الأشخاص، مجموعة في فكر النفس المسمّى أنواعاً وأجناساً، وان العقل للإنسان - إذا تبيَّن - ليس هو شيئاً سوى النفس الناطقة، إذا تصورَّت رسوم المحسوسات في ذاتها، ميَّزت بفكرها بين أجناسها وأنواعها وأشخاصها، وعرفت جواهرها وأعراضها، وجرَّبت أمور الدنيا واعتبرت تصاريف الأيام بين أهلها.

ثم اعلم أن كل من كان أكثر تأمُّلاً للمحسوسات، وأدق نظراً في أمور الموجودات، وأجود بحثاً عن الخفيَّات، وأكثر تجارب للأمور الدنيوية، وأحسن اعتباراً لأهلها، كان أرجح عقلاً من أبناء جنسه، وأكثر عِلماً من أهل طبقته.

ثم اعلم أن العقلاء متفاوتو الدرجات في عقولهم تفاوتاً بعيداً جدّاً، لا يَقدُر قدرَه إلا الله تعالى الذي خلقهم وفضّل بعضهم على بعض، كما اقتضت حكمته، وسبق علمه في خلقه.

ثم اعلم ان لتفاوت الناس في درجات عقولهم عِلّلا شتى، وأسباباً عِدَّة، فمن إحدى تلك العِلل كثرة فضائل العقول ومناقب العقلاء التي لا يُحصي عددها إلا الله تعالى، ولا يمكن ان تجتمع تلك الفضائل في شخص واحد مُوفَّرة كما بيَّنا من امتناع ارتباض النفس الواحدة بجميع أصناف العلوم، مع قِصر العمر واعتراض العوائق، ولأن كلية العلوم موضوعة بإزاء قُوى جميع الناس، كما أن كلية الصناعات موضوعة بإزاء قُوى جميع الصُّناع.

ولكن يجب للإنسان أن يختار الأولى والأشرف والأفضل، وذلك ان العقلاء هم أفاضل الناس، والإنسان أفضل من الحيوانات، والحيوان أشرف من النبات، والنبات[1] الأركان ومُخَ طبائعها، والإنسان صورة مختصرة من جميع صورَ الحيوان، وهو المجموع فيه أمزِجة قُوى النبات، وخواصُّ المعادن، وطبائع الأركان والمولَّدات الكائنات منها أجمع، وهذه كلها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، فتفرقت في

---

١ النبات: سقط كلام بينه وبين الاركان.

جميع الأشخاص هذه الصوَر، فمُكثِرٌ ومُقِلٌّ، حتى عَمِرت الدنيا بهم. فهذا أحد أسباب اختلاف طبائعهم، واختلاف طبائعهم أحدُ أسباب اختلاف تفاوُت عقولهم.

والعِلَّة الثانية في تفاوت الناس في درجاتهم في عقولهم هي خواصّ جواهر نفوسهم التابعة في إظهار أفعالهم لأمزِجة أبدانهم. والثالثة هي كثرة غرائب علومهم ومعارفهم التي لا يمكن أن يحويها كلها إنسان واحد. والرابعة عجائب أفعالهم وفنون أعمالهم، واختلافُ صنائعهم وتصاريفهم في طلب معاشهم، وأحكامُ تدبيرهم في سياستهم كثيرةٌ لا تُحصى، ولا يمكن أن ينهض بها كلها إنسان واحد. والخامسة اختلاف أخلاقهم المتضادَّة في الحسن والقبح، ومجاري عاداتهم بين الجَودة والرداءة، مما لا يمكن أن تجتمع كلُّها في إنسان واحد. والسادسة نشوؤهم على اختلاف سُنن دياناتهم وتبايُن مذاهب آبائهم وآراء أُستاذيهم ومعلميهم.

ثم اعلم أن هذه الخِصال والمناقب كلَّها لا يمكن أن تجتمع في شخص واحد، فمن أجل هذا فُرِّقت في جميع أشخاص الإنسان كلها مع كثرتها، ولا تخرج من صوَر الإنسان البتَّة التي إحدى الصوَر التي تحت فلك القمر وهي صورة الصوَر، فلأجل ذلك تراه في غاية الاعتدال في حال الفِطرة، ثم تُخرجه من ذلك عاداته الحسنة والرديئة، فتصير كالطبع له. والعادة توأم الطبيعة، وقيل: طبيعة مُنتزَعة، وقيل: صعبٌ تركُ عادة منتزعة، كما صعبٌ طلبُ ما ليس في الطبع.

ثم اعلم أن هذه الصورة هي خليفة الله في أرضه مُتحكِّمة فيها، مع كثرتها، على حيواناتها ونباتاتها ومعادنها، حُكم الأرباب على خَوَلها، إذ سجدوا لها بجملتها، وهي صورة واحدة، وإن كانت أشخاصها كثيرة، فإن حكم جميع الأشخاص في هذه الصورة كحكم جميع أعضاء بَدَن الإنسان الواحد لصورة نفسه، وهي المتحكِّمة في جميع البدن على عضو عضو، ومَفصِلٍ مفصلٍ، وحاسّة حاسّة، من يوم الولادة إلى يوم الفراق، كما بيَّنا في رسالة تركيب الجسد. فهكذا حكم هذه الصورة في جميع أشخاص البشر الأوَّلين والآخَرين من يوم خَلَق الله تعالى السموات والأرض. وآدمُ أبو البشر التُّرابي له الحكم في هذه الأرض والربوبيّة على جميع ما فيها إلى يوم القيامة

الكبرى. «فسجد الملائكة كلهم أجمعون» كما بيَّنا في رسالة البعث والقيامة. وإذ قد تبيَّن مما ذكرنا طرفٌ من عِلل تفاوت العقلاء في درجات عقولهم، نريد أن نذكر أيضاً كيف تبيَّن فيهم رجحان العقول والمَعقول، وكيف يُعرف ذلك فيهم.

ولكن من هؤلاء من يحتج ويقول معنى الرجوع إلى الله أي إلى ثوابه، ولو أنهم اعتبروا سُنن الديانات النبوية والموضوعات الناموسية الإلهية كيف فَرَض فيها واضعوها في كل سبعة أيام يوماً لتركِ الأعمال والاشتغال لأمور الدنيا، والفراغ للعبادة والاجتماعات في بيوت العبادات من المساجد والبيَع والكنائس والهيكل، بالصوم والصلاة والقرابين في الأعياد، والبروز إلى الصحراء والمنابر والخطب، والسكوت والاستماع للمواعظ، والتذكار لأمر المَعاد بأن هذه كلها إشارات ومرامي أحوال القيامة التي في سبعة آلاف سنة تَعرِض للنفوس الجزئية المتجسدة، لدى النفس الكلية، لفصل القضاء، ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون. فلو تركوا جدالهم واشتغلوا لما ينفعهم من أعمالهم الصالحة، والتخلّق بالأخلاق الجميلة، وطلبوا الآداب المحمودة، لكان خيراً لهم من الجدال والخصومات والغضب والتعصب والعداوات. ولكن لاستيلاء المِرِّيخ عليهم في مواليدهم يَحثُّهم على ذلك، وقوة المرارة تنمى إلى أمزجتهم، فيقيمهم على مثلها، فتطول صُحبتهم مع أستاذيهم ورسائلهم، معودون ذلك، ودوامهم فيما يتدربون به، فيصير عادة لهم لا يصبرون عنها!

فلا تطمع يا أخي في صلاحهم، وإنما أكثرنا ذكر هذه الطائفة المُجادلة لأن كثيراً من أسباب الخلاف في الآراء والمذاهب من قِبَلهم يقع، وهم السبب فيه لأنهم يتكلمون الكلام والجدال والحجاج في دقائق العلوم ويتركون تعلم أشياء واجب عليهم تعلمها وهي بينة ظاهرة جلية وهم يجهلونها جلة.

فصل في بيان آداب الجدال

فنقول: اعلم أن كل مسألة تنازع فيها اثنان أو جماعة فلا يخلو من أن يكونوا من أهل تلك الصناعة التي المسألة منها أو يكونوا من غير أهلها، فإن كانوا من غير أهلها

فكلامهم فيها على غير أصل مقرر منهم، وكل كلام ومنازعة في شيء على غير أصل مقرر منهم فلا تحصيل لكلامهم فيه ولا حجة لدعاويهم، وإن كان أحدهما من غير أهلها فإن منازعته لصاحبه تعدٍّ منه ظلـم، وكلام صاحبه معه أيضاً تخلف منه إذ كان يجادل مع من ليس من أهل صناعته، وإن كان من أهل تلك الصناعة فلا يخلو من أن يكونا متساويي الدرجة فيها أو متفاوتين، فإنْ كانا متفاوتين فحكمهما مثل ما تقدم ذكرهما من ذكر حكم الأولين، وإن كانا متساويي الدرجة في تلك الصّناعة فسبيلهما أن يؤاخذا فيما اختلفا فيه إلى قوانين تلك الصناعة وأصولها ويقيسا عليها تلك المسألة وإن كانت من فروعها.

وإن لم يكن في قوة نفوسهما استخراجها فسبيلهما أن يتحاكما إلى من هو أعلى درجة منهما في تلك الصناعة ليحكم بينهما.

وإن لم يجدا من يحكم بينهما فيرضيان بحكمه ولا في قوة نفوسهم استخراجها من الأصول فليس لهما إلاّ الترك لتلك المسألة والسكوت عنها، فإن لم يفعلا ما وصفنا في الجدال والخصومة فسيكون ذلك سبب العداوة والبغضاء بينهما كلما ازداد إلحاحاً ازداد خلافاً على خلاف وعداوة على عداوة وبغضاً إلى يوم القيامة وتكون تلك حالهما، وهذا أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

فأما بيان فنون القياسات فاعلم حسب ما نبين هاهنا. وذلك أن الأمور التي يعلمها الإنسان ثلاثة أنواع: ماض ومستقبل وحاضر، فعلمه بما هو حاضر في الوقت موجود في طريقة إحدى الحواس، والحواس قد تخطىء وتصيب في إدراكاتها محسوساتها لعلل شتى قد بيّنا طرفاً فيما قد تقدم ذكره.

وعلمه بما كان من الأمور ومضى مع الزمان وانقضى مع الأيام أو غاب عنه بالمكان فهو بطريق السمع والاخبار، والمخبر قد يكون صدوقاً وقد يكون كذوباً، وهكذا أيضاً ربَّ مستمع مكذب بالصدق، ورب مستمع مصدق بالكذب. فأما علمه بما سيكون أو غائب عنه بالمكان فقد يكون بعضاً بالقياس، والقياس قد يكون صحيحاً وقد يكون سقيماً.

وهكذا المستعمل للقياس قد يكون جاهلاً باستعماله كما بيَّنا في قياس الصبيان والجهَّال والعوام وكثير من الخواص. وهذا أيضاً أحد أسباب اختلاف العلماء في الآراء والمذاهب.

ثم اعلم أنك إذا اعتبرت ودققت النظر تبين أن أكثر علم الإنسان إنما هو بطريق القياس، والقياسات مختلفة الأنواع كثيرة الفنون كل ذلك بحسب أصول الصنائع والعلوم وقوانينها.

مثال ذلك أن قياسات الفقهاء لا تشبه قياسات الأطباء، ولا قياس المنجمين يشبه قياس النحويين ولا المتكلمين، ولا قياسات المتفلسفين تشبه قياسات الجدليين، وهكذا قياسات المنطقيين في الرياضات لا تشبه قياسات الجدليين ولا تشبه قياساتهم في الطبيعيات ولا في القياسات والإلهيات.

وهكذا الحكم في سائر الصنائع والعلوم. وسنذكر طرفاً من ذلك في موضعه ولكن نقول أول ما القياس؟ وذلك أن القياس هو الحكم على الأمور الكليات الغائبات بصفات قد أُدركت جيعها في بعض جزئياتها.

مثال ذلك: لما أدرك الإنسان أن النيران الجزئية حارة حكم بأن كل نار حارة أيضاً الغائبة قياساً على ما أدرك حساً وهكذا حكم على رطوبة الماء من جزئياتها على كلياتها بالحس جزئية والعقل كلياً.

واعلم أن هذا الحكم وهذا القياس لا يَطَّرد في كل شيء ولا في كل مكان، وذلك أنْ يكون في كثير من البلدان أُناس عقلاء لا يجدون من الماء إلاَّ عذباً، فإذا حكموا بما أدركوا على أن كل ماء في الأرض عذب، فقد أخطأوا وهم لا يشعرون، وعلى هذا المثال يكون الخطأ والصواب في القياس الذي يطَّرد في كل شيء.

وإذا تأملت يا أخي وجدت أكثر اختلاف العلماء وخطئهم إنما في استعمال القياس. من هذا الفن، يكون ويخفى وهم لا يشعرون، وإن علموا أيضاً لا يُحسنون كيف يميزون من الأشياء التي يَطَّرِد فيها. والقدماء الحكماء قد تعبوا في استخراج هذا

حتى عرفوه ووضعوه في كتبهم بخَطْبٍ طويل لا يَصبِر على طلب معرفته كل أحد من الناس إلاّ المُحبُّون للحكمة، الطالبون للحقائق. وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في رسائلنا المنطقية، ولكن نذكر منها طرفاً في هذا الفصل مثالاً واحداً.

اعلم يا أخي أن القياس الذي يَطّرِد الحكم فيه بالجزء على الكل إنما هو في الصفات الذاتية للشيء لا في الصفات العرَضية. والصفاتُ الذاتية هي التي إذا بطلت بطل الموصوف، وإذا ثبتت ثبت الموصوف: وهي الصورة المقوّمة؛ والصفة العرَضية هي التي إذا بطلت لم يبطل الموصوف. والمثال في ذلك رطوبة الماء وعذوبته، فإن الرطوبة إذا بطلت لا يكون الماء موجوداً، فأما العذوبة فليس من الضروري، إذا بطلت بطل الماء، فالرطوبةُ هي الصورة المقوّمة للماء، والعذوبة هي الصورة المُتمّمة له. فعلى هذا المثال ينبغي أن يُعتَبر الحكمُ في القياس لا يصيب ولا يخطىء.

واعلم أن الحكماء الأولين لما أثبتوا الذي ذكرنا وعلموا أن أكثر علمهم إنما هو بطريق القياس، وقد يدخل الخطأ والزلل في القياس - كما بيّنّا - طلبوا لذلك حيلة يأمنون بها الخطأ والزلل في القياس، وسمّوها البرهان. وميزان العقل من أجل طلب الحقائق، وإصابة الصواب، وتجنُّب الزور والغرور بما لا حقيقة له. لكن منهم مصيب ومنهم مخطىء ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

ثم اعلم أن كثيراً من أهل الجدل يظنون ويحكمون بحكمهم وظنونهم أن الله سبحانه وتعالى كلّف عِبادَهُ طلب الحقائق وإصابتها جميعاً، وجعل لهم وعيداً إن أخطؤوا أو لم يصيبوا، وليس الأمر كما ظنوا لأنه قال: ﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها﴾ والوسعُ دون الجُهد والطاقة، وإصابة الحق ليس في وسع الطاقة فكيف، ولا في وسعها، وإنما كلف الله العباد طلب الحقائق والجهد في الطلب. فأما إصابتها فالله يهدي من يشاء إليها - كما وعد جلَّ جلاله - ﴿والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا﴾ وإنما شَرَط بقوله فينا، لأن من الناس من لا يكون جهده في الطلب لوجه الله، ولكن لأسباب أُخَر يطول شرحها. فمن أجل ذلك لا يستحق الهداية ولا يستأهل الإصابة.

ثم اعلم أن هذه المسألة هي إحدى مسائل أمهات الخلاف: وذلك أن كثيراً من

الناس من يقول أو يظن أنه مستغنٍ عن العلوم في طلب الحقائق بما رزقه الله تعالى من الفهم والتمييز والذكاء والاستطاعة، فيتكل على حَولِه وقوته وينسى ربه والاستعانة به والسؤال له والتوفيق، فيُخذل ويُحرَم التوفيق كما قال الله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾.

الفصل الرابع ✿ نصوص مختارة من المجلد الرابع

الرسالة الثانية

من العلوم الناموسية والشرعية

* * *

في ماهية الطريق إلى الله عز وجل

(وهي الرسالة الثالثة والأربعون من رسائل إخوان الصفاء)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهُ خيرٌ أمَّا يشركون؟

اعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله وإيانا بروح منه، أن الله، تبارك وتعالى، خلق الخلق وسوَّاه، ودبر الأمور وأجراها، ثم استوى على العرش وعلاه، فكان، من فضل رحمته وكمال جوده وتمام إحسانه، أن اختار طائفة من عِباده واصطفاهم وقرّبهم وناجاهم، وكشف لهم عن مكنون علمه وأسرار غيبه، ثم بعثهم إلى عِباده ليدعوهم إليه وإلى جِواره، ويخبروهم عن مكنون أسراره، لكيما ينتهوا عن نوم الجهالة، ويستيقظوا من رقدة الغفلة، ويحيوا حياة العلماء، ويعيشوا عيش السعداء، ويَبلغُوا إلى

كمال الوجود في دار الخلود، كما ذكر في كتبه ووصف على ألسنة أنبيائه، صلوات الله عليهم، فقال: ﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش﴾ ثم قال: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ثم قال: ﴿بعث الله النبيين مبشّرين ومُنذرين وأنزل معهم الكتاب﴾ ثم قال: ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله وإيانا بروح منه، أنه لا يمكن الوصول الى هناك إلاّ بخلّتين: إحداهما صفاء النفس، والأخرى استقامة الطريقة. فأما صفاء النفس فلأنها لُبُّ جوهر الإنسان، فإن اسم الإنسان إنما هو واقع على النفس والبدن. فأما البدن فهو هذا الجسد المرئي المؤلف من اللحم والدم. والعظام والعروق والعصَب والجلد وما شاكله، وهذه كلها أجسام أرضيّة مُظلمة ثقيلة متغيّرة فاسدة. وأما النفس فإنها جوهرة سماوية روحانيّة حيّة نورانية خفيفة متحركة غيرُ فاسدة علاّمة درّاكة لصور الأشياء، وإن مثلّها في إدراكها صُوَر الموجودات من المحسوسات والمعقولات كمثَل المرآة، فإن المرآة إذا كانت مستوية الشّكل مَجلوّة الوجه، تتراءى فيها صُوَر الأشياء الجسمانية على حقيقتها، وإذا كانت المرآة مُعوجّة الشكل، أرت صُوَر الأشياء الجسمانية على غير حقيقتها، وأيضاً إن كانت المرآة صَدِئة الوجه، فإنه لا يترآى فيها شيء البتَّة.

فهكذا أيضا حال النفس، فإنها إذا كانت عالمة ولم تتراكم عليها الجهالات، طاهرة الجوهر لم تتدنَّس بالأعمال السيّئة، صافية الذات لم تتصدأ بالأخلاق الرديئة، وكانت صحيحة الهمّة لم تعوَجّ بالآراء الفاسدة، فإنها تتراءى في ذاتها صُوَر الأشياء الروحانية التي في عالمها، فتدركها النفس بحقائقها، وتشاهد الأمور الغائبة عن حوآسها بعقلها وصفاء جوهرها، كما تشاهد الأشياء الجسمانية بحواسّها، إذا كانت حواسّها صحيحة سليمة. وأما إذا كانت النفس جاهلة غير صافية الجوهر، وقد تدنّست بالأعمال السيئة أو صَدِئت بالأخلاق الرديئة أو اعوجّت بالآراء الفاسدة واستمرت على تلك الحال، بقيت محجوبة عن إدراك حقائق الأشياء الروحانية وعاجزة عن الوصول إلى الله تعالى، ويفوتها نعيم الآخرة كما قال الله تعالى: ﴿كلاّ إنهم عن ربهم يومئذ

لمحجوبون﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله وإيانا بروح منه، أن حِجابها عن ربها إنما هو جَهالتها بجوهرها وعالمها ومبدئها ومَعادِها، وأن جهالتها إنما هي من الصَّدَإ الذي تركَّب على ذاتها من سُوء أعمالها وقبح أفعالها، كما قال تبارك وتعالى: ﴿كلاَّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾. وأما اعوجاجها فهو من أجل آرائها الفاسدة وأخلاقها الرديئة كما قال الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله بروح منه، أن النفس ما دامت على هذه الصفات فإنها لا تُبصر ذاتها، ولا يتراءى في ذاتها تلك الأشياء الحسنة الشريفة اللذيذة الشهية التي في عالَمها، كما وصف الله فقال: ﴿فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ وقال: ﴿لا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله بروح منه، أن النفوسَ ما لم تشاهد تلك الأشياء لا ترغب فيها ولا تطلبها ولا تشتاق إليها وتبقى كأنها عمياء، كما قال الله تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله بروح منه، أن النفس إذا عَميت عن أمر عالَمها، وتوهمت انه لا وجود لها إلاَّ على هذه الحال التي هي عليها الآن في دار الدنيا، فتَحرِص عند ذلك على البقاء في الدنيا، وتتمنى الخلود فيها، وترضى بها وتطمئن إليها، وتيأس من الآخرة وتنسى امر المعاد، كما ذكر الله تعالى: ﴿ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾. وقال: ﴿يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور﴾.

ثم إنها إذا ذُكرت بوصية الله التي جاءت على ألسنة أنبيائه، عليهم السلام، لا تذكر شيئاً كما قال الله تعالى: ﴿وإذا ذُكِروا لا يذكرون﴾. ثم إنها تبقى في عمايتها وجهالتها وطُغيانها الى الممات، مُصِرَّة مستكبرة كأن لم تسمعها. فإذا جاءت سكرةُ الموت التي هي مفارقة النفس الجسدَ وتركُ استعمال الجسم، وفارقته على كُره منها

وبقيت عند ذلك فارغة من استعمال البدن وإدراك المحسوسات، تراجعت الى ذاتها لتنهض فلا يمكنها النهوض من ثِقل أوزارها ومن أعمالها السيئة وعادتها الرديئة، كما قال الله تعالى: ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾. فعند ذلك يتبيَّن لها أنها قد فاتتها اللذات المحسوسات التي كانت لها بتوسُّط البدن، ولم تَحصلُ لها اللذات المعقولات التي في عالَمها، فعند ذلك تبين لها انها قد خسِرت الدنيا والآخرة، وذلك هو الخُسران المُبين، وقد انقضى.

الفصل الأول

في الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق

وأما الخَلّة الأخرى التي هي استقامة الطريق، فإن كل قاصد نحو مطلوب من أمور الدنيا فإنه يَتحرَّى، في مَقصده نحو مطلوبه، أقربَ الطرقات واسهلها مَسلكاً، لأنه قد علم أنه إن لم يكن له طريق قريب، فإنه يُبطيء في وصوله الى مطلوبه، وأيضاً فإنه إن لم يكن الطريق سهلَ المسلك فربما يعوق البلوغَ إليه أو يُتعِب في سلوكه. وإن أقرب الطرقات ما كان على خط مستقيم، وأسهلها مَسلكاً هو الذي لا عوائق فيه، فهكذا ينبغي أيضاً للقاصدين الى الله تعالى بعد تصفية نفوسهم، والراغبين في نعيم الآخرة في دار السلام، والذين يريدون الصعود الى ملكوت السماء والدخول في جملة الملائكة، أن يتحرَّوا في مقاصدهم أقرب الطرقات إليه، كما قال الله تعالى: ﴿أولئك تحرَّوا رشداً﴾. وقال سبحانه: ﴿ إن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به﴾. وقال تعالى: ﴿قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾. ونحن نريد أن نبيِّن ما الطريقُ المستقيم الذي وصَّانا به وأمرنا باتباعه على ألسنة انبيائه، صلوات الله عليهم، ونصف أيضاً كيف ينبغي ان نَسلُكه حتى نصل الى ما وعدنا ربُّنا، كما قال الله تعالى: ﴿ إنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم﴾. ولكن لا يمكننا بيان ذلك بالحقيقة إلاَّ بكلام موزون، وقياس صحيح، ودلائل واضحة، على مثل بيان الله تعالى وسنَّة أنبيائه، صلوات الله عليهم، بالوصف البليغ لسائر آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا،

حتى يتبيَّن لهم أنه الحق، كما قال الله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾. وإذا فعلنا ذلك تفتحت أبواب العلوم المخزونة والأسرار المكتونة التي لا يمسها إلا المطهّرون.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله تعالى وإيانا بروح منه، أنه لا ينبغي ان يتكلم احد في ذات الباري تعالى، ولا في صفاته بالحَذر والتخمين، بل ينبغي له ألاّ يُجادِل فيه إلا بعد تصفية النفس، فإن ذلك يُؤدّي إلى الشكوك والحيرة والضلال، كما قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ونحن نبتدىء، أولاً قبل كل شيء، فنبيّن كيف ينبغي ان نصفّي النفس من الأخلاق الرديئة التي اعتَدناها من الصبا، ونجعل لوصفنا ذلك في رسائلنا الرياضية أبواباً شتى، ونذكر في كل باب ضروباً من الأمثال، لكيما يكون أوضحَ للبيان وأقربَ للفهم وأبلغَ في الموعظة، ثم بعد ذلك نَصِف في هذه الرسائل أبواباً أُخرَ يتبيَّن فيها ما الطريق المستقيم الى الله عزَّ وجلَّ، وكيف ينبغي أن تتبع بكلام موزون ودلائل واضحة، ليكون مِنهاجاً للقاصدين، وإرشاداً للمريدين، ثم نبتدىء بعد هاتين الجهتين بالكشف عن الأمور الإلٰهية الحيّة والأسرار المخزونة مما قد عرفناه بإلهام الله تعالى، أو مما قد استنبطنا من تفاسير كتب أوليائه وتنزيلات أنبيائه، عليهم السلام، ومما قد جرى على ألسنة الحكماء في اشاراتهم ورموزاتهم، ومن سبب بدء مكون العالم بعد أن لم يكن، ووقوع النفس وغرورها وخلق آدم الأول وسبب عصيانه، وحديثِ الملائكة وسجودهم لآدم، وقصة إبليس والجانّ واستكباره عن السجود، وشجرة الخُلْد والملك الذي لا يبلى، وسبب أخذ الميثاق إلى ذُرّيَة آدم وأخبار القيامة والنَّفخِ في الصور والبعث والنشور والحساب، وفصل القضاء، والجوازِ على الصِّراط، والنجاة من النار والدخول إلى الجنة، وزيارة الرب تبارك وتعالى: وما شاكل هذا من الأخبار المذكورة في كتب الأنبياء، صلوات الله عليهم، وما حقائقُ معانيها، لأن في الناس أقواماً عقلاء مميِّزين متفلسفين إذا فكروا في هذه الأشياء وقاسوها بعقولهم لا تتصوَّر لهم معانيها الحقيقية، وإذا حملوها على ما يَدُلّ عليه ظاهر ألفاظ التنزيل، لا تقبله عقولهم، فيقعون عند ذلك في الشكوك والحيرة، وإذا طالت تلك الحيرة بهم أنكروها

بقلوبهم، وإن كانوا لا يُظهرون ذلك باللسان مخافةَ السيف.

وفي الناس أقوام، دونهم في العلم والتمييز، يؤمنون ويعلمون أنها الحق، وأقوام آخرَون يأخذونها تقليداً ولا يتفكرون فيها، وفي الناس طائفة إذا سمعوا مثل هذه المسائل نفَرت نفوسهم منها واشمأزّوا عن ذِكرها، وينسبون المتكلّم أو السائل عنها إلى الكفر والزندقة والتكلّف لما لا ينبغي.

فأولئك أقوام قد استغرقت نفوسهم في نوم الجهالة، فينبغي للـمُذكِّر لهم ان يكون طبيباً رفيقاً يُحسن ان يداويهم بأرفق ما يَقدِر عليه من التذكار لهم بآيات الكتب الإلهية وما في أيديهم من أخبار أنبيائه، وما في أحكام شرائعهم من الحدود الرسوم والأمثِلة، فإن ذلك كلّه إشاراتٌ للنفس بتذكيرها ما قد غفَلت عنه من أمر معادِها ومبدئها مثل مقادير الفروض على أعداد مخصوصة، ومثل أحكام النبيين على شرائط معلومة، ومثل تأديتها في أوقات معروفة، ومثل التوجُّه الى جهات مختلفة، ومثل التعبُّد على فنون متباينة إن كان هؤلاء من أهل التوراة، أو من أهل الإنجيل، أو من أهل القرآن، فإن تعلُّقهم بظاهر أحكام شرائعهم، وحِرصَهم وعنايتهم بقراءة كتب أنبيائهم، وإقرارهم بصواب ما فيها من الأحكام للدين والدنيا، حُجّةٌ للـمُذكِّرين لهم بعد ما جهلوه من أمر عالمهم، وما قد نسوه من أمر معادِهم ومبدئهم، وشاهدٌ عليهم بما قد جحدوه من معاني هذه المسائل التي ذكرناها. وإن كان هؤلاء القوم الـمُنكِرون لمعاني هذه المسائل من عَبَدة الأوثان والأصنام والنيران والشمس والكواكب وما شاكلها، فإن في كتب نواميسهم وصوَر هياكلهم وأحكام سُننهم أمثِلةً أيضاً لذلك وإشارات إليها مثل ما في الشرائع والأديان النبوية. لكن يحتاج أن يكون الـمُذكِّرون لهم عارفين بها.

وإن في الناس طائفةً إذا سمعوا مثل هذه المسائل تطلّعت هِمَمُ نفوسهم إلى أجوبتها ورغبت في معرفة معانيها، فإذا سمعوا الجواب عنها قَبِلتها بلا حُجّة ولا برهان، ولكن على التقليد. أولئك قوم نفوسهم سليمة بَعدُ لم تتعوَّج بالآراء الفاسدة ولم تستغرق بعدُ في نوم الجهالة، فيحتاج الـمُذكِّر إلى أن يسلُك بهم طريقة التعليم إلى

التدريج، كما وصفنا في الرسالتين الأوليين اللتين وضعناهما للمتعلمين والـمُريدين. فإذا تهذبت نفوسهم وصَفَت أذهانهم وقويت أفكارهم، أطلقت لهم أجوبة من هذه المسائل ببراهينها، كما بيَّنا في الرسائل الخمس التي صورناها على صورة الإنسان، وأوضحنا دلائلها بالمِثالات التي في صورة الإنسان.

وفي الناس طائفة من أهل العلم قد نظروا في بعض العلوم وأقرّوا بعض كتب الحكماء، أو سمعوا من المتكلمين في مناظرتهم، ومن المتفلسفين والشرعيين جميعاً، قد تكلموا في مثل هذه المسائل وأجابوا عنها بجوابات مختلفة، ولم يتفقوا على شيء واحد ولا صحَّ لهم فيها رأي واحد، بل وقعت بينهم في ذلك منازعات ومناقضات! كل ذلك لأنهم لم يكن لهم أصل واحد صحيح ولا قياس واحد مُستوٍ يمكن أن يجاب به عن هذه المسائل كلها من ذلك أو على ذلك القياس، ولكن كانت أصولهم مختلفةً وقياساتهم متفاوتةٍ غير مستوية.

واعلموا أيها الإخوان، أيدكم الله وإيانا بروح منه، أن الجواب على أصول مختلفة، والحُكمَ بقياسات متفاوتة، تكون متناقضة غير صحيحة، ونحن قد أجبنا عن هذه المسائل كلها وأكثرَ منها مما يشاكلها من المسائل على أصل واحد وقياس واحد، وهو صورة الإنسان، لأن صورة الإنسان أكبر حجة لله على خلقه، ولأنها أقربها إليهم، ودلائلها أوضحُ وبراهينُها أصحُ، وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي الميزان الذي وضعه بين خلقه، وهي المكيال الذي يكيل لهم به يوم الذين ما يستحقونه من الثواب والجزاء، وهي المجموع فيها صُوَرُ العالَمين جميعاً، وهي الـمُختَصر من العلوم التي في اللوح المحفوظ، وهي الشاهد على كل جاحد، وهي الطريق إلى كل خير، وهي الصراط الممدود بين الجنة والنار.

وينبغي لمن يدّعي الرياسة في العلوم الحقيقية، ويقول إنه يحسن ان يجيب عن هذه المسائل التي تقدّم ذكرها، أن يطلب منه الجواب على أصل واحد وقياس واحد، فإنه لا يمكنه إلاَّ أن يجعل أصله صورة كلإنسان من بين صُوَر جميع الموجودات من الأفلاك والكواكب والأركان والحيوان والنبات وغير ذلك. وإن جعَل أصله أشياء

غير صورة الإنسان، فلا يمكنه أن يقيس بها سائر الموجودات، ويجيب عن هذه المسائل إلاّ بمثل ما قِسنا عليه نحن وأجبنا عنه. وإذا فعل ذلك اتفق الجميع على رأي واحد ودين واحد ومذهب واحد، وارتفع الخلاف واتضح الحق للجميع، ويكون ذلك سبباً لنجاة الكل.

ونحن لا نرخص لأحد بالنظر في مثل هذه الأشياء ولا السؤال عنها إلاّ بعد تهذيب نفسه بمثل ما قلناه ووصفناه في هذين الكتابين، اقتداء بسُنّة الله، تبارك وتعالى، كما أخبر وقال: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، قام لياليها، وصام نهارها، حتى صفت نفسه، فناجاه الله تعالى عند ذلك وكلمه.

ويروي عن النبي، ﷺ، أنه قال: «من أخلص العبادة لله أربعين يوماً، فتح الله قلبه وشرح صدره، وأطلق لسانه بالحِكمة، ولو كان أعجمياً غُلفاً[1]».

فمن أجل هذا وجب على الحكماء، إذا أرادوا فتح باب الحكمة للمعلمين، وكشف الأسرار للمريدين، أن يروضوهم أولاً، ويهذبوا نفوسهم بالتأديب، كيما تصفو نفوسهم، وتَطهر أخلاقهم، لأن الحكمة كالعروس تريد لها مجلساً خالياً فإنها من كنوز الآخرة، وإن الحكيم إذا لم يفعل ما هو واجب في الحكمة من رياضة المتعلمين قبل أن يكشف لهم أسرار الحكمة، فيكون مثَلُه في ذلك كمثَل حاجب مالك أذِن لقوم بُلهٍ بالدخول على الملك من غير تأديب ولا ترتيب، فإنه يستحق العقوبة عليه إن فعل ذلك، فإذا هو فعل ما قد يجب من تأديبهم ثم لم يفعلوا هم ولا قبلوا منه، فقد برىء الحكيم من اللوم، ولزمهم الذنبُ، لأنك إذا قدَّمت الطعام والشراب إلى الجائع فقد أشبعته، فإذا هو لم يأكل حتى مات جوعاً فهو المأخوذ بدمه

(١) الغلف: جمع أغلف، ويقال قلب اغلف اي عليه غشاء. وفي نهاية الأثر في صفته، عليه الصلاة والسلام: يفتح قلوباً غلفاً، أي مغشاة مغطاة. فلعل الحديث: أعجمياً غلفاً، أي أغلف القلب.

« ومن قتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ».

وفقك الله، أيها الأخ البارّ الرحيم، وإيانا للرشاد، وسدّدك وإيانا وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد، إنه رؤوف بالعباد.

تمت رسالة ماهيّة الطريق إلى الله، عز وجل، وكيفية
الوصول إليه، ويليها رسالة في بيان اعتقاد
إخوان الصفاء

فصل

واعلم أن كل مُقرّ بهذا القرآن وبكتب الأنبياء، عليهم السلام، واخبارها عن الغيب، فهم في ذلك على منازل أربع: إما مُقِرٌ بلسانه غيرُ مُصدّق بقلبه، أو مُقِرّ بلسانه ومصدّقٌ بقلبه، غير عارف لمعانيه وبيانه، أو مُقِرّ ومصدّق ومُتبيّنٌ، ولكن غيرُ قائم بواجب حقه. فالمقر بلسانه غيرُ المصدّق بقلبه هو الذي رُزِق من الفهم والتمييز قليلاً، فإذا فكر بعقله وميّز ببصيرته ما يدلّ عليه ظاهرُ ألفاظ الكتب النبوية، لا يقبله عقله لإنه لا يتصوّر معانيها اللطيفة وإشاراتها الخفية، فيُنكره بقلبه ويشُكّ فيه، وأما من أقرّ بلسانه وصدّق بقلبه، وهو الذي يتفكر ويعلم أن مثل هذا الأمر الجليل الذي قد اتفقت على تحقيقه الأنبياء والأئمة والمهديّون والخلفاء الراشدون وصالحو المؤمنين، وأقرّ به فضلاء الناس والمُميّزون المُستبصرون، لا يجوز أن يكون ليس له حقيقةٌ، ولكن فهمه وتمييزه وعقله يُقصّر عن إدراكه وتصوره لها بحقائقها. وأمّا من قد عرف بيانه ولكن قصّر في القيام بواجبه، فهو الذي وفّقه الله وأرشده واهتدى بحقائق هذه الأسرار المذكورة في كتب الأنبياء، عليهم السلام، ولكن لا يجد المُعِينَ له على القيام بنُصرتها وواجبِ حقّها، لأنه وحيد وليس كل أمر يتِمّ بالوَحدة، بل ربما يحتاج فيه الى الجمع العظيم، وخاصّةً أمرُ

الناموس، فأقل ما يحتاج فيه الى أربعين خَصلة تجتمع في واحد من الأشخاص، أو في أربعين شخصاً مؤتلفة القلوب.

تمت رسالة كيفية عشرة إخوان الصفاء ويليها رسالة في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين

* * *

الرسالة الخامسة

من العلوم الناموسية والشرعية

* * *

في ماهية الايمان وخصال المؤمنين المحققين

(وهي الرسالة السادسة والأربعون من رسائل إخوان الصفاء)

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، اللهُ خيرٌ أمَّا يشركون؟

اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أن الله، جلَّ ثناؤه، قد أكثر ذكر المؤمنين في القرآن، والمدحَ والثناء الجميل عليهم، ووعدهم الثوابَ الجزيل في الدنيا والآخرة جميعاً، وهكذا أيضاً قد أكثر ذِكرَ الكافرين وسوء الثناء عليهم، والزجر والتهديدَ والوعيدَ في الدنيا والآخرة جميعاً، فنريد ان نبيِّن من المؤمنُ حقّاً ومَن الكافرُ حقّاً، إذ كان هذا أمرٌ قد التبس على كثير من أهل العلم، حتى صار يُكفّر بعضُهم بعضاً، ويلعن بعضُهم بعضاً بغير علم ولا بيان. ولكن من أجل أن كثيراً من أهل العلم لا يعرفون الفرق بين العلم والإيمان، احتجنا أن نبيِّن أولاً ما الفرق بينهما. وذلك ان كثيراً من المتكلمين يسمُّون الإيمان علماً، ويقولون هو عِلمٌ من طريق السمع، وما يُعلم بالقياس هو علم من طريق العقل. فنريد أن نبيِّن أيما هو علم بالحقيقة فنقول:

إن الحكماء قالوا إن العلم هو تَصوُّر النفس رسومَ المعلومات في ذاتها، فإذا كان العلم هو هذا، فليس كلُّ ما يَرد الخبر به من طريق السَّمع تتصوَّره النفس بحقيقته، فإذاً لا يكون ذلك عِلماً بل إيماناً وإقراراً وتصديقاً، ومن أجل هذا دعت الأنبياء أُمَمها إلى الإقرار أولاً ثم طالبوهم بالتصديق بعد البيان، ثم حثُّوهم على طلب

المعارف الحقيقية. والدليل على صحة ما قلنا قولُ الله عز وجل: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾، ولم يقل يعلمون بالغيب. ثم حثَّهم على طلب العلم بقوله: ﴿فاعتبروا يا أولي الألباب﴾ ويا أولي الأبصار. ثم مدح فقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾ وقال: ﴿الذين أُوتوا العلم والإيمان﴾ فكفى بهذا فرقاً بين العلم والايمان. فنريد أن نبيِّن شرائط الإيمان وصفاتِ المؤمن، ليعلم كل إنسان هل هو مؤمن حقاً أو شاكٌّ مرتاب، لأن المؤمنين هم ورثة الأنبياء وتلامذتهم، وأن الأنبياء لم يُورِّثوا دراهم ودنانير بل إنما ورَّثوا علماً وعبادة، فمن أخذ بها فقد وَفَر حظاً جزيلاً كما ذكر الله جل ثناؤه: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ وقال الله تعالى: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

فصل

واعلم يا أخي، أيدك الله، أن نعم الله كثيرة على الخلق لا يُحصى عددها، ولكن نذكر طرَفاً مما يخُصّ الإنسان وهو نوعان: أحدهما من خارج الجسد كالمال والقرين والولد ومتاع الدنيا أجمع، والآخرُ داخلٌ فهو نوعان: أحدهما في الجسد كالصحة وحسن الصورة وكمال البِنية والقوة والجَلَد وما شاكلها، والآخرُ في النفس وهو نوعان: أحدُهما حُسن الخُلُق والآخرُ ذكاء النفس وصفاء جوهرها وهي الأصل في جميع المعارف. واعلم يا أخي أن الناس كلَّهم في المعارف على أربع منازل: فمنهم من قد رُزِق العلمَ ولم يُرزَق الإيمان، ومنهم من رُزِق الإيمان ولم يُرزَق العلم، ومنهم من قد وَفُر حظه منهما جميعاً، ومنهم من قد حُرِمهما جميعاً، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لَبِثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فخبَّر بهذا عن أشرفِهم في المعارف، إذ كان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم.

وأما الذين اوتوا الايمان ولم يُرزَقوا العلم فهم طائفة من الناس المُقرِّين بما في كتب الأنبياء، عليهم السلام، من أخبار البعض وأمر المبدإ والمَعاد، وأحوال الملائكة

ومقاماتهم، وحديث البعث والقيامة والحشر والنشر، والحساب والميزان، والصراط، وجزاء الأعمال في النشأة الآخرة ونعيم الجنان وما شاكلها من الأمور الغائبة عن الحواسّ، البعيدة عن تصوُّر الأوهام، وهم، مع قلة علمهم، ساكنةٌ نفوسهم بما أخبرت به الأنبياء، وما أشارت إليه الحكماء من الثَّواب في المَعاد ونعيم الجنان، ومُصدِّقون لهم في السرّ والإعلان، راغبون فيها، طالبون لها، عاملون من أجلها، ولكنهم تاركون البحث والكشف لها والنظر في حقائقها: كيف؟ وأين؟ ومتى؟ ولِمَ؟ وإليهم أشار بقوله: ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾ لهم الأمن واليُمن والأمان والإيمان.

وأما الذين رُزِقوا حظّاً من العلم ولم يُرزَقوا الإيمان فهم طائفة من الناس نظروا في كتب الفلاسفة والحكماء، وبحثوا عنها، وارتاضوا بما فيها من الآداب مثل الهندسة والتنجيم والطب والمنطِق والجَدل والطبيعيّات وما شاكلها، فأُعجبوا بها وتركوا النظر في كتب النواميس والتنزيلات النبويّة والبحث عن أسرار الموضوعات الشرعية، والكشف عن خفّيات الرُّموزات الناموسية، فعُمِّيت عليهم الأنباء فهم شاكُّون في حقائقها، متحيّرون في معرفة معانيها، جاهلون بلطيف أسرارها، غافلون عن عظيم شأنها، وإليهم أشار بقوله: ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾.

وأما الذين حُرموا العلم والإيمان جميعاً فهم طائفة من الذين أُترِفوا في هذه الحياة الدنيا فهم مشغولون الليلَ والنهار في طلب شهواتها، مغرورون بعاجل حلاوات لذّات نعيمها، تاركون لطلب الآداب، مُعرضون عن العلم وأهله، غافلون عن أمر الديانات وأحكام الشرائع ومفروضات السُّنن التي الغرضُ منها نجاةُ النفس وطلبُ الآخِرة، وإليهم أشار بقوله: ﴿وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ وقال: ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ وقال: ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾.

فأما الذين أُوتوا من العلم والإيمان حظّاً جزيلاً فهم إخواننا الفضلاء الكرام الأخيار الذين أشار إليهم بقوله: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم

درجات﴾. وقد أخبرنا عن مذهبهم، وعرَّفناكم أخلاقهم، وبيَّنا آراءهم، وأوضحنا أسرارهم في إحدى وخمسين رسالة عمِلناها في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحِكم. فانظروا فيها أيها الإخوان الأبرار الرحماء، فلعلكم تُوفَّقون لفهم معانيها بتأييد الله لكم وبروح منه، فتحيون حياة العلماء، وتعيشون عيش السعداء، وتهتدون إلى طريق ملكوت السماء، وتنظرون إلى الملإ الأعلى، وتُساقون إلى الجنة زُمَراً.

واعلم يا أخي أن المؤمنين درجاتهم متفاوتة الإيمان، كما أن العلماء متفاوتون في درجات العلوم، وذلك أن الإنسان لا يبلُغ درجة في العلم إلاَّ ويلوح له فوقها درجاتٌ لم يبلغها بعد، كما ذكر الله بقوله: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾. فهو من أجل هذا يحتاج إلى الإقرار به والتصديق بقول من هو أعرفُ وأعلم منه.

وإذ قد بان من فضيلة العالم والمؤمن، وما العلمُ وما الإيمان بما تقدم، فنريد أن نذكر ماهيّة كل واحد منهما ونبيّن كمّيتهما وكيفيتهما فنقول: إن العلم هو صورةُ المعلوم في نفس العالم، والإيمانَ هو التصديق لمن هو أعلم منك لما يخبرك عما لا تعلمه. واعلم أنه رُبَّ صورةٍ في نفس العالم ليس لها وجودٌ في الهيُولى، فنحتاج أن ننظر في هذا الباب نظراً شافياً، فإن أكثر ما تَدخل الشُّبهةُ على العلماء من هذا الباب.

وأما الإيمان فهو التصديق للمُخبر فيما قال وأخبر عنه، ولكن رُبَّ مخبر بخلاف ما في نفسه فيكون كذاباً إن كان قاصداً لذلك، ورُبَّ مُصدّقٍ أيضاً لكذاب، وهذا أيضاً يحتاج إلى نظر شافٍ لأن الشُّبهة تدخُل على القائلين والمستمعين من هذا الباب. وقد بيَّنا طرفاً من هذه المعاني في رسائلنا المنطقيات.

فصل

واعلم يا أخي أن الإيمان يُورِثُ العلم لأنه متقدم الوجود على العلم، ومن أجل هذا دعت الأنبياء، عليهم السلام، الأمَمَ إلى الإقرار أولاً بما خبَّرتهم والتصديق بما كان غائباً عنهم عن إدراك حواسّهم وتصوُّر أوهامهم، فإذا أقرُّوا بألسنتهم، سمَّوهم عن ذلك المؤمنين. ثم طالبوهم بتصديق القلب كما ذكر الله: ﴿ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه﴾

فإذا وقع التصديق بالقلب سمّوهم الصدّيقين، كما قال تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتّقون﴾.

واعلم أن أول ما يبدأ بالإيمان الذي هو التصديقُ من الأنبياء للملائكة بما يُخبرونهم عما ليس في طاقة البشر تصوُّرها قبل إخبار الملائكة لهم كما قال الله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ إلى آخر الآية. واعلم يا أخي أن الملائكة هم محتاجون إلى الإيمان فهم متفاوتون في درجات العلوم، كما أخبر عنهم فقال: «وما منا إلاَّ له مقام معلوم» وإن من أشرف الملائكة حَمَلةَ العرش الذين هم في أعلى المقامات في العلوم، وهم أيضاً محتاجون إلى الإيمان كما أخبر عنهم فقال، جلَّ ثناؤه: ﴿الذين يَحمِلون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به﴾.

واعلم أنك أيضاً محتاج إلى الإيمان والتصديق لقول المُخبِر لك الذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف، لأنك إن لم تُؤمِن بما يخبرك به حُرمت أشرف العلوم وأجلَّ المعارف. وتعلم أنه ليس لك طريق إلى تصديق المُخبِر لك في أول الأمر إلاَّ حُسنُ الظن بصدقه، ثم على ممرّ الأوقات تتبيَّن لك حقيقةُ ذلك، فلا تطلبه بالبرهان في أول الأمر، ولكن اجتهد في أن تتصوَّر في فكرك ما تسمع بأذنك، ثم اطلب السبيل والبرهان بعد ذلك، ولا ترضَ بالتقليد إذا توسَّطت في العلم، ولا تطلب البرهان في أوله، ولكن هَلُمَّ بنا يا أخي إلى مجلس إخوان لك فضلاء، وأصدقاء لك علماء، وأوِدّاء لك نصحاء، لتسمع أقاويلهم وترى شمائلهم، وتقف على أسرارهم، وتتصوَّر بصفاء جوهر نفسُك ما تصوّروا بصفاء جوهر نفوسهم، وتنظر بعين قلبك كما نظروا بعيون قلوبهم، وترى بنور عقلك ما رأوا بنور عقولهم، فلعلك أن تنتبه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة، وتحيا بروح العلوم، وتعيش عيش السعداء، وتوفَّق للصعود إلى ملكوت السماء، لتنظر إلى الملإ الأعلى، وتكون هناك بنفسك الزكيّة الطاهرة، النقيّة الشفافة، مسروراً فرحاً، منعّماً ملتذّاً أبداً، لا بجسدك الثقيل المُظلم المستحيل الفاسد. وفّقك الله، أيها الأخ، للصواب وهداك إلى الرشاد وجميعَ إخواننا حيثُ كانوا في البلاد.

فصل في ماهية الإيمان

اعلم يا أخي أن الله، جلَّ ثناؤه، إنما أكثر مدح المؤمنين في القرآن، وجعل وعدَهم في الآخرة وثوابهم الجنَّة، لأن الإيمان خَصلةٌ تجمع الخيرات البشرية كلَّها، وفضائل الملائكة. وأيضاً أكثر ذمَّ الكافرين، وجعل وعيدهم جهنم، لأن الكفر خصلةٌ تجمع الشرور البشرية كلَّها، ورذائل الشيطانيّة جميعاً، وقد بيَّنا ماهية الكفر ومَن الكافرُ بالحقيقة في رسالة الناموس، ونريد أن نذكر من شرائط الإيمان وخصائل المؤمنين طرَفاً ليُعلم ما الإيمانُ ويُعرف من المؤمن بالحقيقة.

اعلم يا أخي أن الإيمان يقال على نوعين: ظاهر وباطن، فالإيمان الظاهر هو الإقرار باللسان بخمسة أشياء، أحدها هو الإقرار بأن للعالم صانعاً واحداً حيّاً، قادراً حكيماً، وهو خالق الخلق كلهم، ومدبّرُهم لا شريك له في ذلك أحد. والثاني هو الإقرار بأن له ملائكة صفوة الله من خلقه، نصبَهم لعبادته وخدمته، وجعلهم حفظةً لعالمه، ووكَّل كل طائفة منهم بضرب من تدبيرِ خلائقه بما في السموات والأرض لا يعصُون ما نهاهم عنه ويفعلون ما يؤمَرون. والثالث الإقرار بأنه قد اصطفى طائفة من بني آدم، وجعل واسطةً بينهم وبينه الملائكة ليتلقى الملائكة عن ربهم، ويُلقون إلى بني آدم ما يتلقونه من الملائكة من الوحي والأنباء. والرابع الإقرار بأن هذه الأشياء التي جاءت بها الأنبياء، عليهم السلام، من الوحي والأنباء باللغات المختلفة مأخوذةٌ معانيها من الملائكة إلهاماً ووحياً. والخامس الإقرار بأن القيامة لا مَحالة كائنة، وهي النشأة الأخرى، وأن الخلق كلهم يبعثُون ويُحشَرون ويُحاسَبون ويُثابون بما عمِلوا من خيرٍ ومعروف، ويُجازون بما عملوا من شر ومُنكَر، وذلك قول الله تعالى: ﴿والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ وقال: ﴿واليوم الآخر﴾. فهذا هو الإيمان الظاهر الذي دعت الأنبياء، عليهم السلام، الأمَم المنكِرة لهذه الأشياء الى الإقرار به، وهو يؤخذ تَلقِيناً كما يتلقَّن الصّغار من الكبار، والجُهّالُ من العلماء، الإقرارَ به.

وأما الإيمان الذي هو باطنٌ فهو إضمار القلوب باليقين على تحقيق هذه الأشياء

المُقَرّ بها باللسان، فهذا هو حقيقة الإيمان. وأما المؤمن في ظاهر هذا الأمر فهو المُقِرّ بهذه الأشياء بلسانه، المتميِّزُ من اليهود ومن النصارى والصابئين والمجوس والذين أشركوا، وبهذا الإقرار تجري عليه أحكامُ المسلمين من الصلاة والزكاة والحجّ والصوم وما شاكلها من مفروضات شريعة الإسلام وسُنَّة المؤمنين. وأما الذين مدحهم في كتبه ووعدهم الجنة فهم الذين يتيقنون بضمائر قلوبهم حقائقَ هذه الأشياء المقر بها. وأما الطريق إليه فهو بالتفكير والاعتبار والقيام بشرائطها وواجب حقّها، كما قال تعالى: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾ الآية.

فصل في ماهية التوكل

فاعلم أن إحدى شرائط هذا الإيمان وخِصال المؤمن هو التوكُّل على الله كما قال: ﴿وعلى الله فتوكَّلوا إن كنتم مؤمنين﴾. وقال لنبيه، عليه السلام: ﴿توكَّل على الحي الذي لا يموت﴾ ونريد أن نبيّن ما التوكُّل ومن المتوكّل على الله بالحقيقة.

اعلم يا أخي أن التوكل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها. واعلم أنه إذا كان المتوكَّل عليه ثِقةً يكون قلبُ المتوكّل عليه ساكناً، ونفسُه مطمئنةً. وإذا كان غيرَ ثِقةٍ يكون قلب المُتوكل غيرَ ساكن، ونفسُه غيرَ مطمئنة.

واعلم يا أخي أن الناس كلهم متوكلون، ولكن أكثر توكُّلهم على غير الله تعالى! من ذلك توكّل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات، فهم طولَ النهار مشغولون باللعب لا يفكرون في أمر المعاش، ولا يهمهم طلبه لاتكالهم على آبائهم وقلوبهم ساكنة ونفوسُهم هادئة ليقينهم بآبائهم. وهكذا العبيد مشغولون بخدمة مواليهم لا يُفكرون في طلب المعاش اتكالاً على مواليهم فيما يحتاجون إليه. وهكذا جنود السلطان وخدَمه لا يفكّرون في طلب المعاش اتكالاً على السلطان في أرزاقهم المفروضة لهم فهم مشغولون في خدمة سلطانهم.

وأما غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان: الأغنياء والفقراء، فأما الأغنياء فاتكالهم على ذخائرهم وأموالهم، وقلوبُهم ساكنة ونفوسهم هادئة، ولكن الحِرصَ والرغبة في

الزيادة يَحُثّانهم على الطلب، وهم في الطلب متوكلون على رأس أموالهم وصَرفِهم وحِذقهم بالبيع والشراء في طلب الربح. وأما الفقراء فهم الصُنّاع والذين يعملون بأبدانهم واتّكالهم على صِناعتهم وقوة أبدانهم. وأما المُكَدُّون[1] فاتكالهم على الناس في مُواساتهم من فضل ما في أيديهم، فبهذا الاعتبار لا تجد أحداً متوكّلاً على الله حقَّ التوكل إلاَّ الأنبياء وصالحي المؤمنين، وذلك ان الأنبياء قبل أن يوحى إليهم يكونون كأحد أبناء الدنيا في طلب المعيشة، حى إذا جاءهم الوحي والنبوة، تركوا طلب المعاش، واشتغلوا بتبليغ الرسالة، وتوكلوا على الله فيما يحتاجون إليه من عَرَض هذه الدنيا، وتيقنوا به، عزّ وجلّ، واطمأنت نفوسهم، لأنهم يعلمون ويتيقنون بأن مُرسِلهم يَكفيهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم إذا اشتغلوا بخدمته، كما أن الملوك يَكفُون جنودهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم لهم، وكما أن الموالي يكفون عبيدهم ما يحتاجون إليه في طاعتهم لهم، وهكذا المؤمنون المحققّون الذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم، ويسلُكون مَسلَكهم فيما دلّهم الله عليهم فقال: «لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة»، فالتوكّلُ إذا إحدى هذه الخصال التي يبين بها مَن المؤمِنُ المُحِقُّ.

فصل في ماهية الإخلاص

ومن شرائط الإيمان أيضاً وخِصال المؤمنين الإخلاصُ في العمل والدعاء كما أمر الله تعالى: ﴿ادعوا الله مخلصين له الدين﴾ وقال: ﴿واعبدوا الله مخلصين﴾. فالإخلاصُ في العمل هو أن لا يطلب بما يعملُ جَزاء ولا شكوراً من أحد من خلق الله، مثلُ إخلاص الوالدَين في تربيتهما الأولاد، فإنهما لا يطلبان جَزاء ولا شُكوراً، لأنهما قد علما بأنها واجبة في الجِبلة، ومثلُ إخلاص العبيد الصالحين الذين يخدِمون مواليهم من غير خوف من الضرب ولا طلباً للعوض لأنهم قد علموا بأن خدمتهم هي شيء تقتضيه الحكمة والسياسة، كما بيّنا في رسالة السياسات.

---

1 المكدّون: المتسولون.

واعلم يا أخي أن العبد الذي يخدم مولاه، خوفاً من الضرب أو طلباً للعوَض، عبدُ سَوء، وهكذا من لا يُطيع به إلاّ خوفاً من النار أو رغبةً في الأكل والشرب والجماع في الجنة، فهو ايضاً عبدُ سَوء، والعبد السُّوء لا يكون مخلصاً في الدعاء ولا في العمل.

وأما الإخلاص في الدعاء فلا يكون إلاّ عند انقطاع الحيلة والتبري من الحوْل والقوة. والمثالُ في ذلك رُكّاب البحر، وذلك أنهم يَدعُون الله ويسألونه السلامة عند دخـولهم السفينـة، ولكـن غيرَ مخلِصين لاتكـالهم على الربـان والملاحين في حفظهـا ومراعاتها، ونفوسهم ساكنة هادئة بحضور الربّان والملاّحين، حتى إذا توسّطوا البحر وهاجت الأمواج، واضطربت المراكب، ودُهِش الربّان. وفَزِع الملأّحون، وأشرفوا على الهلاك، فعند ذلك يَدعُون الله مُخلِصين له الدين، لأنهم قد علموا أنه لا يَقدِر أحد من خلق الله على معاونتهم، ولا قوّةً لأحد على دفع ما ورد عليهم إلا الله، عزَّ وجلّ، ولا تتعلق قلوبهم بسبب من الأسباب إلا ان يكون فيها إنسان يعرف أحكام النجوم، وقد عرّف ما العلةُ الموجِبة لما هم فيه من مناحس الفلك، ويعلم أن النحس دافعٌ تدبيره الى سعد من السعود، ويكون قلبه متعلقاً به، فإنه وان كان يدعو ربّه، لا يكون دعاؤه مخلصاً، حتى يتبين أن النحس مستمر، أو دافع التدبير إلى نحسٍ أشرّ منه، فعند ذلك يقطع رجاءه من النجوم فيكون دعاؤه بالإخلاص.

واعلم يا أخي أن ذلك مثلَ هذه الأحوال التي ترد على بني آدم وفزع العقلاء إلى الله تعالى ودعاء العارف لهم بالكشف عنهم ما ورد عليهم، يكون فيها تلقينٌ للجاهلين بالله، وهداية للنفوس الى معرفته، فيعلمون عند ذلك، بنظرهم الى العقلاء في دعائهم وتضرعهم الى الله بالكشف عنهم ما هم فيه، أن لهم إلهاً جبّاراً عالماً قادراً يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه، وهو قادر على نجاتهم، يراهم وإن كانوا لا يرونه، ولا يدرون أين هو.

وعلى هذا القياس كلُّ ما يُصيب الناس من الجهد والبلاء فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله، عزّ وجلّ، مثل الغلاء والوباء وآلام الأطفال ومصائب

الأخيار وما شاكلها من الأمور السماوية التي لا سبيل لأحد في دفعها عنه إلاّ الله تعالى، فيكون ذلك دلالةً لهم على الله، عزّ وجلّ، وهِدايةً إليه، كما قال: ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلهم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تَذَكَّرون﴾.

فصل في ماهية الصبر

ومن إحدى شرائط الإيمان وخِصال المؤمنين الصبرُ كما قيل: «الصبر رأس الإيمان. وقال الله تعالى: ﴿اصبر وما صبرك إلا بالله﴾. وقال للمؤمنين: ﴿اصبروا وصابروا﴾. الآية.

واعلم يا أخي أن الصبر هو الثبات في حال الشدائد بلا جزَع لما يُرجى من محمود العاقبة، والصبر مشتق من مرارة الصبر. واعلم يا أخي أن الناس أكثرُهم يَصبرون في الشدائد، ولكن لا يكون صبرهم بالله ولا لله! لأنهم يجزَعون ويضطربون ويَتشكّون ويَظنُّون بالله ظَنَّ السوء كما قال الله جل ثناؤه في قصة المنافقين: «وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً». وذلك أن منهم من ظنَّ ان تلك الشدائد التي أصابتهم جورٌ منه إذا قضاها عليهم، ومنهم من ظنَّ أنه ليس من قضائه وحكمه، ومنهم من ظنَّ انه ليس يعلم ما هم عليه من الجَهد والبلوى، ومنهم من يعلم أنه يعلمه ولكنه يظن أنه لا يفكِّر فيهم ولا يهمّه أمرهم، ومنهم من يظن أنه قاسي القلب قليل الرحمة وما شاكلها من ظنون السوء.

فأما الأنبياء المؤمنون فإنهم يَصبرون في الشدائد والبلوى ويكون صبرهم بالله ولله، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أن الشدائد التي تُصيب الخلق، فيها ضروبٌ من المصلحة لهم، وإن كان يخفى على كثير من العقلاء ما لتلك المصلحة والحكمة، كما بيَّنا في باب الدعاء والإخلاص عند الشدائد، وكما بيَّنا في رسالة اللذات ما الحكمةُ في ألم نفوس الحيوان دون سائر النفوس التي في العالم، وأن الحكمة فيها هي حثٌّ نفوسها على حفظ أجسادها من التلف والفساد.

واعلم يا أخي أن اعتقاد الأنبياء والمؤمنين بأنَّ في الشدائد التي تصيبهم مَصلحةً لهم نتج من المقدّمة التي أقروا بها وهي قولهم: إن للعالم صانِعاً واحداً حيّاً قادراً حكيماً، وإنه قد رتَّب أمر العالم على أحسن النظام والترتيب في إتقان الحكمة، حتى لا يجري أمر من الأمور صغارِها وكبارِها إلاَّ وفيها ضروبٌ من الحكمة وصنوفٌ من الصلاح لا يعلمه إلا هو.

فصل في ماهية القضاء والقدر والرضاء بالقضاء

ومن شرائط الإيمان وخِصال المؤمنين الرضاء بالقضاء والقدر، وهو طيبُ النفس بما يجري عليها من المقادير، وجَريانُ المقادير هو مُوجِبات أحكامِ النجوم، والقضاء هو علم الله السابق بما توجبه أحكام النجوم. ويقال إن الرضا بالقضاء هو أقلُّ أعمال بني آدم التي تصعد إلى السماء، وهو أشرف شرائط الإيمان وأفضل خصال المؤمنين. وقد قال الله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾. وقال: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾.

ثم اعلم يا أخي أنه لا يوجد أحد طيب النفس بما يجري عليه من المقادير المُرَّةِ الصابرة إلاَّ العارفون بحُرمة الناموس، ولا يعرف أحد حُرمة الناموس كما يجب إلاَّ الأنبياء والمؤمنون. وقد بيَّنا حق الناموس وكيفيَّة حُرمته في رسالة النواميس. فمن علامة الرضا بالقضاء وبما تجري به المقادير أن ينقاد لحكم الناموس طيّبَ النفس مثلَ انقياد سقراط حكيم اليونانيين، وذلك أن هذا الحكيم أوجب عليه القاضي القتلَ بشهادةِ العُدول. وأنه واجب عليه القتل بشُبهة دخلت على القوم فانقاد سقراط للقتل طيّبةً به نفسُه! فقيل له: إنك تُقتل مظلوماً، فهل لك ان نفديك بفِدية أو نهرُبَ بك؟ قال سقراط: أخاف أن يقول الناموس غداً لِمَ فَرَرت من حكمي؟ فقالوا: تقول له: لأني كنت مظلوماً. قال لهم: إن قال لي الناموس: إن ظلمك الشهود الذين شَهدوا عليك بالزور والبهتان، فكان من الواجب أن تظلِمني أنت وتفِرَّ من حكمي، فماذا أقول؟ فخصَمَهم بهذه الحُجّة، وانقاد للقتل.

الرسالة التاسعة

من العلوم الناموسية الشرعية

★ ★ ★

في كيفية أنواع السياسات وكميتها

(وهي الرسالة الخمسون من رسائل إخوان الصفاء)

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلامٌ على عِباده الذين اصطفى، اللهُ خيرٌ أمَّا يُشرِكون؟

اعلم أيها الأخ البار الرحيم، أيدك الله وإيانا بروح منه، أنَّا قد جعلنا في كل رسالة من رسائلنا فصلاً جعلناه من لُبِّها وخالصها، إذا وُفِّق له من فهمه وعمل به نال السعادة في الدنيا والآخرة، وقد لخَّصنا ما أوردناه في رسائلنا الإحدى والخمسين، في رسالة مُفرَدة عن الرسائل سميناها «الجامعة» وهي خارجة من جملة الرسائل، أوردنا فيها بيان ما أخبرناه في غيرها بأخص ما أمكننا منه، فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد إلاَّ من سَهَّل الله تعالى له ذلك، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن أخواتها، غير أن الأصوب والأجود عندنا ان لا تقرأ الرسالة الجامعة إلاَّ بعد قراءة رسائلنا الإحدى والخمسين. فإنه إذا قرأها بعد قراءة هذه كَثُر نفعه وانفتح عليه ما انغلق من رسائلنا، وإن وجدها وفاتته الرسائلُ أو بعضها لم يخل من فوائدها.

وأما هذه الرسالة فقد وسمناها بالسياسة والرياسة لتحمِل نفسك على موجبها وتقرأها على من يخصك من إخواننا الكرام - رحمهم الله - وتُذاكِرَهم في أوقات نشاطك ونشاطهم فإنك لا تخلو من فوائدها.

ونحن نأمرك ايها الأخ السعيد - بعد وقوفك على هذه الرسالة - أن تتبع ما

أمرناك به فإنك تنال السعادة العظمى ديناً ودنيا إن شاء الله تعالى، وإنما سميناه الفصل الجامع لأنه جمع أصل سعادات المنافع إن شاء الله عز وجلّ.

واعلم أن منفعة الإنسان تكون من وجهتين لا ثالث لهما دُنيوية وأُخروية وجسمانية ونفسانية. وإذا كملت للإنسان هاتان السياستان استحقّ اسم الإنسانية وتهيأت نفسه لقَبول الصُّوَرَ الملكية والانتقال إلى الرتبة السماوية عند مفارقة الجسد بالحال لتي تسمّى الموت النازل عليه والاضمحلال الواصل إليه.

وإنما جمعنا لك في هذه الرسالة وصف السياستين ليحصُل لك بها الكمال في المنزلتين فترقى بها الى منزل السعداء في الدارَين، فعليك بالاحتفاظ والصيانة له. ونريد أن نصف لك صفة الذين يَصلحُ أن تُلقي إليهم وتمنّ بها عليهم ونختصر في ذلك بأن نقول من كان صفته صفتك وطريقه طريقك فلا تبخل عليه فإنه لا يحلّ أن تمنع الحكمة أهلها، بل تلقيها إليه إذ كان فصلاً جامعاً للخيرات وقولاً تكمل به السعادات وينزل على العامل بعلمه البركات.

واعلم أيها الأخ أنه لما رأيناك متهيئاً لقَبُول الفوائد العقلية والصنائع العمَلية، واسع النفس الناطقة لقَبول الفوائد العقلية والذخائر العلمية الرّبانيّة، زاهداً في الدنيا، قليل الرَّغبة فيها، متهاوناً بما لا يهمّك من لذاتها ومحبوباتها، منصرفاً عنها متنزهاً عن شهواتها، مترفعاً عن ملاذّها، قانعاً باليسير من قُوتِها، صارفاً عنايتك بكليتها الى صلاح نفسك الزكيّة وروحك الطاهرة المضيئة، تنتقل من بلد إلى بلد ومن بقعة الى بقعة طالباً للعلم مشتملاً برداء الحِلم، حسن العبادة كامل الزُّهد بأخلاق رضيّة، وآداب مَلَكيّة، ونفسٍ أبيّة، وصورةٍ جميلة، وخلقة معتدلة، وآلة كاملة، وذهن صاف، وخاطر مُدرِك، وقلب خاشع، وطرف دامع، وتأملناك تأمل من حقَّق فيك ظنه وصدَّقته عنك فراسته لما استجلاك بنور الله الذي أودعه فيك تنظر به إلى مخلوقاته وتُحسن به قراءة آياته كما قال الحكيم الصادق، ﷺ وعلى آله: «المؤمن ينظر بنور الله» وقال تعالى: ﴿يسعى نورهم بين أيديهم﴾. ونظرناك بهذا النور الموهوب لنا، المجعول أولاً في أبينا إبراهيم حتى رأى به ملكوت السموات والأرض، وكان به

من الموقِنينَ وصار وراثة تنتقل في ذريته الذين اتبعوه كما قال: ﴿فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾.

ولما رأيناك بهذه الرؤية الصادقة بعد اجتهادك وحرصك على الوصول إلينا وشدة الطلب لنا، وخلاصك من دياجي ظلمات زمان الجَور، وغلَبة الشياطين، وكثرة أعوان الظالمين، وخمول الحق وانقطاع أهله بأنفسهم عن الجمهور والرعاع، وتوعر طرقه وسُبُله، فكنت من بين أهل زمانك كقادح زِنادٍ في ليلة ظلماء ذات رياح عاصفة، وظلمات متراكمة، وأهوية باردة، يريد الاستضاءة بنوره في طريق فَقَد أدِلّته واندرست معالمه، وذهبت دلائله، ولم يبق منه إلاّ مسلك وَعر دائر العلامات، يَصعبُ السلوك فيه والقصد لديه، إلاّ على أصحاب اقتفاء الآثار الخفيّة بمعرفة سبقت عندهم بها، وعلامات وصفت لهم وخفيت على الذين يريدون إطفاء نور الله بذهابها وإزالتها، لئلا تُرفع حُجة الله من أرضه وتنمحي آثار حكمته.

فلما أورت لك الزناد بنوره ودلّك الدليل بظهوره، حتى وصلت الى بقعة من بقاع الجنة وروضة من رياض الأرض التي بها تبدّل الأرض غيرَ الأرض يوم العرض، فيها: ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ ﴿تراهم رُكعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ الآية. وهم على شاطىء البحر المحيط من وراء جبل قافٍ عندَ مجرّ خط الاستواء، وهي بقعة يُجمَع طرفاها ما بين شُعاع الشمس عند طلوعها وغروبها، يرى منها المنازل الثماني والعشرون المهيأة لمسير القمر وهي بقعة عالية على متن جبل الأعراف، فلما تخلّصت من أسفل السافلين حتى وصلت الى أعلى عِلّيين بوحدتك وانقطاعك وغربتك عن اهلك وأوطانك وأحبائك وجيرانك وأصدقائك وأخلاّئك، وذهابِ نعيم جسمك، وفقد مالك وولدك، وصبرك على الفتن والبلوى، وركوبك مطية الصبر، وسلوكك في طريق وعر، وارتقائك على جبال يصعب على غيرك طلوعها، وهبوطِك في أودية لا يسهل على غيرك الهبوط فيها، فكنت ما بين جبل ترتقيه، ووحش مُهلك تتقيه، ومهمه دائر شاسع تخشى ان تضلّ فيه، فلم تزل بين شدائد متكاثفة، وأهوال مترادفة كصاحب

سفينة في بحر مظلم في ليل مغيّم قد غاب قمره، واستترت أنجمه، وعصفت به الرياح من كل جانب، وارتفعت حوله الأمواج من كل مكان، وهو صابر على ما حل به، يدعو الى ربه الوسيلة الى الخلاص والنجاة مما هو فيه، فهو بُسكّانه يدير سفينته، ويتجنّب بها موارد الملكة بمعرفته وبما ألهمه الله سبحانه من العلم والعمل بما يكون به نجاته. فلم تزل تلك حاله حتى وصل الى مكان بُغيته ومقرّ طمأنينته.

فلما وصلت أيها الأخ السعيد إلينا، واطّلعت علينا، وامتحنّاك بحيث نراك كما يمتحن مثلك ممن يصل إلينا ويرِد علينا، فرأيناك صابراً نِعَم العبدُ لله عزَّ وجلَّ، ولما رأيناك بهذه الصفة وعرفناك بهذه المعرفة لم يحلَّ لنا ولا وسعنا في ديننا أن نكتُمك النصيحة ولا نؤدّي إليك الأمانة لئلا ترانا بعين الخيانة، وليصح عندك قول نبيك الصادق الفاضل السيد الكامل: « سافروا تَغنَموا » فتعود راجعاً بعد طول سفرك بلا غنيمة تغتنمها ولا حاجة تبلغها، فرأيناك وكان بالله توفيقنا بما رأيناه بإلهام منه لنا ووحي إلينا في رؤيا صادقة أراناها بمنّة أن نجعلك داعياً إلينا، ودالاً علينا، ومبشراً بظهور أمرنا وانكشاف سرّنا من رأيته من إخواننا وأهل مِلّتنا، إذ كانوا لا يَقدِرون على ما قدرت عليه، ولا يصلون الى ما وصلت إليه، لتعذُّر الأمور عليهم، وصعوبة الزمان لديهم، والأسباب المانعة والحوادث القاطعة. وقد اخترنا لمقامك موضعاً تسكن فيه وتأوي إليه لا تصل فيه إليك أيدي الظالمين.

فصل

فإذا أنت وقفت على ما نلقيه إليك في هذا الفصل فاعتمد عليه واسكُن إليه، فإذا صرت إلى حيث كنت قبل وصولك إلى حيث وصلت، فابنِ لك داراً من القناعة، وشيّد بنيانها وارفع حيطانها واجعل بابها من الزهادة، واجعل حاجبك عليها الفقر، واجعل وِطاءك وغِطاءك ترك القنية إلاّ ما تسدُّ به الجوع وتّستر به العورة.

واعلم أن هذه الدار إذا سكنتها أمنت من قطاع الطريق واللصوص ومصادرة

السلطان وحسد الإخوان، وقلّ جارك وبُعد على الناس مزارك، فإذا بنيت هذه الدار على هذه الأركان فليكن مقامك فيها على وجل وخوف من التواني عن شيء من إقامة السياسة النفسانية، وأن تتغافل عن عمل الأعمال الناموسية، وليكن مقعدك من هذه الدار في صدرها بعد إحكامك جميع أمرها.

فصل في السياسة الجسمانية

فأما تدبيرك لجسمك فإذا اخترت العافية التي لا يصل إلى جسمك معها الأذى من الغذاء، فليكن غذاؤك من الموجود غير الممتنع عليك صنفين ثالثهما الماء، إما ما ينزل من السماء أو ما ينبع من الأرض ـ ما تيسر لك. فإنك ما دمت على ذلك من قلة الأكل وترك الشبع وتعمد الجوع في الأوقات التي يصلح فيها أستعماله كانت طبائعك على حالها لا يزيد فيها ما يحتاج أن تنقص، ولا ينقص منها ما تحتاج أن تزيده. فإن كانت العوارض النازلة بالجسم ليست من قِبل الغذاء ولا من جهة التغافل عن إصلاحها، نظرتها إن كانت من جهة اختلاف الأهوية المتصل بالجسم منها الأذى عدّلتها بما يصلح لها مما علمته من السياسة الطبية، وإن كان ذلك بموجبات أحكام النجوم وما قُدِّر فيها اطمأنت نفسك وحسن الصبر بك ولم تتهم نفسك أن الأذى دخل على جسمك من جهة تفريط في الغذاء ولا إكثار من الأكل والشرب.

واعلم أيها الأخ البارّ الرحيم أنك إذا لم تحمِل على جسمك من المآكل والمشارب والباءة والحركة إلاَّ معتدلاً لازَمتك العافية وعدِمت الاسقام. ومع ذلك فاعلم أن الأسقام والآلام لا تدخل على الأجسام إلا بموجب حركة نجومية ومقادير سماوية، وكذلك زوالها، وإنما صار ذلك مقدَّراً على الأجسام من أجل أنها ليست هي الذات الباقية ولكنها ذات فانية، فلذلك وصل إليها التغيير والاضمحلال والتقلب والزوال. وأكثر الناس إذا نزلت الآلام والأسقام اتهموا فيها نفوسهم من كثرة ما يستعملون من المآكل والمشارب، فيكثر غمهم وتدوم حسرتهم، حتى إنهم اتخذوا أنفسهم أعداء لهم يرجِعون عليها باللوم والتأسف على ما فرط منهم فيكون ذلك أدوَم لحسرتهم وأطول لعلّتها.

وإذا أنت تيقنت ذلك سكنت نفسُك وطاب لها الصبر على الأسقام النازلة والأعلال الواصلة إلى الجسم. واجعل أكثر شوقك الى الخلاص من هذه الدار ومفارقة هذا السجن لأنك إذا خرجت منه قدمت على ربك.

واعلم أيها الأخ أنك لا تقدم على ربك ولا تصل إليه وصولاً يجازيك به مجازاة من يستحق الثواب وأنت على هذه الحال. فإذا تحقق عندك ذلك هان الموت عليك فتمنيته وطابت نفسك. فإذا حدثت تلك العِلل والعوارض الـمُحلّلة لتركيب الجسد بموجب الأحكام المقدَّرة ولم ترَ لنفسك في ذلك أمراً وصل ذلك إليك من جهته فليس بموصله إليكِ إلا الحكم الـمُراد به صلاحك وخلاصك ونجاتك، فتفرح بذلك ولا تحزن كما يحزن الـمُتحَنون في أنفسهم بأجسامهم وفي أجسامهم بأنفسهم إذا نزلت بهم الأعلال والأمراض، فيكثر خوفهم ويدوم حزنهم فزعاً من الموت، وهم يعلمون أنه لا بدّ ملاقيهم، فحسرتهم لا تنقضي وغمّهم لا يفنى! قد اشتغلوا بصلاح أجسامهم وأمر دنياهم عن صلاح أنفسهم وآخرتهم فهم مستعجلون نعياً زائلاً وسقماً إليهم واصلاً، فهم لا يخفف عنهم من عذابها ولا يقضى عليهم فيموتوا موت اليأس منها والانقطاع عنها.

فإذا علمت ذلك وتدبرته وفهمته جعلته امامك في سياسة جسمك وتدبير جسدك. فهذه سياسة يختص بها جسمك الكثيف الذي ليس له مَقرّ إلا في الدنيا، ولا مكان إلا في الارض، ولا صفة إلا الطول والعرض والعمق وما يحويه وما يحيط به. واعلم أنه محمول لا حامل، كما ظن كثير ممن لا علم عندهم ولا معرفة معهم أن الجسم حامل النفس وانها زُبدته وصفوة طبائعه، وأنها تقوَى بقوّة الغذاء، وتضعف بضعفه، وليس الأمر على ما ظنوا ولا القضية كما توهّموا، وإنما النفس حاملة للجسم وأعراضه، وهي الذاهبة به في الجهات التي يجب لها، وهي معه تُدبّره في مجيئه وذهابه، وبها يستقر على ما يجانسه ويشاكله من الكثائف، إما في جهة من الجهات الأرضية من هبوط إلى أسفل بحيث يكون له ثبات القدَمين في الهبوط، وإما طلوعٌ إلى فوق بحيث يمكنه مثل ذلك. وأما استواء طيران في الهواء وطلوع إلى السماء، فإنها لا يمكنها بهذه الطينة الكثيفة ترقّيها إلى هناك، بل يمكنها الصعود بمجردها إذا

تخلصت منه وانفصلت عنه.

وذلك أن السفينة في البحر الـمُحكَمة الآلة، الـمُتقَنة الأداة، تمر فيه بمن يروي أمرها، ويصلح حالها، ومع ذلك فإنها لا تسير إلا بهبوب الرياح القائدة لها إلى الجهة التي يختار صاحبها، وإذا سكنت الريح وقفت السفينة عن ذلك الجريان، كذلك جسد الإنسان إذا فارقته النفس لا تتهيأ له تلك الحركة التي كان يتحرك بها مع النفس، ولم يَعدَم من آلته شيئاً، ولا ذهب منه عضو من الأعضاء إلا ذهاب الروح منه فقط! والبرهان أن الريح ليست من جوهر السفينة، ولا السفينة حاملة، بل الريح محرك لها. فإذا صح ان الريح محركة للسفينة وليس من جوهر السفينة، ولا تقدر السفينة ومن فيها على استرجاع الريح بعد ذهابها بحيلة يعملونها أو صنعة يصنعونها، كذلك ليست الروح من جوهر الجسم، ولا الجسم حامل للروح، ولا يَقدِر أحد من العالم على استرجاع النفس إذا فارقت الجسم.

فيا ليت شعري كيف يفسد هذا البرهان إلا بمكابرة العيان! فإذا تحققتَ ذلك وعلمت أن جسمك إنما هو سفينة معدَّة لهبوب الرياح ونزولها عليها، علمت أن هلاك السفينة ـ إذا هلكت ـ يكون من حالين: إما بفساد من جهة جرمها وانحلال تركيبها فيدخل الماء ويكون ذلك سبب غرقها وهلاكها وهلاك من فيها إن غفلوا عنها ولم يتداركوها بالإصلاح والتفقد لها، كهلاك الجسم من غلبة إحدى الطبائع متى تهاون صاحبه وغفل عنه، كذلك النفس لا تبقى مع الجسد إذا فسد مزاجه وتعطَّل نِظامه وضعفت آلته، كما لا يتهيّأ للريح أن تعود للسفينة كما كانت تسوقها قبل غرقها، والريح موجودة في هبوبها غير معدومة من الموضع الذي كانت السفينة فيه قبل هلاكها، كذلك النفس باقيةٌ في معادِها كبقاء الريح في أُفقها بعد تلف الجسم، وإنما يكون الغرق للمركب بفساد آلته وهلاك الجسم بفساد مزاجه وغلبة طبائعه.

وأما القسم الثاني فهو أن يكون المركب هلاكه بقوّة الريح العاصفة الهابة، الوارد منها على السفينة ما ليس في وُسع آلتها حَمله، ولا القدرة عليه، فتضعف الآلة وتتكسر الأداة، فإن كان من فيها من أهلها عارفين مُوجِب ذلك الأمر من نزول

ذلك العاصف، وأنه بموجب المقدار اطمأنت نفوسهم وسلّموا إلى ربهم، ووعظ بعضهم بعضاً، وصبروا على ما نالهم، فإن زاد بهم الأمر حتى يبطح السفينة ما يكسرها ويكون منهم ما قضى، كانوا مطمئني النفوس ولا يتّهمونها، إنما أصابهم ذلك لتفريط وقع منهم، كذلك الأحوال العارضة للجسم من جهة الأحكام الفلكية الحركات النفسانية المنبعثة أولاً من النفس الكليّة التي تذهب بالاجسام وتهدِمها لا دواء للمعالج والطبيب ولا للمريض أيضاً. فأما الصبر عليها وقلة الجزع منها إلى أن تزول أو يكون بها الانتقال إلى دار المعاد، فأحق ما صبر عليه وأولى ما استجيب له. وبهذا الاعتقاد صحّ أن النفس هي جوهر غير الجسم وأنها هي الحاملة لها المبتلاة به. فإذا تصوّرت ذلك وصحَّ عندك وتمَّ لك العمل بهذه السياسة، فقد استراحت نفسك من الهم والغم من أجله وبسببه.

فصل في السياسة النفسانية

فيكون أخلاقك رضيّة، وعاداتك جيلة، وأفعالك مستقيمة، تؤدّي الأمانة إلى أهلها كائناً من كان من وليّ وعدوّ، وتأخذ نفسك بحفظها، وترعى حق من استرعاك حقها، وتحسن مجاورة جارك، وتصفي مودّة صديقك، وتخلص المحبة لمحبك، مع قلة الطمع وإزالة الفزع في مستعجل زائل وحادث نازل، وتريد للغير ما تريد لنفسك، فقد جاء في كلام بعض الناس: «إن المؤمن لا يكون مؤمناً حقاً حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه»، وليس هذا من جيد الكلام! وإنما قال الحكيم الفاضل (ع م): «إن المؤمن لا يكون مؤمناً حتى يرضى لغيره ما يرضى لنفسه». وهذا من شريف الكلام.

وسبيلك أن تعوّد نفسك عمل الخير لأنه خير، لا تريد بفعلك عوضاً، ولا يحملك على فعله خوف، فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيراً، وإن لم تطلب المكافأة، وإن أردت الذكر والاسم، كنت أيضاً منافقاً ولم يكن خيراً، والمنافق لا يستأهل ان يكون في جوار الروحانيين.

وأما سياسة الأهل من الإخوة والزوجة والأولاد والعبيد ومن يجري منك مجراها في النسبة الجسمانية فيجب عليك أن تسوسهم سياسة لا اختلاف فيها، وتُجريهم على عادة لا تَعدِل عنها إلا بموانع مانعة وأسباب قاطعة، لئلا ترجع باللوم على نفسك إذا جنوا عليك وتغيَّروا عمَّا كنت تعهده منهم وتعرفه فيهم بحسب تغيُّر سياستك واختلاف عاداتك، فتنسب التفريط إلى نفسك فيكثُر غمّك ويبدو همك. فإذا سستهم سياسة آلفتهم إياها ورتبتهم عليها استراحت نفسك، مع أن الأحب إلينا والآثرَ عندنا الانفرادُ والوحدة، ولكن لا يكاد يتهيأ ذلك لجميع إخواننا، ولا نأمرهم به أيضاً لئلا ينقطع الحَرثُ والنسل.

وإذا فعلت ذلك أحكمت سياسة الأهل وخصوصاً النساء، فأكثِر تفقّد أحوالهن في كل وقت فإنهن سريعات التلوّن، كثيرات التغير، يتغيرن مع الساعات، ويضطربن على الأوقات، فيكون صفحك إليهنّ كثيراً ومن غير شِعارٍ منهنَّ أن تكون مُراعياً أحوالهن، ولا يغررك منهن صلاح تعرفه فيهن فقد أنبأناك أن تلونهن كثير، وأن استفسادَهن سهل يسير، إلا من عصمها الله تعالى منهن، وقليلٌ ما هنَّ.

وأما أولادك وغلمانك وحواشيك فإياك ان تُظهر لهم فاقة بعد أن تقوم بواجبك المفروض عليك، فإنه متى ظهر لهم منك اختلال أو حاجة نقصت منزِلتُك وقَصُر موضعك، فلم يقم لك وزن، ولا قامت لك هيبة، ولا حاجةَ بك الى أن تكشف فاقتك إلى من لا يزيد شكواك إلاَّ ذلاً ومَهانة، بل ضع عُذرَك عند كل واحد منهم على وجهٍ لا تُنسَب معه الى فاقه، وقِف فهو أعبد وأصلح.

فصل في سياسة الأصحاب

اعلم أيها الأخ أن سياسة الأصحاب لا تكون إلا بعد المعرفة بهم والاطلاع عليهم ومعرفة أحوالهم، أن لا يخفى عليك من أمرهم صغيرة ولا كبيرة، لتسوس كل واحد منهم السياسة التي تليق به دنيا وديناً.

واعلم أنك متى كنت جاهلاً بمعرفتهم لم تتمَّ لك سياستهم ولم تبلغ رضاءهم، ولا

يكونوا لك أصحاباً، أوما علمت ان صاحب الناموس لا يصاحب إلاّ من عرفهم وخَبرهم فاطّلع عليهم اطلاع الإحاطة بهم؟ واحرِص أن تباعد بين معرفتهم بك وبينهم لئلا يطّلعوا عليك كما اطلعت عليهم، فيأتوك من حيث أمنت، لأنه ليس كل من يصاحبك يَحقّ لك ان تثق به، وتطمئن إليه لأن كثيراً ممن يصحب الأنبياء إنما تكون صُحبتهم لهم لوقوع الحيلة بهم، ومرادُهم منهم الإطلاع على أسرارهم ليكشفوها ويظهروها لمن لا يعرفها وهم المنافقون.

فيجب أن تُظهر لهم القرب بالبعد، واللين بالغِلظة، والأنس بالوَحشة، والكرم بالشحّ، والانبساط بالانقباض، والرحمة بالسّخط، والوعد على الجميل، والوعيدّ على الذنب، وقَبول التوبة باللين، والموعظة بإلقاء العلم إليهم بمقدار ما يحتملونه وبحسب ما يستوجبونه. ولا يكن اعتقاد أهلك وذُرّيتك وأزواجك وبنيك مخالفاً لما يظهر من اعتقادك لأصحابك وإخوانك. فمتى لم يكن كذلك فلا أهل لك ولا أصحاب ولا دين ولا دنيا ولا علم ولا عمل! وكيف يجوز للعاقل العالِم أن يكون له أهل يتدينون بدين ويذهبون الى مذهب هو يأمر أصحابه بخلافه؟ بل الواجب عليه أن يكون أهله وأصحابه بمنزلة واحدة عنده في التعليم، ولا يخص أصحاب النَّسَب الجسداني بما لا يبديه لأهل النسب الروحاني، بل يجمعهم معاً في طريق واحد ويلقنهم التعاليم والمعارف والعبادات والفرائض، فيأخذ كلّ واحد منهم بحسب قوته واستطاعته، فإن عدَل واحد من أهله وأقاربه إلى الضدّ مما هو عليه، خالفه بعد تبرئه منه، وأخرجه من جلته كما فعل رسول الله، ﷺ، بعمه أبي لَهب وقال: «يا بني هاشم لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، فإني لا أُغني عنكم من الله شيئاً إلا بعمل صالح». وكما قال تعالى حكاية عن إبراهيم خليله، عليه السلام: «وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه» وقال الله تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ الآية، ويكون يراعي أهل الذكاء والفطنة ومن يقصد الأغراض التي يريدها بكلامه ويومىء بها في إشارته ومخبّآت جواهره في تقاطيع أمثاله ونوادره، فإذا عرفهم ميَّزهم بنظره وألقى القول إليهم في الاعتماد عليهم في تهذيب من دونهم

حتى يُوصلوهم إلى مثل ما وصلوا إليه.

فإذا أحكمت هذه السياسة في الأصحاب والأهل، الأقرب فالأقرب، والأبعد فالأبعد، فأحكم أمر العبادة والقرابين المقرَّبة إلى الله سبحانه، والأعمال المُزدلفة لديه.

فصل في القرابين

فنذكر الآن العبادة والقرابين وهي نوعان لا ثالث لهما: قربانان مقبولان صادقان، ودعاءان مستجابان، وهاهنا قربان غير مقبول ودعاء غير مستجاب، وهو ما أخبر الله عنه أن ولدي آدم قرَّبا قرباناً فتُقبّل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، ودعاء الكافر الذي هو تَباب[1] لا يُقبل.

فأما العبادتان فإحداهما الشرعية الناموسية باتباع صاحب الناموس، والانقياد إلى أوامره ونواهيه، والمسارعة إلى ما جاء به وقضاه وحكم به على من استجاب إليه، وتقرب إلى الله سبحانه وتعالى بما ذكر أنه رضيه من القرابين، والعبادات، والطهارات، والصلوات، والصوم، والزكاة، والحج، والجهاد، والسعي إلى البيوت العامرة والبقاع الطاهرة، والإقرار بكتب الله ورسله وملائكته ووحيه، وما شاكل ذلك في مُوجبات أحكام الشرائع وإقامة النواميس، والامتثال للأوامر والنواهي، والنظر إلى أفعال النبي، ﷺ، والاقتداء بأفعاله، والتشبه به في جميع أفعاله، كما قال الله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾، والتضرع إلى الله سبحانه بالدعاء والابتهال في وقت الاجتماعات في الأعياد والجُمُعات، وعند ظهور الآيات، فهذا هو الدعاء المستجاب والقربان المتقبّل.

وأما العبادة الثانية فهي العبادة الفلسفية الإلهية، وهي الإقرار بتوحيد الله عز وجل، وقد تقدم ذكرها في صدر الرسالة الجامعة في شرح رسالة الأرثماطيقي تقف

---

١ تباب: خسار وهلاك.

عليه إن شاء الله.

وأما الدعاء والقربان المقبول المستجاب فاعلم يا أخي أنك متى كنت مقصّراً في العبادة الشرعية فلا يجب لك أن تتعرض لشيء من العبادة الفلسفية وإلاّ هلَكت وأهلكت وضللتَ وأضللتَ، وذلك ان العمل بالشريعة الناموسية، والقيام بواجب العبادة فيها، ولزوم الطاعة لصاحبها، عليه السلام، والعمل بالعبادة الفلسفية الإلهية إيمانٌ، ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلماً، والإسلام سابق على الإيمان كما قال الله تعالى على لسان رسوله، ﷺ، مخاطباً الأعراب المنافقين من أهل الشريعة الذين كانوا يظهرون الإيمان ويكتمون النِّفاق: «قالت الأعراب آمنَّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم» اوإنما تخصص أصحاب الرسول، عليه السلام، بعده بالصبر الذي رأوه كان يستعمله في العبادة والطاعة لربه فرضاً على نفسه، وتعليماً لأصحابه، فقام بالأمرين، وكمُل بالمنزلتين، وحاز الفضيلتين، لأنه كان، عليه السلام، مسلماً مؤمناً عارفاً بالدعاء في وقت الإجابة، ولذلك كان لا يُرَدّ له دعاء، وكان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالفلسفة الإلهية. ولما تمّت الفضيلة لواحد من أهله وأصحابه قال مفتخراً: «أنا أرسطاطاليس هذه الأمة».

واعلم يا أخي أن اقتران العبادة الشرعيّة بالعبادة الفلسفية صعب جداً، لأنها موت الجسد في أقرب الأوقات وحصرُ النفس عن الأمور المحبوبة بأسرها، وترك الرُّخصة في كل شيء منها، والوصول إلى إدراك حقائق الموجودات بأسرها. ونريد أن نشرح لك طرَفاً منها فتحصُل لك رتبة من الدرجة الأولى، وهو شبه المدخل والمقدمة لك، لعلك تقوم بشيء منها، فيحصُلَ لك رتبة من الدرجة من حد العبادة والدعاء في الأوقات المستجاب فيها من يدعو بذلك.

فصل

واعلم أيها الأخ أن أفضل الدعاء في السُّنَّة الشرعية والديانة الإسلامية في ليلة القدر، وبعدها عيد الفطر، وعيد الأضحية يوم النحر، وعند البيت الحرام وبين

الركن والمقام، وعند معاينة هلال الفطر، وعند بذل الزكاة لمستحقها، ودعاء من يأخذها في وقت أخذها وطلبه إياها، فإن هذا دعاء مستجاب وقربان مُتقبَّل.

وأما العبادة الفلسفية الإلهية فإن أول درجة منها وهي التي كانت الفلاسفة القدماء والأجلّة العلماء يأخذون بها أولادهم وتلامذتهم، بعد تعليمهم أحكامَ السياسات الجسمانية والنفسانية والعبادات الناموسية الشرعية، أن يكون لهم في كل شهر من شهور السنة اليونانية ـ على عدد التاريخ المعروف إلى حيث ينتهي من أراد الاقتداء بتلك السنة ـ ثلاثةُ أيامٍ في كل شهرٍ: يوم في أوله، ويوم في وسطه، ويوم في آخره.

فأما اليوم الأول من الشهر فيجب له أن يتطهر أنظف طهور، ويتبخر بأطيب ما يقدر عليه من البخور، ولا يُفرط في طهارته وصلواته المفروضة عليه في شريعة الناموس، فإذا انقلب من محراب صلاة العشاء الآخرة جلس يسبّح الله ويقدسه ويهلّله ويكبره إلى أن يمضي من الليل الثلث الأول. ثم يقوم ويجدد الوضوء ويُسبغ الطهارة ليكون طهور على طهور ونورٌ على نور، ويبرز من بيته إلى أن يحصُل تحت السماء بحذاء الجدي وهو النجم الذي يهتدى به، قال الله تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾، فيتأمل الكتاب المُبين ويتدبر آياته ويرى الملكوت دائماً وهو يسبّح الله ويقدسه ولا يدع التكبير والتهليل، ليكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض﴾ الآية. ولا يزال كذلك حتى يذهب من الليل الثلثان فيكون الثلث الأول قياماً بعبادة الناموس، والثلث الثاني قياماً في التفكر في الملكوت.

فإذا زال أوان الثلث الأوسط هبط إلى الأرض ساجداً بتذلل وخضوع لباريه، فلا يزال كذلك ما قدر عليه، ثم يرفع رأسه ببكاء واستغفار وتوبة واستعبار، فيعدد ذنوبه على نفسه، وينوي التوجه بحسناته وصالح أعماله، ويدعو بالدعاء الأفلاطوني، والتوسّل الإدريسي، والمناجاة الأرسطاطاليسية المذكورة في كتبهم؛ فلا يزال كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيُسبغ الوضوء ويتطهر، فيرجع الى محرابه فيصلي صلاة

الفجر، ويجلس في مكانه إلى ان تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس وأقبل أول النهار ذبح بيده إن كان ممن قد اعتاد ذلك ما قدر عليه من محلّل الحيوان، ويأمر بإصلاح ما كان من الطعام، ويـأذن لأهله وإخوانه بالدخول عليه والوصول إليه، ويحضِر ذلك بين أيديهم. فإذا فرغوا من طعامهم حمدوا الله، جل وعز اسمه، وشكروه وخرّوا له سُجّداً شكراً له بما منَّ عليهم، ثم يُخرج إليهم من الحكمة بحسب ما يوجبه الزمان ويسعه المكان، ولا يزالون كذلك بقيّة يومهم إلى الوقت من العِشاء الآخرة، فيرجعون الى منازلهم، ويتصرفون في معايشهم، ويقومون بواجبات أحكام أديانهم إلى اليوم الثاني، وهو يوم ليلة البدر إذا استُكملت استدارته وتمت أنواره فيه، في تلك الليلة وصبيحة ذلك اليوم كما فعل في اليوم الأول وأزيَدَ قليلاً، ثم كذلك إلى وقت الإنصراف بعد العِشاء الآخرة من غد ليلة، ثم في آخر الشهر وهو اليوم الخامس والعشرون من شهره بينه وبين أول الشهر الجديد المستقبل خمسة أيام، ويكون لمن اقتدى بهذه السنَّة في السنة ثلاثة أعياد.

فصل

العيد الأول يوم نزول الشمس برج الحمل، وذلك أنه في هذا اليوم يستوي الليل والنهار في الأقاليم، ويعتدل الزمان، ويطيب الهواء، ويهبّ النسيم، ويذوب الثلج، وتسيل الأودية، وتمدّ الأنهار، وتنبع العيون، وترتفع الرطوبات إلى أعلى فروع الأشجار، وينبُت العُشب، ويطول الزرع وينمو الحشيش، ويتلألأ الزهر، وتورق الأشجار، وتكملُ الأنوار، ويخضر وجه الأرض، وتتكوّن الحيوانات، ويدبّ الدبيب، وتُنتَج البهائم، وتدرّ الضروع، وتنتشر الحيوانات في البلاد، ويطيب عيش أهل البرّ، وتأخذ الأرض زُخرُفَها، وتصير كأنها فتاة شابة طرية، فيجب ان يكون ذلك اليوم عيداً يظهر فيه الفرح والسرور.

وكان الحكماء في هذا اليوم يجتمعون ويجمعون أولادهم وشبان تلامذتهم بأحسن زينة وأنظف طهور إلى الهياكل التي كانت لهم، ويذبحون الذبائح الطيبة الطاهرة، ويضعون الموائد، ويكثرون البقول والألبان والحبوب مما تُنبته الأرض، فإذا أكلوا

وفرحوا أخذوا في استعمال الموسيقى بالنَّقَرات المحرِّكة للانفس إلى معالي الأمور، والنغمات اللذيذة بتلاوة الحكمة ونشر العلم، فيكون بذلك راحة النفس وكمال الأنس، فلا يزالون كذلك بقيّة يومهم ثم ينصرفون إلى أشغالهم.

ولهذا اليوم اسم باللغة اليونانية معروف عندهم، وهو اليوم الذي نَزلت فيه الشمس رأس الحمل، نوء الربيع.

فصل في العيد الثاني

فإذا نزَلت الشمس أول السَّرطان فإن ذلك اليوم العيد الثاني نوء الصيف، وفيه يتناهى طول النهار وقِصَر الليل، وانصرافُ الربيع، ومجيء الصيف، واشتداد الحر وهبوب النسائم، ونقصان المياه، ويُبسُ العُشب، واستحكام الحَبّ وإدارك الحصاد والثمار، فيكون ذلك اليوم عيداً لاستقبال زمان جديد تابع للزمان الأول.

وكانت الحكماء تجتمع فيه إلى الهياكل المبنيّة لذلك اليوم، لأنهم كان لهم لكل عيد هيكل لا يدخلونه بذلك الزّي إلاّ في يوم مثله، فيدخلون الهيكل المبني ويلبّسون الذي يليق بطبيعة ذلك البرج، وكذلك ما يكون يستعملونه من الطعام والشراب، وما كان من الثمار الآتي بين التيبيس والترطيب في الطبقة الأولى. فإذا قضوا ما يجب عليهم في ذلك اليوم انصرفوا فلا يجتمعون إلى العيد الثالث وهو يوم نزول الشمس رأس الميزان.

فصل في العيد الثالث

فإذا نزلت أول دقيقة من برج الميزان استوى الليل والنهار مرة أخرى، ودخل الخريف، وطاب الهواء، وهبّت رياح الشمال، وتغير الزمان، ونقصت المياه، وجفّت الأنهار، وقل ماء العيون، وجف النبات، فيكون ذلك اليوم أيضاً يوم عيد، فيدخلون إلى الهيكل المبني لذلك اليوم ويكون استعمالهم من الأكل ما يوافق طبيعة ذلك اليوم والزمان، ومن نشر العلم ما لاق به، ولا عيد لهم بعده إلى أن تبلُغ الشمس آخِرَ القوس أول الجدْي.

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

مراجع خاصة بالتربية العربية الاسلامية (رسائل محققة):

- ابن الجزار، القيرواني (القرن الرابع الهجري): سياسة الصبيان وتدبيرهم، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر.
- ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بيروت، دار الكتب العلمية د. ت (تصوير لطبعة حيدر أباد الدكن، ٣٥٣.) أعاد التحقيق د. عبد الأمير شمس الدين، بيروت، دار إقرأ، ١٩٨٣ م.
- ابن سحنون، محمد: آداب المعلمين، نشرة الاهواني في: التربية في الإسلام، ص٣٥٣ - ٣٦٨، نشرة حسن حسني عبد الوهاب، تونس ١٣٤٨ / ١٩٣١.
- ابن سينا، أبو علي الحسين: رسالة في السياسة، طبعة ألاب لويس شيخو، بيروت ١٩١١، وطبعات أخرى، اعادة تحقيق، الفلسفة العملية عند ابن سينا، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٧ م.د. عبد الأمير شمس الدين.
- ابن طفيل، حي بن يقظان، نشرة سعد، بيروت، دار الآفاق، ١٩٧٤. إعادة تحقيق مع تحليل لمذهب ابن طفيل التربوي، د. عبد الأمير شمس الدين، بيروت، دار إقرأ.
- ابن عبد البر النمري القرطبي، جامع بيان العلم وفضلة ما ينبغي من روايته وحلة، المدينة المنورة د. ت جزءان.
- ابن عرضون، أحمد: مقنع المحتاج في آداب الزواج، في: مجلة العربي، ص ١٠٨ - ١١٢، الكويت، آب ١٩٧٩ م.
- العاملي، زين الدين بن أحمد: منية المريد وآداب المفيد والمستفيد تحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين بيروت دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢ م. مع شرح للمذهب التربوي عند العاملي.
- العلموي، عبد الباسط محمد: المفيد في ادب المفيد والمستفيد، نشر: احمد عبيد، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٤٩.
- ابن المقفع، الأدب، الصغير والأدب الكبير رسالة الصحابة، تحقيق يوسف أبو حلقة، بيروت، مكتبة البيان، ط ٢، ١٩٦٠ م.

- الادب والوجيز للولد الصغير، تحقيق وتعريب محمد غفراني الخراساني، القاهرة، عالم الكتب، ١٣٤١ هـ. ش.
- ابن يحي، عبد الحميد: في: محمد كرد علي، رسائل البلغاء، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ٣٧، ١٩٤٦ م.
- إخوان الصفاء: رسائل اخوان الصفاء، ٤ ج، تحقيق خير الدين الزركلي، القاهرة، ١٩٢٧ م. منشورات دار صادر، بيروت ١٩٥٧.
- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، مطبعة الخانجي، ط ٣، ط ٢، ١٩٦٠. أيضاً بيروت، دار الفكر للمجتمع، ١٩٦٨ م.
- الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، استانبول ١٢٩٢ / ١٨٧٥ القاهرة، دار احياء الكتب العربية أعاد التحقيق د. عبد الأمير شمس الدين بيروت دار إقرأ ١٩٨٣ م.
- السبكي، عبد الوهاب: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وأبو زيد الشلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة، دار الكتاب العربي، ط ١، ١٩٤٨ م.
- السمعاني، عبد الكريم: أدب الاملاء والاستملاء، تحقيق ماكس شيلر، ليدن، أبريل ١٩٥٢. اعاد التحقيق، د. عبدالامير شمس الدين، دار الكتاب اللبناني.
- الطوسي، نصير الدين: كتاب آداب المعلمين، تحقيق يحي الخشاب في: مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ج ٣، ج ٢، (١٩٥٧) ص ٢٦٧ - ٢٨٤ أعاد التحقيق الدكتور عبد الأمير شمس الدين دار اقرأ ١٩٨٣ م.
- العلموي: عبد الباسط بن موسى بن محمد العلموي: أدب المفيد والمستفيد، نشرة احمد عبيد، دمشق، المكتبة العربية، ١٣٤٩ / ١٩٣٠ م.
- الغزالي، أبو حامد: أيها الولد، بيروت اللجنة الدولية لترجمة الروائع الإنسانية ١٩٥١ م. ميزان العمل، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٤.
- الفارابي: كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق البير نادر، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٩ م.
- رسالة في السياسة، نشره الأب لويس شيخو، في: مجلة المشرق، السنة الرابعة ١٩٠١.
- القابسي (أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعروف بالقابسي): الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، نشرة: أحمد فؤاد الأهواني في: التربية في الإسلام، ص٢٦٨ - ٣٤٩، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨ م. اعاد التحقيق، د. عبدالامير شمس الدين، دار اقرأ.

- الكندي، يعقوب بن اسحاق: رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، جزءان، القاهرة ١٩٥٠ م.
- مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب: تهذيب الاخلاق وتطهير الأعراق، مقدمه حسن تميم، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ٢، ١٣٩٨ / ١٩٧٨.

مراجع حديثة درست التربية الاسلامية:

- الابراشي، محمد عطية: التربية الاسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار عيسى البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٩ م.
- أبيض، ملكة: التربية والثقافة الدينية الاسلامية خلال القرون الثلاثة الأولى في بلاد الشام والجزيرة العربية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١ م.
- الأديب، علي محمد الحسين: منهج التربية عند الإمام، النجف، المطبعة الحيدرية، ١٩٦٧ م.
- أحمد، سعد موسى وزميله: تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ م.
- أمين، مصطفى: تاريخ التربية، القاهرة، مطبعة المعارف، ١٩٢٥ م.
- أيوب، حسن: السلوك الإجتماعي في الاسلام، الكويت، دار البحوث، ١٩٧٩ م.
- الأهواني، أحمد فؤاد: التربية في الإسلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨.
- سلطان، محمود السيد: مفاهيم تربوية في الإسلام، الكويت، مؤسسة الوحدة ١٩٦٧ م.
- شمس الدين، عبد الأمير ز.: موسوعة الفكر التربوي العربي الاسلامي، صدر منها: ابن خلدون، زين الدين العاملي، ابن جماعة، ابن طفيل، التربية عند الآدابيين، التربية عند الفقهاء قبل الغزالي. ابن سينا، اخوان الصفاء، الغزالي، ابن سحنون والقابسي.
- شلبي، أحمد: تاريخ التربية الإسلامية، بيروت، دار الكشاف، ١٩٤٥ م.
- الشيباني، عمر محمد التومي: من أسس التربية الإسلامية، ليبيا، منشورات المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٩٧٩ م.
- شهلا، محمد: منهج التربية الإسلامية، دمشق، دار دمشق، ط ٢، د.ت.
- طوطح، خليل: التربية عند العرب، القدس، المطبعة التجارية، د.ث.
- طلس، أسعد: التربية والتعليم في الإسلام، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٧ م.
- طيباوي، عبد اللطيف: محاضرات في تاريخ العرب والإسلام، بيروت، ط ٢، دار الاندلس، ١٩٧٩ م.

- عاقل، فاخر: التربية قديمها وحديثها، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤ م.
- علي سعيد، اسماعيل: قضايا التعليم في عهد الاحتلال، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ م.
- موسى، أحمد سعيد: تطور الفكر التربوي، القاهرة، عالم الكتب، ط ٣، ١٩٧٥ م. أيضاً، تاريخ التربية والتعليم، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ م.
- عبد الدايم، عبد الله: التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٣ م.
- عبد الدايم، عبد الله: الثورة التكنولوجية في التربية والتعليم، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٨ م.
- عبود، عبد الغنى: في التربية الاسلامية، ط ١، دار الفكر العربي، ١٩٧٧ م.
- العنان، محمد: التربية في البلاد العربية، على ضوء مؤتمر مراكش (١٩٧٠)، بيروت، المركز الاقليمي لتخطيط التربية، ١٩٧١ م.
- فرحان، اسحق أحمد: التربية الاسلامية بين الاصالة والمعاصرة، عمان، دار الفرقان، ١٩٨٢ م.
- فياض، عبدالله: تاريخ التربية عند الأمامية واسلافهم في الشيعة بين عهدي الصادق والطوسي، بغداد، مطبعة أسعد، ١٩٧٣ م.
- قنديل، أمين مرسي: أصول التربية وفن التدريس، القاهرة، ١٩٣٧ م.
- ناصر، محمد: قراءات في الفكر التربوي، ج ٣، الكويت، وكالة المطبوعات، ط ٢، ١٩٧٧ م.
- سليمان، فتحية حسن: مذاهب في التربية، بحث في المذهب التربوي عند ابن خلدون، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٧ . أيضاً: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، القاهرة، مكتبة النهضة.
- الندي، أبو الحسن علي الحسن: نحو التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية، بيروت، دار الإرشاد، ١٩٦٩ م.
- ناصر، محمد: في الفكر التربوي العربي الإسلامي، القاهرة، وكالة المطبوعات، ١٩٧٧ م.

مراجع في التربية العامة: (كتب عربية ومترجمة):

- اشتيفيوسر البرت: فلسفة الحضارة، ترجمه عن الإلمانية الدكتور عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٠ م.

- أوبير، رونيه: الجامع في التربية العامة، ترجمة عبدالله عبد الدائم، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ١٩٦١ م.
- بالمادغي: مناهج التربية، ترجمة جوزف عبود كبة، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧٠ م.
- بارنس ن: ديمقراطية التعلم وسيكولوجية التربية، ترجمة زهير السعداوي، بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٨٢ م.
- الجندي، أنور: التربية وبناء الأجيال، بيروت، دار الكتاب اللبناي، ١٩٧٥ م.
- الخوري، انطوان م: أعلام التربية (حياتهم وآثارهم)، بيروت، دار الكتاب اللبناني/ دار الكتاب المصري، ١٩٦٤ م.
- الدمرداش، نوري: المناهج المعاصرة، ط ٢، الكويت، مكتبة الفلاح، ١٩٧٩ م.
- ديوي، جون: المدرسة والمجتمع، ترجمة أحمد حسن عبد الرحيم، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط ٢، ١٩٧٨ م.
- رسل، برتراند: التربية والنظام الاجتماعي، ترجمة سمير عبده، بيروت، دار الحياة، ط ٢، ١٩٧٨ م. أيضاً: في التربية، ترجمة سمير عبده، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤ م.
- ريبول، أوليفيه: فلسفة التربية، ترجمة جهاد نعمان، بيروت، منشورات عويدات، ط ٢، ١٩٧٨ م.
- الشوبكي، علي: المدرسة والتربية وادارة الصفوف، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٧ م.
- صليبا، جميل: مستقبل التربية في العالم العربي، بيروت، منشورات عويدات، ط ٢، ١٩٦٧ م.
- عبد الدايم، عبدالله: التربية القومية، بيروت، دار الآداب، ١٩٦٠ م. ايضاً: التخطيط التربوي، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، ١٩٧٢ م. ايضاً: المدخل الى التربية التجريبية، دمشق، مطبعة الجامعة السورية، ط ٢، ١٩٥٧ م.
- حسين، عبدالله: التعليم العربي والجامعي، القاهرة، مطبعة التوفيق، ١٩٤٥ م.
- عبد المجيد، عبد العزيز: في طرق التدريس (القصة في التربية) القاهرة، دار المعارف، ط ٢، ١٩٧٣ م.
- عبد العزيز، صالح: التربية وطرق التدريس، ٣ أجزاء، القاهرة، دار المعارف طبعة ١٢، ١٩٧٦ م.
- عطية، نعيم: التقييم التربوي الهادف، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٧٠ م.
- غالب، حنا: مواد وطرائق التعليم في التربية المتجددة، بيروت، دار الكتاب اللبناي، ط ٢،

١٩٧٠ م.
- الغريب: رمزية: التعلّم، ط ٤ ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١ م.
- فايد، عبد الحميد: رائد التربية العامة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ٢ ، ١٩٧٠ .
- النفيس، أحمد علي / ريدان، محمد مصطفى: التوجيه الفني التربوي، ليبيا، منشورات الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلانات، ١٩٧٩ م.
- مديسي، انجيلا: التربية الحديثة، ترجمة علي شاهين، بيروت، منشورات عويدات، ط ٢ ، ١٩٧٧ م.
- ميالاريه، غاستون: مدخل الى التربية، ترجمة نسيم نصر، منشورات عويدات، ١٩٧٤ م.
- النحيبحي، محمد لبيب: في الفكر التربوي، القاهرة، مكتبة الانجلو العربية، ١٩٧٠ م.
- ياسين، محمد حسين آل: المبادىء الأساسية في طرق التدريس العامة، منشورات مكتبة النهضة في بغداد وبيروت، ودار القلم، ١٩٧٤ م.

مراجع في علم النفس وعلم النفس التربوي:

- رزوق، أسعد: موسوعة علم النفس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧ م.
- روكلن، موريس: تاريخ علم النفس، ترجمة علي زيعور، بيروت، دار الاندلس، ط ٣ ، ١٩٧٨ م. (فضلا علم النفس التربوي وعلم نفس الولد).
- زيعور، علي: مذاهب علم النفس، بيروت، دار الاندلس، ط ٢ ، ١٩٧٧ م.
- الشيخ، سليمان الخضري: الفروق الفردية في الذكاء، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٧٩ م.
- صالح، أحمد زكي: علم النفس، القاهرة، مكتبة النهضة، ط ١٠ ، ١٩٧٢ م.
- عاقل، فاخر: مدارس علم النفس، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٣ ، ١٩٧٧ م.
- عبد الموجود، محمد عزت / وزملاؤه: أساسيات المنهج وتنظيماته، القاهرة، دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٧٩ م.
- الغريب، رمزية: التعلّم، ط ٢ ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧١ م.
- القوصي، عبد العزيز: أسس الصحة النفسية، القاهرة، مكتب النهضة، ط ٣ ، ١٩٥٢ م.

مجلات ودوريات:

- الأبحاث التربوية: اصدار كلية التربية في الجامعة اللبنانية، ١٩٧٥ م، وما بعد.

- التربية الجديدة: مكتب اليونسكو للتربية في البلاد العربية، توزيع المكتبة الشرقية بيروت ك الأول ١٩٧٥ وما بعد.
- صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية: أعداد متفرقة.
- المجلة التربوية: اصدار المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت ١٩٧٥ م، وما بعد (١١).

أطروحات ومحاضرات جامعية:

- بيطار، صبحي: التربية والتعليم عند ابن سينا، كلية التربية بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٧ م.
- رعد، ماجد: الرياضة والفكر العربي عند العرب، كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٨ م.
- زيعور، علي: محاضرات في الفكر الاجتماعي عند ابن سينا (قطاع التربية)، كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٤ و ١٩٧٧ م.
- شمس الدين، عبد الأمير: السياسة العملية عند ابن سينا، أطروحة ماجستير، كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، ١٩٧٤ م.

المراجع الاجنبية:

- DURKHEIM Emile: Education et Sociologie, Paris, P. U. F. 1977.
- LFIF Jean: Psychologie et éducation, tome 4, textes de ps. de L'enfant, Paris, Fernand Natha 1976.
- CAL Roger: Histoire de l'éducation, Paris, P. U. F. 1976.
- FOULQUIE Paul: Dictionnaire de la langue pedagogique, Paris, P. U. F. 1971.
- JABRE Farid: La notion de la «Ma'rifa» chez Chasall, Beyrouth, édition des lettres orientales, 1958.
- HUBERT René: Traité de Pédagagie générale. Presse univer. de France, Paris, 1946.
- KAYE Barringtion: Pédagogie de groupe, science de l'éducation 4, Paris, 1975 Dunod.
- LAFONT Robert: Vocabulaire de psychopédagogie et de psychiatrie de l'enfant, Paris, P. U. F.
- MEDICI Angèle: L'Education nouvelle, Paris, P. U. F. 1972.
- Mollo: L'Ecole dans la societé, Paris, Dunod, 1970.
- MONTESSORI Marie: L'enfant, tradult, par georgette Bernard, Paris, 1933.
- REBOUL: La philosophie de l'Education, Pris, P. U. F. 1970.

– THOMAS Raymond: L'Education physique, Paris, P. U. F. 1977.

– VAN QUANG Jean-Pierre: Sciences et techniques de l'éducation, Paris, Casterman, 1974.

– SALAMA Ibrahim: Bibliogrophie adalytique et critique touchant la question de l'enseignement en Egybte depuit le periodes de Mamelukes jasqu'a nos jours, Le Caire, 1937.

– La petite enfance: Colloque du C. E. R. M., No 125, Paris, 1975.

– Ecole de demain: Actualités pédagogiques et psychologiques, Suisse, De la chaux, 1977.

– ZAZZO René: Traité de Psychologie de l'enfant, Paris, P. U. D. F., 1970.

فهرس الكتاب

إهداء .... صفحة ٥
توطئة ٧
مقدمة ٩

القسم الاول: التحليل

الفصل الأول: في الفلسفة والتربية ١٩
الفصل الثاني: فلسفة اخوان الصفاء وتعاليمهم ٢٥
أ ـ نظرتهم للكون وللوجود ٢٦
ب ـ بالعلوم والمعارف ترتقي النفس وتتحقق ماهيتها ٢٧
جـ ـ موقع الانسان في هذه الفلسفة ٢٨
د ـ الجانب الاجتماعي للإنسان ٣٠
هـ ـ ثنائية الإنسان ٣١

الفصل الثالث: بعض المفاهيم التربوية ٣٥
أولاً ـ عناصر ثابتة ليس عليها خلاف ٣٥
أ ـ التربية والعملية التربوية ٣٦
ب ـ التربية وفلسفتها ـ المذهب التربوي ٣٩
جـ ـ التربية وقطباها ٤٢

ثانياً ـ عناصر متغيّرة ليس عليها إجماع (غير محايدة) ٤٣
أ ـ الفلسفة التربوية وغاياتها ٤٣
ب ـ المنهجية التربوية ٤٧

الفصل الرابع: مذهب اخوان الصفاء التربوي ٥١
الاتجاه الأول: التنظيم الذاتي والداخلي للجماعة ٥٥
الاتجاه الثاني: المنهجية التربوية والتعليمية ٥٧
أولاً - النفس الانسانية ٥٩
ثانياً - العقل ٦١
ثالثاً - فضل العلم وشرفه ومدى حاجة النفس البشرية إليه ٦٤
رابعاً - أجناس العلوم وأنواعها ٦٧
أ - نظرتهم للعلوم وتعاملهم معها ٦٧
ب - أنواع العلوم وأجناسها ومواضيعها ٧١
جـ - أقسام الرسائل ومواضيعها (المادة التعليمية التعلّمية) ٧٤

الفصل الخامس: الصنائع العلمية الروحية ٧٧
العلم والتعلّم والتعليم والتربية ٧٧
- وحدة العقل تحقق وحدة الإنسان وبالتالي وحدة الأحكام ٨٠
الإنسان وتطوّره ٨١
أنواع الصناعات وطبيعة كل منها ٨٥
الأخلاق ٨٨

خلاصة وحكم ٩٥

القسم الثاني: نصوص مختارة

الفصل الأول: نصوص مختارة من المجلد الأول ١٠١
فهرست الرسائل ١٠١
فصل في العلم والعلوم والتعلّم وأوجه السؤال ١٢٥
فصل في أجناس العلوم ١٢٨
فصل في العلوم الإلٓهية ١٣٤
فصل في مراتب الصناعات ١٣٧

فصل في أن كل صناعة تحتاج إلى الفكر والتعقّل ١٣٨
فصل في شرف الصنائع ١٣٩
فصل في قابلية الإنسان الصنعة ١٤٢
فصل في الغرض من المُلك ١٤٤
فصل في ماهيّة الأخلاق ١٤٤
مطلب في التربية ١٤٦
فصل في المعتقد والاخلاق ١٤٦
فصل في مراتب الأنفس ١٤٩
فصل في فضل طلب العلم ١٥٢
فصل في نسبة الاخلاق ١٥٥
فصل في العلم والتعلّم والتعليم ١٥٧

الفصل الثاني: نصوص مختارة من المجلد الثاني ١٥٩
الرسالة التاسعة: تركيب الجسد ١٥٩
- فصل في كيفية تركيب الجسد وكيفية أخلاط البدن ومزاج الطبائع ١٥٩
- فصل في أن الجسد كالدار وأن النفس كالساكن في الدار ١٦١
- فصل في ماهية اللذة والألم والتعب والراحة وكيفية إدراك الحواس ١٦٣
- فصل في ذكر القوى الخمس الروحانية ١٦٤
- فصل في العلة التي من أجلها صار علم الإنسان بالمعلومات من ثلاثة طرق ١٦٥

الرسالة الحادية عشرة: من الجسمانيات الطبيعيات ١٦٧
- فصل في كيفية حال الجنين في الشهر الرابع ١٦٧
- فصل في كيفية الجنين في الشهر الخامس ١٦٨
- فصل في كيفية حال الجنين في الشهر السادس ١٦٩
- فصل في حاجة الإنسان إلى التعاون ١٧٣

الفصل الثالث: نصوص مختارة من المجلد الثالث ١٧٥
الرسالة الرابعة عشرة: من الجسمانيات الطبيعيات - في بيان طاقة الإنسان في المعارف وإلى أي حد هو ومبلغه من العلوم وإلى أي غاية ينتهي وأي شرف يرتقي ١٧٥

- فصل في اعتبار الموت والحياة ١٨٩
- فصل في ماهية الحياة ١٩١
- فصل في غرض رباط النفس الجزئية بالجسد الجزئي ١٩٢
- فصل في غرض السياسات ١٩٣
- فصل في عيوب الجسد ومثالبه ١٩٣
- فصل في ماهية الألم واللذة وكيفيتها ١٩٥
- فصل في الكفر ١٩٧
- فصل في الكون والفساد ١٩٩
- فصل في كيفية وجدان اللذة والآلام معاً في وقت واحد ٢٠٢
- فصل في بيان ما يخص الانسان من المعلومات ٢٠٣
- فصل في بيان القوة المتخيّلة ٢٠٥
- فصل في عجائب هذه القوة المتخيّلة وتفاوت الناس فيها ٢٠٧
- فصل في بيان فضيلة هذه القوة ٢٠٨
- فصل في بيان أفعال القوة المفكرة ٢٠٩
- فصل في بيان ما يعلم بأوائل العقول ٢١١
- فصل في بيان آداب الجدال ٢١٥

الفصل الرابع: نصوص مختارة من المجلّد الرابع ٢٢١

الرسالة الثانية: من العلوم الناموسية والشرعية: في ماهية الطريق إلى الله عز وجل ٢٢١
- فصل في الحث على تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق ٢٢٤

الرسالة الخامسة: من العلوم الناموسية والشرعية: في ماهية الإيمان وخصال المؤمنين ٢٣١
- فصل في ماهية الإيمان ٢٣٦
- فصل في ماهية التوكل ٢٣٧
- فصل في ماهية الأخلاص ٢٣٨
- فصل في ماهية الصبر ٢٤٠
- فصل في ماهية القضاء والقدر والرضاء بالقضاء ٢٤١

الرسالة التاسعة: من العلوم الناموسية والشرعية: في كيفية أنواع السياسات وكميتها ٢٤٢

- فصل في السياسة الجسمانية ٢٤٦
- فصل في السياسة النفسانية ٢٤٩
- فصل في سياسة الأصحاب ٢٥٠
- فصل في القرابين ٢٥١
- فصل في العيد الثاني ٢٥٦
- فصل في العيد الثالث ٢٥٦

المصادر والمراجع

مراجع خاصة بالتربية العربية الإسلامية (رسائل محققة) ٢٥٨
مراجع حديثة درست التربية الإسلامية ٢٦٠
مراجع في التربية العامة (كتب عربية ومترجمة) ٢٦١
مراجع في علم النفس التربوي ٢٦٣
مجلات ودوريات ٢٦٣
اطروحات ومحاضرات جامعية ٢٦٤
مراجع أجنبية ٢٦٤

صدر للمؤلف

الفكر التربوي عند الفقهاء:

- ابن سحنون والقابسي.
- ابن جماعة.
- زين الدين العاملي.
- السمعاني.

الفكر التربوي عند الفلاسفة:

- ابن طفيل.
- ابن سينا.
- ابن خلدون.
- إخوان الصفاء.

الفكر التربوي عند الآدابيين:

- عبد الحميد.
- ابن المقفع.
- الجاحظ.

الفكر التربوي عند الصوفيين:

- الغزالي.

تحت الطبع

- الفكر التربوي في عصر النهضة.
- مدخل جديد الى تاريخ الفلسفة.
- تأريخ التربية..

الشركة العالمية للكتاب
دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب العالمي

اخراج وتنضيد . دار المنال (فنون طباعية)
بيروت - شارع سليم سلام - تلفون ٢٤٦٧٣٣